إسرائيل شاحاك

التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية
وطأة ثلاثة آلاف سنة

ترجمة صالح علي سوداح

Bibliotheca Alexandrina
0111745

التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية

وطأة ثلاثة آلاف سنة

إسرائيل شاحاك

التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية
وطأة ثلاثة آلاف سنة

ترجمة صالح علي سوداح

بيسان

اسرائيل شاحاك التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية
Israel Shahak Jewish History, Jewish Religion

ترجمة صالح علي سوداح

جميع الحقوق محفوظة
طبعة أولى، أيلول 1995

توزيع بيسان للنشر والتوزيع
ص.ب. 13-5261 - بيروت، لبنان
هاتف: 351269

مقدمة

غور فيدال

أواخر الخمسينات، أخبرني جون ف. كينيدي، المؤرخ ورجل الأسرار، كيف أصبح هاري ترومان معزولًا يتجنبه الجميع، تقريبًا، عندما قرر خوض معركة الرئاسة عام ١٩٤٨، وكيف أحضر له صهيوني أميركي مبلغ مليوني دولار نقداً في حقيبة وهو على متن أحد قطارات حملته الانتخابية، ولهذا السبب كان اعترافنا بإسرائيل سريعاً جداً. ولما كنا، جون وأنا، لسنا من اللاساميين (خلافاً لما كان عليه والده وجدي)، فقد اعتبرنا الأمر مجرد قصة مضحكة عن ترومان والفساد المستشري في الأوساط السياسية الأميركية.

لسوء الحظ، أدى الاعتراف المتسرع بإسرائيل، إلى خمس وأربعين سنة من الاضطراب القاتل وتدمير ما ظن الزملاء الصهاينة، أنه سيكون دولة تعددية وموطناً لسكانها الأصليين من مسلمين ومسيحيين ويهود، وموطناً مستقبلياً للمهاجرين اليهود المسالمين من أوروبا وأميركا، وحتى أولئك الذين يميلون إلى الاعتقاد بأن السمسار العقاري العظيم المقيم في السماء قد أعطاهم، وإلى الأبد، أرض يهودا والسامرة. وبالنظر لأن العديد من المهاجرين كانوا اشتراكيين طيبين في أوروبا، افترضنا أنهم لن يسمحوا بأن تصبح الدولة الجديدة ثيوقراطية، وأن أهالي فلسطين يستطيعون العيش معهم على قدم المساواة. ولكن هذا لم يكن مقصوداً.

لن أعيد ذكر مآسي وأهوال حروب تلك المنطقة التعيسة، ولكني أقول أن التسرع في اختراع إسرائيل قد سمم الحياة السياسية والثقافية في الولايات المتحدة الأميركية، حامي إسرائيل البغيض.

بغيض، لأن ما من أقلية أميركية، وعلى مدى التاريخ الأميركي، اختطفت هذا القدر من أموال دافع الضرائب الأميركي لاستثمارها في «وطن قومي». وكأن دافع الضرائب الأميركي كان ملزمًا بدعم البابا لاسترداد الأقاليم التي كانت خاضعة لسلطته، لمجرد أن حوالي ثلث شعبنا من الروم الكاثوليك. ولو حاول أحد هذا لثارت ضجة عظيمة، ولقال الكونغرس: لا. ولكن أقلية دينية يقل تعدادها عن اثنين في المئة اشترت أو أخافت سبعين شيخاً (نسبة الثلثين ضرورية لتجاوز أي نقض رئاسي غير مرغوب فيه)، وظلت تحظىٰ بتأييد وسائل الإعلام.

بمعنى ما، أنا معجب بالطريقة التي أدى بها اللوبي الإسرائيلي مهمته، وجعل مليارات الدولارات، تذهب عاماً بعد عام، إلى إسرائيل، «قلعتنا ضد الشيوعية». في الحقيقة، لم يكن حضور الاتحاد السوڤياتي ولا الشيوعية مؤثراً في المنطقة. ما فعلته أميركا هو تحويل العرب الذين كانوا يوماً أصدقاءَنا إلى أعداء. وفي هذه الأثناء، أخذ التضليل الإعلامي في شأن ما يجري في الشرق الأوسط يتعاظم، والضحية الرئيسية لهذه الأكاذيب المنمقة - عدا دافع الضرائب الأميركي - هم يهود أميركا الذين كان يبتزهم وباستمرار، إرهابيون محترفون مثل بيغن وشامير. والأسوأ، هو أن المثقفين الأميركيين - باستثناء قلة شريفة - تخلوا عن الليبرالية للدخول في سلسلة من التحالفات الحمقاء مع اليمين المسيحي (اللاسامي)، وتجمع البنتاغون الصناعي. عام ١٩٨٥، كتب أحدهم وبكل حماقة، أنه عندما وصل اليهود إلى المسرح الأميركي، وجدوا تفكيراً ليبرالياً وسياسيين ليبراليين متعاطفين معهم في مواقفهم وأكثر اهتماماً بمصالح اليهود، أما الآن فمصلحة اليهود تقضي بالتحالف مع الأصوليين البروتستانت، لأنه لم يعد هناك نفع من تمسك اليهود اللاهوتي

المرائي بأفكار الماضي. حول هذه النقطة، انقسم الأميركيون، والذين انتقدوا اليهود، الذين كانوا حلفاءً لنا يوماً، بسبب انتهازيتهم الضالة، كوفئوا فوراً باللقب الطقسي، «لاسامي» أو «يهودي كاره لذاته».

لحسن الحظ، ما زال فعل العقل حياً وقوياً في إسرائيل من بين كل الأماكن. ومن القدس، لم يكف إسرائيل شاحاك عن تحليل لا سياسات إسرائيل الكئيبة فحسب، بل والتلمود نفسه، وأثر التقاليد الحاخامية (الكهنوتية) على الدولة الصغيرة التي يريد اليمين الديني تحويلها إلى ثيوقراطية لليهود فقط. أقرأ لإسرائيل شاحاك منذ سنوات، فهو ذو عين ناقدة للمغالطات التي قد توجد في أي ديانة تحاول عقلنة اللامعقول، كما يتمتع بنظرة ثاقبة في نقد تناقضات النصوص. وكم هي ممتعة قراءة ما كتبه عن الطبيب، إبن ميمون، الكاره الكبير لغير اليهود.

لا حاجة للقول ان سلطات إسرائيل تستنكر كتابات شاحاك، ولكنها لا تستطيع فعل الكثير مع أستاذ كيمياء متقاعد، ولد في وارسو عام ١٩٣٣، وقضى طفولته في معتقل بيلسين (Belsen)، وعام ١٩٤٥، أتى إلى إسرائيل، وخدم في الجيش. لم يصبح ماركسيا خلال الفترة التي كانت فيها الماركسية موضة العصر. كان، ولا يزال، إنسانياً يكره الامبريالية سواء كانت باسم رب إبراهيم أو جورج بوش، وهو كذلك، يعارض بعلم وذكاء، العنصر الشمولي (Totalitarian) في اليهودية. وكالعالم الكبير توماس بين (Thomas Paine)، يوضح شاحاك التاريخ الطويل الذي خلفنا وراءنا والمستقبل الذي ينتظرنا، ويواصل التحليل عاماً بعد عام، والذين يستمعون إليه سيكونون أكثر حكمة، وهل أجرؤ على قول: أفضل؟ هو النبي الأخير، إن لم يكن آخر الأنبياء العظام.

الفصل الأول

يوتوبيا مغلقة؟

«أكتب ما أعتقد أنه الحقيقة، لأن قصص اليونانيين عديدة، وهي في رأيي سخيفة».

(هيكاتيوس مبليتوس - كما رواها هيرودوتس)

«أفلاطون صديق، ولكن الحقيقة صديق أعظم».

(صياغة جديدة لعبارة أرسطو في كتاب الأخلاق)

«في دولة حرة، يفكر كل إنسان كما يشاء، ويقول ما يفكر به».

(سبينوزا)

رغم أن هذا الكتاب مكتوب باللغة الإنجليزية، وموجه إلى شعوب تعيش خارج إسرائيل، فهو بشكل ما، استمرار لنشاطاتي السياسية كيهودي إسرائيلي. بدأت هذه النشاطات عام ١٩٦٥/٦٦ باحتجاج أدى إلى فضيحة كبيرة في ذلك الوقت. شاهدت بأم عيني يهودياً متعصباً يرفض السماح باستعمال هاتفه يوم السبت لاستدعاء سيارة إسعاف لغير يهودي انهار في ضاحية مجاورة في القدس. بدلا من أن أنشر الحادثة في الصحف، طلبت اجتماعاً مع عدد من أعضاء المحكمة الدينية في القدس، وهم من رجال الدين الذين تعينهم حكومة إسرائيل، وسألتهم عما إذا كان هذا السلوك يتوافق مع تفسيرهم للتعاليم الدينية اليهودية، فأجابوا بأن اليهودي المعني كان مصيباً في تصرفه وتقياً، ودعموا رأيهم

بالإشارة إلى مختصر معتمد للقوانين التلمودية، كتب خلال هذا القرن.
كتبت عن الحادثة للصحيفة العبرية اليومية «هآرتز»، وأدى نشرها إلى فضيحة إعلامية.

نتائج الفضيحة كانت، بالنسبة لي، سلبية إلى حد ما؛ فالسلطات الدينية في إسرائيل أو في الخارج لم تعدل عن حكمها بأنه لا يجوز لليهودي أن ينتهك حرمة السبت لإنقاذ حياة غير يهودي، وأضافت الكثير من الهذر المتشح بستار من التقوى والذي مفاده أن انتهاك حرمة السبت مصرح به فقط إذا كان من شأن نتائج الرفض تعريض اليهود للخطر. بدا واضحاً لي، بالاستناد إلى المعلومات التي اكتسبتها في صغري، ودراستي للقوانين التلمودية التي تنظم علاقات اليهود مع غير اليهود أنه، لا الصهيونية، حتى في جناحها الذي يبدو علمانياً، ولا السياسة الإسرائيلية منذ ولادة دولة إسرائيل، وبصورة خاصة سياسة مؤيدي إسرائيل في الخارج، يمكن أن تفهم، ما لم يؤخذ تأثير تلك القوانين العميق ونظرتها إلى العالم، بالاعتبار. والسياسات الإسرائيلية العملية التي اتبعت بعد حرب الأيام الستة، لاسيما التمييز العنصري التي يتسم بها الحكم الإسرائيلي للمناطق المحتلة، ومواقف أغلبية اليهود من المسائل المتعلقة بحقوق الفلسطينيين، حتى في المطلق، عززت هذه القناعة.

لا، أقصد بهذا القول تجاهل الاعتبارات السياسية أو الاستراتيجية التي أثرت على حكام إسرائيل. ما أقصد قوله هو أن السياسات الفعلية هي حصيلة تفاعل بين الاعتبارات الواقعية (سواء كانت صائبة أو خاطئة، أخلاقية أو لا أخلاقية في رأيي)، والمؤثرات الإيديولوجية. ويبدو أن هذه المؤثرات أقوى أثراً كلما قل بحثها وتسليط الأضواء عليها. وأي شكل من أشكال العنصرية أو التمييز أو كره الغير يصبح أكثر فاعلية وتأثيراً في السياسة إذا اعتبره المجتمع الذي يتعاطاه أمراً مسلماً به. وعندما تغذى العنصرية وميول التمييز وكره الغير السائدة لدى اليهود والموجهة ضد غير اليهود، بالدوافع الدينية، تصبح مثل نقيضتها اللاسامية بدوافعها الدينية.

واليوم إذ يجري بحث الثانية، ينكر حتى وجود الأولى، وبصورة عامة خارج إسرائيل أكثر من داخلها.

تعريف الدولة اليهودية

لا يمكن من دون بحث المواقف اليهودية السائدة تجاه غير اليهود فهم مفهوم إسرائيل كدولة يهودية حتى كما تعرف هي نفسها رسمياً. والتصور الخاطئ الشائع بأن إسرائيل، حتى ولو صرفنا النظر عن حكمها للأراضي المحتلة، هي ديمقراطية حقيقية، ناشئ عن رفض مواجهة تأثير تعبير «دولة يهودية» على غير اليهود. وفي رأيي أن إسرائيل، كدولة يهودية، تشكل خطراً لا على نفسها وعلى سكانها فحسب، بل على كل اليهود والشعوب والدول الأخرى في الشرق الأوسط وغيره، كما أعتبر أن دول وكيانات الشرق الأوسط الأخرى، التي تعرف نفسها بأنها «عربية» أو «مسلمة»، كما تعرف إسرائيل نفسها بأنها «يهودية» تشكل خطراً كذلك، إلا أن هذا الخطر يبحث على نطاق واسع، بينما لا يبحث أبدا الخطر الذي يشكله الطابع اليهودي لدولة إسرائيل.

كان مبدأ كون إسرائيل «دولة يهودية» ذا أهمية فائقة لدى السياسيين الإسرائيليين منذ قيام الدولة، وقد غرس في أذهان السكان اليهود بكل الوسائل التي يمكن تصورها. وعندما ظهرت، أوائل الثمانينات، أقلية يهودية تعارض هذا المفهوم، صدر قانون دستوري (قانون له الأولوية على أحكام القوانين الأخرى، ولا يمكن إلغاؤه إلا وفق أصول خاصة)، عام ١٩٨٥ أقرته أغلبية كبيرة في الكنيست، وبموجب هذا القانون لا يجوز لأي حزب يعارض برنامجه مبدأ «الدولة اليهودية» أو يعلن عن عزمه على تغيير هذا المبدأ بالوسائل الديمقراطية، أن يشارك في انتخابات الكنيست. أنا نفسي، عارضت هذا المبدأ الدستوري بشدة. الأثر القانوني بالنسبة لي، هو أني لا أستطيع، في الدولة التي أنا مواطن فيها، الانتساب لحزب أؤيد مبادئه، ولا يستطيع هذا الحزب الاشتراك في

انتخابات الكنيست. وهذا المثل بحد ذاته، يظهر أن إسرائيل ليست ديمقراطية بسبب تطبيق الإيديولوجية اليهودية الموجهة ضد غير اليهود جميعاً، وضد اليهود الذين يعارضون هذه الإيديولوجية. ولا يقتصر الخطر الذي تمثله هذه الإيديولوجية المهيمنة على الشؤون الداخلية، فهو يؤثر أيضاً على السياسة الخارجية. وسيواصل هذا الخطر النمو طالما تعزز عاملان معتمدان حالياً، هما: مواصلة تعزيز الطابع اليهودي لإسرائيل ومواصلة تعزيز قوتها وخاصة قدراتها النووية. والعامل المشؤوم الآخر، هو تنامي التأثير الإسرائيلي على المؤسسة الحاكمة في الولايات المتحدة الأميركية. لذا، فالمعلومات الدقيقة عن اليهودية، وخاصة معاملة غير اليهود في إسرائيل، ليست هامة فحسب، بل ضرورية سياسياً أيضاً.

دعوني أبدأ بالتعريف الإسرائيلي الرسمي لتعبير «يهودي» لأوضح الخلاف الكبير بين إسرائيل «كدولة يهودية» ومعظم الدول الأخرى. بموجب هذا التعريف الرسمي، تعود إسرائيل لأشخاص تعرفهم السلطات الإسرائيلية بأنهم «يهود»، ولهم وحدهم بصرف النظر عن مكان وجودهم. ومن جهة أخرى، لا تعود إسرائيل رسمياً، لمواطنيها غير اليهود، الذين يعتبر مركزهم، حتى رسمياً، متدنياً. وهذا يعني عملياً، أن أفراد قبيلة في بيرو، إذا تحولوا إلى اليهودية وأصبحوا يعتبرون «يهوداً» يصبحون مؤهلين لأن يصبحوا مواطنين إسرائيليين وللانتفاع بحوالي ٧٠٪ من أراضي الضفة الغربية (وحوالي ٩٢٪ من أرض إسرائيل)، المخصصة رسمياً لمصلحة اليهود فقط. وجميع غير اليهود (وليس كل الفلسطينيين فقط) ممنوعون من الانتفاع بتلك الأراضي (ويشمل الحظر عرب إسرائيل الذين خدموا في الجيش الإسرائيلي ووصلوا رتباً عالية). مسألة البيروفيين الذين تحولوا إلى اليهودية حصلت فعلاً منذ سنوات عدة، وقد استوطن هؤلاء اليهود الجدد في الضفة الغربية، بالقرب من نابلس، على أرض محرمة رسمياً على غير اليهود. وجميع الحكومات الإسرائيلية تغامر باحتمال نشوء خطر

سياسي كبير، بما في ذلك خطر الحرب، كي تبقي هذه المستوطنات المتكونة من أشخاص يعرفون بأنهم «يهود» (وليس «إسرائيليين» كما تزعم معظم أجهزة الإعلام كاذبة)، خاضعة لسلطات يهودية.

أظن أن يهود الولايات المتحدة أو بريطانيا سيعتبرون دعوة المسيحيين لجعل المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة «دولة مسيحية»، تعود للمواطنين المعرفين رسمياً بأنهم «مسيحيون» معاداة للسامية. والنتيجة التي تترتب على هذا المبدأ هي أن يصبح اليهود الذين يتحولون إلى المسيحية مواطنين كاملين بسبب تحولهم هذا. ونستذكر هنا، أن فوائد التحول معروفة جيداً لدى اليهود من تاريخهم الخاص. فعندما كانت الدول المسيحية والإسلامية تمارس التمييز ضد جميع الأشخاص الذين لا يعتنقون دين الدولة الرسمي ومن ضمنهم اليهود، كان التمييز ضد اليهود يتوقف فور تحولهم إلى الديانة الرسمية. والتمييز الذي تمارسه دولة إسرائيل ضد غير اليهود يتوقف لحظة تحول الشخص المعني إلى اليهودية. وهذا يظهر بكل وضوح أن الحصرية ذاتها، التي يعتبرها يهود الخارج معاداة للسامية، يعتبرها كل اليهود يهودية. ومعارضة اللاسامية والشوفينية اليهودية يعتبرها اليهود وعلى نطاق واسع «كرهاً للذات»، وهو مفهوم أعتبره لغواً.

معنى تعبير «يهودي» ومشتقاته، بما في ذلك «اليهودية»، يصبح في سياق السياسة الإسرائيلية ذا أهمية كمعنى «إسلام» عندما يستعمل رسمياً في إيران، أو «شيوعي» كما كان يستعمل رسمياً في الاتحاد السوفياتي، إلا أن معنى تعبير «يهودي»، كما هو شائع استعماله، ليس واضحاً، لا بالعبرية ولا عندما يترجم إلى لغات أخرى، ولذا وجب تعريفه رسمياً.

وفق القانون الإسرائيلي، يعتبر الشخص «يهودياً» إذا كانت أمه يهودية أو جدته لأمه أو جدة أمه يهودية الديانة، أو إذا تحول الشخص إلى اليهودية بأسلوب ترضى عنه السلطات الإسرائيلية، وبشرط أن لا يكون هذا الشخص قد تحول عن اليهودية إلى أية ديانة أخرى، لأن السلطات

اليهودية لا تعود تعتبره يهودياً في هذه الحالة. ويمثل الشرط الأول من الثلاثة التعريف التلمودي «لمن هو اليهودي» وهو التعريف الذي تطبقه الأرثوذكسية اليهودية. ويعترف التلمود والقانون الديني اللاحق للتلمود بتحول غير اليهودي إلى اليهودية (كما لو اشترى يهودي عبداً غير يهودي وطبق أسلوباً مختلفاً للتحول)، كأسلوب كي يصبح المرء يهودياً، شريطة أن يتم التحول على يد رجال دين مفوضين بذلك، وبالأسلوب الصحيح. وهذا «الأسلوب الصحيح» يستلزم، بالنسبة للإناث، أن يعاينهن ثلاثة من رجال الدين عاريات في «حمام التطهير». وهذا الطقس المعروف لدى جميع قراء الصحافة العبرية، لا تذكره وسائل الإعلام الانجليزية، رغم أهميته بالنسبة لبعضهم. وآمل في أن يكون هذا الكتاب بداية مسار لتلافي هذا النقص.

ولكن، هناك ضرورة ملحة لتعريف «اليهودي» و«غير اليهودي» رسمياً، لأن دولة إسرائيل تميز رسمياً لمصلحة اليهود وضد غير اليهود في مجالات عديدة اعتبر ثلاثة منها الأكثر أهمية: حقوق الإقامة وحقوق العمل وحق المساواة أمام القانون. ويقوم التمييز في الإقامة على أساس ملكية الدولة لنسبة ٩٢٪ من الأراضي تديرها سلطة أرض إسرائيل وفق أنظمة أصدرها «الصندوق القومي اليهودي» المتفرع عن المنظمة الصهيونية العالمية. وأنظمة الصندوق القومي اليهودي تنكر حق الإقامة أو التجارة أو حتى العمل على غير اليهودي، لا لشيء، إلا لأنه غير يهودي. ولا يحظر في الوقت نفسه على اليهود أن يقيموا أو أن يعملوا في أي مكان في إسرائيل. ولو طبق هذا الإجراء التمييزي على اليهود في دولة أخرى، لوصف على الفور ومن دون وجه حق بأنه معاد للسامية، ولأثار احتجاجاً شعبياً جماعياً. أما عندما تطبقه إسرائيل كجزء من إيديولوجيتها اليهودية، فغالباً ما يبذل جهد كبير لتجاهله، أو تبريره إذا ذكر.

إنكار حق العمل يعني أن غير اليهود ممنوعون من العمل في أراض تديرها سلطة أرض إسرائيل وفق أنظمة الصندوق القومي اليهودي. ولا

شك في أن هذه الأنظمة لا تطبق على الدوام، ولكنها موجودة. وتحاول إسرائيل، من وقت لآخر، تنظيم حملات لتطبيقها. مثلًا، عندما تقرر وزارة الزراعة منع «عدوى» السماح للعمال العرب بجني ثمار البيارات المغروسة في أرض تملكها الدولة، حتى ولو كان هؤلاء العمال من عرب إسرائيل. كما تمنع إسرائيل منعاً باتاً تأجير اليهود المقيمين على أرض تملكها الدولة، أرضاً للعرب ولو لمدة قصيرة، وتفرض على الذين يفعلون ذلك غرامات باهظة، إلا أن غير اليهود لا يمنعون من تأجير أرضهم لليهود. وهذا يعني، بالنسبة لي، أني بحكم كوني يهودياً، أملك حق استئجار بيارة من يهودي آخر وجني محصولها، ولكن غير اليهودي، سواء كان مواطناً أو مقيماً في إسرائيل، لا يملك هذا الحق.

ولا يتمتع المواطنون غير اليهود في إسرائيل بحق المساواة أمام القانون. وهذا التمييز واضح في قوانين إسرائيلية عديدة، لا يرد فيها، منعاً للإحراج، تعبير «يهودي» و«غير يهودي» صراحة، كما حصل في قانون العودة، الذي يحق بموجبه للأشخاص المعترف رسمياً بأنهم «يهود» دخول إسرائيل والإقامة فيها، وفور وصولهم تصدر لهم «شهادة هجرة» مع الجنسية لأنهم «عادوا إلى الوطن القومي اليهودي»، مع ما يترتب على ذلك من المزايا المادية التي تختلف باختلاف البلد التي هاجروا منها. فاليهود الذين يهاجرون من دول الاتحاد السوفياتي السابق يعطون «منحة استيعاب» قدرها ٢٠و٠٠٠ دولار لكل عائلة. وجميع اليهود الذين يهاجرون إلى إسرائيل وفق أحكام هذا القانون، يملكون فوراً حق الترشيح والانتخاب للكنيست، حتى ولو لم يستطيعوا نطق كلمة عبرية واحدة.

وتستعيض القوانين الإسرائيلية الأخرى عن ذلك بتعابير أكثر غباءً مثل «الذي يستطيع الهجرة وفق قانون العودة» أو «الذي لا يستطيع الهجرة وفق أحكام قانون العودة». وبالاعتماد على القانون المعني، تمنح المزايا للفئة الأولى وتحجب عن الفئة الثانية. والوسيلة التقليدية لممارسة التمييز

في الحياة اليومية هي بطاقة الهوية، التي يلزم كل فرد بحملها على الدوام. فبطاقة الهوية تذكر قومية الشخص التي يمكن أن تكون «يهودي» أو «عربي» أو «درزي» وما شابه، من دون أي ذكر لكلمة «إسرائيلي». وقد فشلت محاولات إجبار وزارة الداخلية على السماح بوصف الإسرائيليين الراغبين بذلك، بأن يوصفوا بتعبير «إسرائيلي» أو «إسرائيلي يهودي»، وتلقى أولئك الذين حاولوا ذلك رسائل من وزارة الداخلية تفيد بأنه «تقرر عدم الاعتراف بقومية إسرائيلية»، من دون ذكر من أصدر هذا القرار ومتى.

هناك قوانين وأنظمة عديدة في إسرائيل تميز لمصلحة الشخص المعرف بأنه «الذي يستطيع الهجرة وفق أحكام قانون العودة»، وهذا الموضوع يستدعي معالجة مستقلة. ونستطيع هنا أن نعرض مثلًا واحداً قد يبدو تافهاً بالمقارنة مع قيود الإقامة، إلا أنّه هام لأنه يكشف مقاصد المشرع الإسرائيلي: المواطنون الإسرائيليون الذين تركوا البلد لبعض الوقت وبإمكانهم «الهجرة وفق أحكام قانون العودة» يمنحون، عند عودتهم، تسهيلات جمركية كثيرة ومعونة لتدريس أولادهم في المدارس الثانوية ومنحة أو قرضاً بشروط ميسرة لشراء شقة، وبعض المزايا الأخرى، أما الذين لا يعرفون بهذه الصفة، أي غير اليهود في إسرائيل، فلا يحصلون على شيء من هذه المزايا، والقصد الواضح من هذه الإجراءات التمييزية هو إنقاص عدد غير اليهود في إسرائيل، كي تصبح إسرائيل أكثر «يهودية».

عقيدة الأرض المستردة

تذيع إسرائيل بين مواطنيها اليهود عقيدة تمييزية في شأن استرداد الأرض، والهدف الرسمي الرامي إلى تقليص عدد غير اليهود يمكن ملاحظته في هذه العقيدة التي تغرس في أذهان الطلاب في المدارس اليهودية في إسرائيل، الذين يعلمون أنها تنطبق على كل أرض إسرائيل.

وبموجب هذه العقيدة، الأرض المستردة هي تلك التي انتقلت ملكيتها من غير اليهود إلى اليهود، ويمكن أن تكون ملكية خاصة أو ملك الصندوق القومي اليهودي أو الدولة اليهودية. أما الأرض العائدة لغير اليهود فهي، على العكس، أرض «غير مستردة». وهكذا، فإذا اشترى يهودي ارتكب أبشع الجرائم التي يمكن تصورها، قطعة أرض من غير يهودي فاضل، أصبحت الأرض «غير المستردة» أرضاً «مستردة» نتيجة لهذه الصفقة، أما إذا اشترى غير يهودي فاضل أرضاً من أسوأ يهودي، فالأرض التي كانت تقية ومستردة، تصبح «غير مستردة». والنتيجة المنطقية لهذه العقيدة هي «طرد» (ويدعى أيضاً «نقل») كل غير اليهود من الأراضي المستردة، وبذلك تكون يوتوبيا «العقيدة اليهودية» التي تعتمدها دولة إسرائيل أرضاً مستردة بكاملها، لا يملك غير اليهود شيئاً منها ولا يعملون فيها، وقد عبر قادة حركة العمل الصهيوني عن هذه الفكرة البغيضة بوضوح كامل. يخبرنا والتر لاكير (Walter Laquer)، وهو صهيوني متحمس، في كتابه «تاريخ الصهيونية»[(١)] أن أحد هؤلاء الآباء الروحيين، أ. د. غوردون (A. D. Gordon) عارض العنف من حيث المبدأ وبرر الدفاع عن النفس، ولكنه وأصدقاؤه أرادوا أن لا تغرس شجرة أو شتلة في الوطن القومي اليهودي من قبل أحد سوى الرواد اليهود. وهذا يعني أنهم أرادوا أن يرحل كل شخص آخر ويترك الأرض التي «استردها» اليهود، وأضاف حلفاء غوردون من العنف أكثر مما عنى هو، وبقي مبدأ «الاسترداد» والنتائج المترتبة عليه.

وبالطريقة نفسها، فإن الكيبوتزات (Kibbutz) التي اعتبرت على نطاق واسع محاولة لإيجاد يوتوبيا، ما زالت يوتوبيا مغلقة، وحتى لو تألفت من ملحدين، فإنها لا تقبل أعضاءً عرباً، من حيث المبدأ، أمّا الأعضاء من قوميات أخرى، فتطلب منهم اعتناق اليهودية أولًا. فلا عجب إذا اعتبر أبناء الكيبوتزات أكثر فئات المجتمع الإسرائيلي عدوانية.

هذه العقيدة الحصرية التمييزية، وليس كل الدواعي الأمنية التي

تزعمها الدعاية الإسرائيلية، هي التي أملت سياسة الاستيلاء على الأراضي في إسرائيل خلال الخمسينات وفي الأراضي المحتلة بعد ١٩٦٧. وهذه العقيدة هي التي أدت إلى وضع مخططات إسرائيلية رسمية تهدف إلى «تهويد الجليل». وهذا التعبير العجيب يعني تشجيع اليهود على استيطان الجليل بمنحهم مزايا مالية (لا أدري ماذا سيكون رد فعل يهود الولايات المتحدة الأميركية، لو أن أحداً اقترح «تمسيح» أو «تنصير» نيويورك أو بروكلين). وينطوي مفهوم استرداد الأراضي على ما هو أكثر من التهديد الإقليمي؛ ففي كل أنحاء إسرائيل، يسعى الصندوق القومي اليهودي، مدعوماً بقوة من أجهزة دولة إسرائيل (وخاصة الشرطة السرية)، وينفق مبالغ هائلة من الأموال العامة لاسترداد أي أرض يرغب غير اليهود في بيعها، ويمنع أي محاولة يقوم بها يهودي لبيع أرضه لغير اليهود، بدفع سعر أعلى له.

التوسعية الإسرائيلية

الخطر الأساسي الذي تشكله إسرائيل، كدولة يهودية، على شعبها واليهود الآخرين وجيرانها، هو سعيها المحكوم بدوافع إيديولوجية إلى التوسع الإقليمي وسلسلة الحروب التي ترتبت حكماً على هذا السعي. كلما أصبحت إسرائيل أكثر يهودية، كما يقول المرء بالعبرية، وكلما عادت إلى اليهودية (وهو مسار قيد التنفيذ في إسرائيل منذ عام ١٩٦٧ في الأقل)، أصبحت الإعتبارات العقائدية اليهودية، لا العقلانية، هي التي تحكم سياساتها. واستعمال تعبير «عقلاني» هنا، لا يعني تقويماً أخلاقياً لسياسات إسرائيل أو حاجاتها الدفاعية والأمنية المزعومة، وبنسبة أقل للحاجات المزعومة لِ«بقاء إسرائيل». أشير هنا إلى سياسات إسرائيل الأمبريالية المرسومة على أساس مصالحها المزعومة. ومهما كانت سياسات إسرائيل سيئة أخلاقياً أو غبية سياسياً، فإني أعتبر اعتماد سياسات على أساس «الإيديولوجيا اليهودية» أسوأ بكثير. فالدفوع

الإيديولوجية عن سياسات إسرائيل تستند عادة إلى معتقدات دينية يهودية أو إلى «الحقوق التاريخية لليهود» بالنسبة لليهود العلمانيين الذين يستوحون هذه المعتقدات ويحافظون على الطابع الإيديولوجي للإيمان الديني.

تحولي المبكر من الإعجاب بدافيد بن غوريون إلى معارض عنيد له، بدأ بموضوع كهذا على وجه التحديد: عام ١٩٥٦، استوعبت بشغف مبررات بن غوريون السياسية والعسكرية لبدء حرب السويس حتى أعلن في الكنيست، رغم إلحاده وتفاخره بتجاهل تعاليم الديانة اليهودية، ثالث أيام الحرب، أن السبب الحقيقي هو «إعادة مملكة داود وسليمان إلى حدودها التوراتية»، وعند هذه النقطة من خطابه، وقف كل أعضاء الكنيست، تقريباً، وأخذوا ينشدون النشيد الوطني الإسرائيلي. ولم يستنكر أي سياسي صهيوني حسب معلوماتي فكرة بن غوريون القائلة بوجوب وضع السياسات الإسرائيلية (ضمن حدود الاعتبارات العملية) على أساس إعادة الحدود التوراتية لتصبح حدوداً للدولة اليهودية. وبالفعل، فالتحليل الدقيق للاستراتيجيات الإسرائيلية الكبرى والمبادئ الحقيقية للسياسة الخارجية، كما يعبر عنها بالعبرية، يوضح أن «الإيديولوجيا اليهودية» هي التي تحدد السياسات الإسرائيلية الفعلية، أكثر من أي عامل آخر، وتجاهل اليهودية في حقيقتها والإيديولوجيا اليهودية، يجعل هذه السياسات تبدو عصيّة على الفهم لدى المراقبين الأجانب الذين لا يعرفون، في العادة، شيئاً عن اليهودية، سوى التبريرات الفجة.

دعوني أقدم إيضاحاً أحدث عن الاختلافات الأساسية القائمة بين التخطيط الإمبريالي الإسرائيلي المتسم غالباً بالطابع العلماني ومبادئ الإيديولوجيا اليهودية. فالأخيرة تقول أن الأرض التي حكمها أي حاكم يهودي في العصور القديمة، أو وعد الله اليهود بها، سواء كان ذلك في التوراة أو - وهذا أكثر أهمية من الناحية السياسية - وفق التفسير الديني

للتوراة والتلمود، يجب أن تعود إلى إسرائيل ما دامت دولة يهودية. ولا شك في أن العديد من «حمائم» اليهود يفضلون تأجيل الغزو حتى تصبح إسرائيل أقوى مما هي عليه الآن، أو أن يحصل «غزو سلمي»، أي أن يقتنع الحكام العرب والشعوب العربية بالتنازل عن الأرض مقابل الفوائد التي توفرها لهم الدولة اليهودية.

وقيد التداول الآن، نسخ عديدة متناقضة للحدود التوراتية لأرض إسرائيل التي تعتبرها المراجع الدينية أرض الدولة اليهودية. وأبعد هذه النسخ مدى تشمل المناطق التالية: جنوباً، كل سيناء وجزءاً كبيراً من شمال مصر حتى ضواحي القاهرة. شرقاً، كل الأرض وقطعة كبيرة من العربية السعودية وكل الكويت وجزءاً من العراق جنوب نهر الفرات. شمالاً، كل لبنان وسوريا وجزءاً كبيراً من تركيا (حتى بحيرة وان «Van»). وغرباً، قبرص. وقد نشر في إسرائيل كم هائل من الأبحاث والمناقشات حول هذه الحدود، والعديد من الأطالس والكتب والمقالات، ونماذج أكثر شعبية من الدعاية، وغالباً بدعم مالي من الدولة. والمؤكد هو أن المرحوم كاهانا وأتباعه، وبعض الهيئات النافذة مثل غوش إيمونيم (Gush Emunim)، لا ترغب فقط بغزو هذه المناطق، بل وتعتبر ذلك أمراً مقدساً، لا بد أن ينجح ما دام الله يؤيده. وفي الحقيقة أن شخصيات يهودية هامة تعتبر رفض إسرائيل القيام بهذه الحرب المقدسة، وأسوأ من ذلك، إعادة سيناء إلى مصر، خطيئة قومية عاقبها الله عليها. فقد صرح الحاخام دوف ليور (Dov Lior)، أحد حاخامات غوش إيمونيم النافذ وحاخام المستوطنات اليهودية في كريات أربع والخليل، تكراراً بأن فشل إسرائيل في احتلال لبنان ١٩٨٢-١٩٨٥، عقوبة إلهية أوقعت على إسرائيل بحق لأنها تخلت عن جزء من أرض إسرائيل، وبالتحديد إعادة سيناء إلى مصر.

رغم أني اخترت المثل الأكثر تطرفاً للحدود التوراتية لأرض إسرائيل التي يجب أن تعود للدولة اليهودية، فهذه الحدود مقبولة تماماً في

الدوائر الدينية - القومية، ورغم وجود نسخ أخرى أقل تطرفاً من الحدود التوراتية تدعى أحياناً «الحدود التاريخية»، يجب التوكيد على أن في إسرائيل ولدى مؤيديها في الجاليات اليهودية في الخارج، لا يرفض تصور الحدود التوراتية أو التاريخية، كحدود للأرض التي هي من حق اليهود، من حيث المبدأ، إلا أقلية ضئيلة تعارض مفهوم الدولة اليهودية. وفيما عدا ذلك، تستند الاعتراضات على توسل الحرب للوصول إلى هذه الحدود، إلى مبررات عملية (براغماتية). ويستطيع المرء أن يزعم أن إسرائيل اليوم ضعيفة ولا تقوى على احتلال كل الأرض التي هي من حق اليهود، أو أن خسارة الأرواح اليهودية (وليس الأرواح العربية) التي ستترتب على غزو بهذا الحجم، أهم من احتلال الأرض ذاتها، ولكن المرء لا يستطيع، حسب المعايير اليهودية، أن يقول أن «أرض إسرائيل» أياً كانت حدودها، ليست من حق اليهود. وفي أيار ١٩٩٣، اقترح آرييل شارون (Ariel Sharon)، رسمياً في مؤتمر الليكود أن تتبنى إسرائيل الحدود التوراتية كسياسة رسمية، وأثيرت اعتراضات قليلة على هذا الاقتراح، سواء داخل الليكود أو خارجه، وكلها على أساس الاعتبارات العملية. لكن أحداً لم يسأل شارون عن الحدود التوراتية التي يحض حكومة إسرائيل على الوصول إليها. دعونا نتذكر أنه وجد بين من يدعون أنفسهم لينينيين من لا يشك أبداً في أن التاريخ يتبع المبادئ التي وضعها ماركس. وليس هذا الاعتقاد وحده، مهما كان دوغمائياً، بل رفض الشك فيه وطرحه للمناقشة هو الذي يخلق الحالة الذهنية الشمولية. والمجتمع الإسرائيلي اليهودي، ويهود الشتات الذين يتحكمون بحياة اليهود والمنتظمين في منظمات يهودية بحتة، يمكن وصفهم بأن لديهم نزعة شمولية قوية في شخصياتهم.

وفي أي حال، فقد اعتمدت استراتيجية إسرائيلية كبرى، لا تستند إلى مفاهيم الإيديولوجيا اليهودية، بل إلى الاعتبارات الإمبريالية والاستراتيجية البحتة، منذ قيام الدولة. وقد قدم الجنرال (احتياط)،

شلومو غازيت (Shlomo Gazit)، وهو مدير سابق للاستخبارات العسكرية، وصفاً رسمياً واضحاً للمبادئ التي تحكم هذه الاستراتيجية(٢)، قال: «مهمة إسرائيل الأساسية لم تتغير أبداً، (منذ انهيار الاتحاد السوفياتي) وما زالت ذات أهمية بالغة. الموقع الجغرافي لإسرائيل في مركز الشرق الأوسط العربي - المسلم، بجعل قدر إسرائيل أن تكون حارساً مخلصاً للاستقرار في جميع البلاد المحيطة بها. ودورها هو حماية الأنظمة القائمة، ومنع أو وقف التوجهات الجذرية ومنع انتشار الأصولية الدينية المتطرفة. ولهذه الغاية، ستمنع إسرائيل التغيرات الحاصلة خارج حدودها إذا اعتبرتها لا تطاق لدرجة الشعور بأنها مضطرة لاستعمال قوتها العسكرية لمنعها أو استئصالها».

بكلمات أخرى، ترمي إسرائيل إلى فرض الهيمنة على دول الشرق الأوسط الأخرى. ولا حاجة بنا للقول، في رأي غازيت، أن لإسرائيل مصلحة خيرية في المحافظة على استقرار الأنظمة العربية. وتقدم إسرائيل في رأي غازيت، بحمايتها الأنظمة القائمة في الشرق الأوسط خدمة هامة للدول الصناعية المتقدمة التي تحرص كلها على ضمان الاستقرار في الشرق الأوسط. ويرى أنه لولا إسرائيل لانهارت هذه الأنظمة، وقد بقيت بسبب التهديد الإسرائيلي فقط. وإذا كان هذا الرأي مرائياً على ما يبدو، وجب على المرء أن يتذكر قول لاروشفوكو (La Rochefoucault) : «الرياء هو الضريبة التي تدفعها الرذيلة للقضية»، و«استرداد الأرض» محاولة لتفادي دفع هذه الضريبة.

ولا حاجة لي للقول أني أعارض، جملة وتفصيلاً، سياسات إسرائيل غير الإيديولوجية كما شرحها غازيت بشكل صحيح وواضح. وأعترف في الوقت نفسه، بأخطار سياسات بن غوريون وشاريت المتأثرة بالإيديولوجيا اليهودية، وبأنها أسوأ كثيراً من السياسات الإمبريالية، مهما كانت إجرامية. نتائج سياسات الأنظمة الإيديولوجية الأخرى، تشير إلى الاتجاه نفسه. وجود عنصر هام في سياسة إسرائيل، مستند إلى

الإيديولوجيا اليهودية، يجعل تحليلها سياسيا ضرورة ملحة. وهذه الإيديولوجيا، بدورها، تقوم على أساس المواقف اليهودية التاريخية من غير اليهود، وهذا أحد الموضوعات الرئيسية في هذا الكتاب. هذه المواقف لا بد وأن تؤثر على اليهود، بوعي أو من دون وعي. ومهمتنا هنا هي أن نبحث اليهودية التاريخية كما هي في الحقيقة.

تأثير الإيديولوجيا اليهودية على الكثير من اليهود سيكون أقوى طالما بقيت محجوبة عن البحث، ونأمل في أن يجعل هذا البحث الناس يتخذون موقفاً من الشوفينية اليهودية والاحتقار الذي يبديه العديد من اليهود لغير اليهود (وسنوثقه فيما بعد)، مشابهاً للموقف تجاه اللاسامية وجميع أشكال كره الغير والعنصرية والشوفينية الأخرى. ويحق لنا أن نفترض أن الشرح الوافي لا للاسامية فحسب، بل ولجذورها التاريخية، يمكن أن يكون أساساً للنضال ضدها. وبالمثل، أفترض أن الشرح الوافي للشوفينية اليهودية والتطرف الديني، يمكن أن يشكل أساساً للنضال ضد هذه الظاهرة. وهذا صحيح، وبصورة خاصة، اليوم، بعكس الوضع الذي كان سائداً قبل خمسين أو ستين عاماً، لأن النفوذ السياسي للشوفينية اليهودية والتطرف الديني اليوم، أعظم بكثير من نفوذ اللاسامية. وهناك اعتبار هام آخر، هو أني أعتقد واثقاً أن بالإمكان محاربة الشوفينية اليهودية واللاسامية معاً.

يوتوبيا مغلقة؟

ما لم تعتمد هذه المواقف على نطاق واسع، فسيبقى خطر السياسات الإسرائيلية القائمة على أساس الإيديولوجيا اليهودية أعظم من خطر السياسات القائمة على الاعتبارات الاستراتيجية وحدها. والفرق بين هذين النوعين أوضحه هيوغ تريفور - روبر (Hugh Trevor - Roper) في مقاله: «السير توماس مور واليوتوبيا»[٣]، إذ وصفها بالأفلاطونية والميكيافيللية: «ميكيافيللي اعتذر، في الأقل، عن الأساليب التي ظن

أنها ضرورية للسياسة، فقد أسف لضرورة القوة والخديعة ولم يسمها بأسماء أخرى. ولكن أفلاطون وتوماس مور أجازاها مشترطين أن تستعمل لدعم جمهوريتهما الفاضلة».

وبالطريقة نفسها فالمؤمنون فعلاً بأن اليوتوبيا التي تدعى «دولة يهودية» يجب أن تناضل لتحقيق الحدود التوراتية، هم أشد خطراً من دعاة الاستراتيجيات الكبرى التي يدعو إليها غازيت لأن سياساتهم تبرر على أساس الدين، أو الأسوأ، وهو استخدام مبادئ دينية معلمنة تحتفظ بشرعيتها المطلقة. وفيما يجد غازيت حاجة للقول أن السيطرة الإسرائيلية تقيد الأنظمة العربية، لم يزعم بن غوريون أن إعادة تأسيس مملكة داود وسليمان ستفيد أحداً سوى الدولة اليهودية.

استخدام المفاهيم الأفلاطونية لتحليل السياسات الإسرائيلية القائمة على أساس الإيديولوجيا اليهودية، يجب أن لا يبدو غريباً، فقد لاحظها عدد من الباحثين، وأهمهم موسى هاداس (Moses Hadas)، الذي زعم أن الأسس الكلاسيكية اليهودية، كما وضعها حكماء التلمود، متأثرة بالأفلاطونية، وخاصة صورة أسبرطة كما وصفها أفلاطون(٤). ويرى هاداس أن السمة الأساسية للنظام السياسي الأفلاطوني، الذي اعتمدته اليهودية منذ عهد المكابيين (١٤٢-٦٣ ق.م.) هي أن «كل مظهر من مظاهر السلوك البشري يخضع لموافقات دينية يحتكر الحاكم حق إصدارها». ولا يوجد تعريف أفضل لليهودية الكلاسيكية والأساليب التي احتكرها بها الحاخامات، من هذا التعريف الأفلاطوني. وخاصة لأن هاداس يزعم أن اليهودية تبنت ما لخص به أفلاطون نفسه، أهداف برنامجه، في هذه الفقرة المشهورة جداً: «الأمر الأساسي أنه لا يجوز لأي فرد، رجلاً كان أو امرأة، أن يبقى من دون مسؤول يرأسه، ويجب أن لا يعتاد أحد اتخاذ أي خطوة، جادة أو هزلية، على مسؤوليته الخاصة. ويجب أن يعيش في السلم والحرب وعيناه تتطلعان إلى رئيسه الأعلى، وبكلمة. . . عليه أن يمرن عقله على أن لا يفكر بالتصرف كفرد،

أو يعرف كيف يفعل ذلك». (القانون ٩٤٢ أب).

إذا استبدلنا كلمة «مسؤول» بكلمة «حاخام» توفرت لدينا صورة دقيقة عن اليهودية الكلاسيكية العميقة الأثر على المجتمع اليهودي الإسرائيلي والتي تملي السياسات الإسرائيلية، إلى حد بعيد.

الفقرة التي اقتبسناها فيما سبق، اختارها كارل بوبر (Karl Popper) ليصف جوهر المجتمع المغلق في كتابه «المجتمع المفتوح وأعداؤه». واليهودية التاريخية وخليفتاها، اليهودية الأرثوذكسية والصهيونية، أعداء ألداء للمجتمع المفتوح، كما تطبقه إسرائيل. فالدولة اليهودية، سواء قامت على إيديولوجيتها اليهودية الحالية، أو أصبحت أكثر يهودية في سماتها مما هي عليه الآن بالاستناد إلى اليهودية الأرثوذكسية، لا يمكنها أن تضم مجتمعاً مفتوحاً. هناك خياران يوجهان المجتمع اليهودي الإسرائيلي، إذ يمكنه أن يصبح معزلاً (غيتو) عسكرياً مغلقاً تماماً، أي أسبرطه يهودية يدعمها العبيد العرب الذين احتفظوا بوجودهم بفضل نفوذها على المؤسسة السياسية في الولايات المتحدة أو تهديدها باستعمال القوة النووية، أو أن يصبح مجتمعاً مفتوحاً. والخيار الثاني يتوقف على التدقيق الأمين في الماضي اليهودي، والاعتراف بأن الشوفينية والحصرية (exclusivism) اليهودية موجودة، والتدقيق الأمين في المواقف اليهودية تجاه غير اليهود.

الإشارات والمراجع

الفصل الأول: يوتوبيا مغلقة؟

١ - والتر لاكير، «تاريخ الصهيونية»، شوكين للنشر، تل أبيب، ١٩٧٤، بالعبرية.
٢ - أنظر يديعوت أحرونوت، ٢٧ نيسان (أبريل) ١٩٩٢.
٣ - في هيوغ تريفور - روبر، «مقالات الإحياء»، مطبعة فونتانا، لندن، ١٩٨٥.
٤ - أنظر موسى هاداس، «الثقافة الهللينية - الدمج والفصل»، مطبعة جامعة كولومبيا، نيويورك، ١٩٥٩، وخاصة الفصل السابع والفصل العشرين.

الفصل الثاني

التحامل والمراوغة

الصعوبة الأولى في الكتابة عن هذا الموضوع هي أن تعبير «يهودي» استعمل خلال المئة وخمسين عاماً الماضية للدلالة على معنيين مختلفين. ولفهم هذا، دعونا نتصور أننا في عام ١٧٨٠، فعندها كان المعنى المقبول دولياً لتعبير «يهودي» يتوافق أساساً مع المعنى الذي فهم اليهود أنفسهم أنه يعبر عن هويتهم. كان هذا المعنى دينياً ولكن العقلية الدينية كانت تحكم تفاصيل السلوك اليهودي اليومي في كل مناحي الحياة، سواء كان ذلك بين اليهود أنفسهم أو في ما يتعلق بعلاقتهم مع غير اليهود. ولذلك، كان صحيحاً تماماً، أن اليهودي لا يستطيع أن يشرب حتى كوب ماء في بيت غير يهودي. وقواعد السلوك الأساسية تجاه غير اليهود كانت مطبقة من اليمن حتى نيويورك. ومهما كان التعبير الذي يمكن أن يوصف به اليهود عام ١٧٨٠ - ولا أود هنا، الدخول في نزاع ميتافيزيقي حول التعابير مثل «أمة» و«شعب»[(١)] - فالواضح هو أن كل الجاليات اليهودية كانت، في ذلك الوقت، منعزلة عن المجتمعات غير اليهودية، التي كانت تعيش في وسطها.

وفي أي حال، تغير هذا عبر مسارين متوازيين؛ بدءاً من هولندا وانجلترا واستمراراً في فرنسا الثورية والدول التي اتبعت نموذج الثورة الفرنسية، ثم في الملكيات الحديثة خلال القرن التاسع عشر: فقد حصل اليهود على قدر كبير من الحريات الفردية (والمساواة القانونية الكاملة في

بعض الحالات)، مما دمر السلطة القانونية للجاليات اليهودية على أعضائها. وينبغي أن نلاحظ أن هذه التطورات كانت متزامنة، والأخيرة هي الأكثر أهمية، رغم أنها غير معروفة على نطاق واسع، كالأولى.

منذ أواخر أيام الأمبراطورية الرومانية مارست الجاليات اليهودية سلطة قانونية واسعة على أعضائها، ليس السلطة الناشئة عن التعبئة الطوعية للضغط الاجتماعي (مثل رفض أي تعامل مع يهودي محروم وحتى دفن جثته)، بل وسلطة القمع العارية مثل الجلد والحبس والنفي؛ كل هذا كان يمكن إيقاعه قانونياً على أي فرد يهودي من قبل محكمة حاخامية، عقاباً لكل أنواع الجرائم. وفي بلاد عديدة - إسبانيا وبولندا مثلان بارزان - كان يمكن إيقاع عقوبة الإعدام، وأحياناً باستعمال أساليب متناهية القسوة مثل الجلد حتى الموت. ولم يكن كل هذا مسموحاً به فحسب، بل وكانت السلطات الحكومية في الدول المسيحية والإسلامية، التي كان لها مصلحة مالية أحياناً، بالإضافة إلى مصلحتها في حفظ النظام، تشجع عليه. مثلاً، في المحفوظات الإسبانية التي يعود تاريخها إلى القرنين الثالث والرابع عشر، تسجيلات لأوامر مفصلة أصدرها ملوك قشتالة وأراغون الكاثوليك المتعصبون، لموظفيهم الذين لا يقلون عنهم تعصباً، للتعاون مع الحاخامين لالزام اليهود بالمحافظة على شعائر السبت. لماذا؟! لأنه كلما غرمت محكمة دينية يهودياً انتهك حرمة السبت، كان الحاخامون يدفعون تسعة أعشار الغرامة للملك - عملية فعالة ومربحة. ويستطيع المرء أن يستخلص أمراً مماثلاً من الرد (responsa) الذي كتبه قبل عام ١٨٣٢ بقليل، الحاخام الشهير موشي سوفير (Moshe Sofer) من بريسبرغ (تدعى الآن براتيسلافا Bratislava)، في المملكة الهنغارية المنضمة إلى الأمبراطورية النمساوية، والموجه إلى فيينا حيث كان اليهود قد منحوا بعض الحقوق الفردية الهامة(٢). فهو يندب حقيقة أن اليهود، مذ فقدت الهيئة الدينية سلطة معاقبة المخالفين، تراخوا في المسائل الدينية، ويضيف: «هنا في بريسبرغ، عندما علمت بأن

صاحب متجر يهودي فتح محله أيام الأعياد الصغرى، بادرت إلى إرسال شرطي لحبسه».

كانت هذه أهم الوقائع الاجتماعية للوجود اليهودي قبل ظهور الدولة الحديثة: مراعاة قواعد الشريعة اليهودية وغرسها في الأذهان عن طريق التعليم، كانت ملزمة لليهود تحت طائلة الإرغام، ولا يستطيع المرء أن يهرب منها إلا بالتحول إلى دين الأغلبية، الأمر الذي مثل في تلك الظروف انسلاخاً اجتماعياً كلياً، ولهذا السبب يصعب تطبيقه عملياً إلا أثناء الأزمات الدينية(٣).

وفي أي حال، ما أن برزت الدولة الحديثة إلى الوجود، حتى فقدت الجالية اليهودية سلطة معاقبة أو تخويف اليهودي الفرد، وهكذا انهارت روابط مجتمع محكم الإغلاق، أحد أكثر المجتمعات شمولية في التاريخ البشري. فعل التحرير جاء، في الغالب، من الخارج، ورغم وجود بعض اليهود الذين ساعدوا عليه من الداخل، فقد كانوا في البداية قلائل جداً. وكان لهذا النمط من التحرير نتائج خطيرة للمستقبل. كما في حالة ألمانيا (حسب تحليل أ. جي. بي تايلور (A. J. P. Jaylor) البارع) حيث كان من السهل ربط سبب رد الفعل مع المواطنية، لأن الحقيقة الواقعية هي أن الحقوق الفردية والمساواة أمام القانون، جاءت بها جيوش الثورة الفرنسية ونابليون إلى ألمانيا، مما مكن من وصم الحرية بأنها غير ألمانية، وهكذا أصبح من السهل على اليهود، وخاصة في إسرائيل، أن يشنوا هجمات فعالة جداً ضد كل المفاهيم والمثل الإنسانية وسيادة القانون (كي لا نقول الديمقراطية)، باعتبارها غير يهودية أو معادية لليهودية - كما هي بالفعل، بالمعنى التاريخي - وكمبادئ يمكن استعمالها لمصلحة اليهود، مثلاً، عندما يستشهد العرب بالمبادئ نفسها. هذا قاد أيضاً - وثانية في ألمانيا ودول أوروبا الوسطى الأخرى - إلى تأريخ يهودي عاطفي، خادع، فعالٍ في رومانسيته، حذفت منه كل الوقائع المزعجة.

ولن يجد المرء في كل كتابات حنه أرندت (Hannah Arendt) عن

اليهود والشمولية أو كليهما[٤]، على غزارتها، أي تلميح ولو كان بسيطاً، عن حالة المجتمع اليهودي في ألمانيا في القرن الثامن عشر: حرق الكتب، اضطهاد الكتاب، النزاع حول القوة السحرية للتعاويذ، حظر التعليم غير اليهودي حتى ولو كان ابتدائياً مثل تعليم الألمانية على أصولها، أو حتى الألمانية المكتوبة بحروف لاتينية[٥]. كما لا يجد المرء في كتب تاريخ اليهود باللغة الانجليزية، حتى الحقائق الأولية عن المواقف الصوفية اليهودية (الدارجة حالياً بعض الأوساط) تجاه غير اليهود. وكيف كانت تعتبرهم، حرفياً، من سلالة الشيطان، وأن الأفراد القلائل الذين ليسوا كذلك بينهم (أي الذين يتحولون إلى اليهودية)، هم في الحقيقة أرواح يهودية فقدت عندما اغتصب الشيطان السيدة المقدسة (شيخينا أو ماترونايت Shekhinah, Matronit)، أحد العناصر الأنثوية في رأس الإله الذكر الأصغر، حسب ما تقول القبالية، (Cabbala)، في مقامها السماوي. فالمراجع العظام مثل غريشوم شوليم (Greshom Sholem)، أخضعوا آراءهم لنظام من الأكاذيب حول الأمور الحساسة، وأكثر هذه المراجع شعبية، هو أشدها خداعاً وتضليلاً.

لكن النتائج الاجتماعية لمسار التحرر هذا، تمثلت في أن اليهودي، ولأول مرة منذ حوالي ٢٠٠م[٦]، أصبح حراً يفعل ما يشاء ضمن حدود القانون المدني للدولة، من دون أن يتحول إلى ديانة أخرى ثمناً لهذا التحرر. حرية التعليم وقراءة الكتب باللغات الحديثة وتأليف وقراءة الكتب العبرية غير المجازة من الحاخامات (وكان هذا شرطاً لأي كتاب بالعبرية أو اليديش)، حرية أكل الطعام غير المعد حسب طقوس الشريعة اليهودية (non-kosher)، حرية تجاهل المحرمات السخيفة العديدة المتعلقة بالحياة الجنسية، وحتى حرية التفكير - لأن الأفكار الممنوعة من الآثام الخطيرة - كل ذلك منحته أنظمة الحكم المطلق في أوروبا، رغم قساوتها ولاساميتها، لليهود في أوروبا (وفي بلاد أخرى فيما بعد). وقد كان نيقولا الأول في روسيا لاسامياً متطرفاً وأصدر قوانين عدة ضد

اليهود في دولته، ولكنه دعم أيضاً سيادة القانون في روسيا - ليس الشرطة السرية فقط، بل والشرطة النظامية والدرك - مما أدى إلى صعوبة إصدار الحاخامين أمراً بإعدام يهودي، فيما كان ذلك سهلاً في بولندا قبل ١٧٩٥م. مثلًا، حتى في ثلاثينات القرن التاسع عشر، أمر الحاخام الأقدس (تزاديك Tzadik) في مدينة صغيرة في أوكرانيا، بإعدام منشق بالقائه في ماء حمامات المدينة وهو يغلي، والمصادر اليهودية المعاصرة تلاحظ بدهشة وفزع أن الرشوة لم تعد مجدية وأن الجناة الحقيقيين والحاخام الأقدس نفسه، يعاقبون بشدة. ونظام مترنيخ الرجعي في النمسا قبل ١٨٤٨، رغم موقفه غير الودي تجاه اليهود، لم يسمح بتسميم الناس بمن فيهم الحاخامات اليهود الليبراليون. وأول ما فعله قادة الجالية اليهودية عام ١٨٤٨، ممارسين حريتهم المستردة حديثاً، عندما ضعفت سلطة النظام في مدينة ليمبرغ (Lemberg، الآن لفوف Lvov)، هو تسميم حاخام المدينة الليبرالي الذي استدعته المجموعة اليهودية الأرثوذكسية القليلة العدد من ألمانيا. وبالمناسبة، كانت إحدى أخطر البدع، أنه دعا إلى وأقام احتفالات البلوغ (Bar Mitzrah)، التي كانت قد استحدثت قبل ذلك بقليل.

التحرير من الخارج

خلال المئة وخمسين سنة الماضية، اكتسب تعبير «يهودي» معنى مزدوجاً، مما حير بعض الناس من ذوي النوايا الحسنة، وخاصة في البلاد التي تتكلم الإنجليزية، الذين ظنوا أن اليهود الذين يقابلونهم في مناسبات اجتماعية يمثلون اليهود «بصورة عامة». لقد تحرر اليهود في بلدان أوروبا الشرقية، كما في العالم العربي، من طغيان ديانتهم نفسها ومن جالياتهم بفعل قوى خارجية، في وقت متأخر جداً وفي ظروف غير ملائمة لإحداث تغير اجتماعي حقيقي. وفي معظم الحالات، وخاصة في إسرائيل تمت المحافظة على التصور القديم للمجتمع والإيديولوجيا نفسها - لاسيما ما تعلق منها بغير اليهود - والتصور الزائف نفسه للتاريخ. وهذا

ينطبق على بعض اليهود الذين انضموا إلى الحركات «التقدمية» و«اليسارية». والتدقيق في سجلات الأحزاب الراديكالية والاشتراكية والشيوعية، يعطي أمثلة عديدة عن عنصريين وشوفينيين يهود متنكرين انضموا إلى هذه الأحزاب لمجرد خدمة المصالح اليهودية، وهم في إسرائيل يؤيدون التمييز ضد غير اليهود. ويكفي أن يدقق المرء فيما كتبه العديد من الاشتراكيين اليهود عن الكيبوتزات من دون أن يكلفوا أنفسهم عناء ذكر أنها مؤسسات عنصرية يستثنى منها المواطنون الإسرائيليون من غير اليهود، تماماً، ليرى أن الظاهرة التي نشير إليها ليست ضيقة النطاق، في أي حال(٧).

وإذا تجنبنا التصنيفات القائمة على الجهل أو النفاق نجد أن كلمة «يهود» ومشتقاتها تصف مجموعتين مختلفتين، بل ومتناقضتين، ونتيجة للسياسات الإسرائيلية الحالية أخذ الفرق بينهما يختفي وبسرعة. من جهة، هناك المعنى الشمولي التقليدي الذي بحثناه فيما سبق، ومن جهة أخرى، هناك يهود بالولادة أسبغوا سمة ذاتية على مجموعة من الأفكار التي سماها كارل بوبر «المجتمع المفتوح». (وهناك البعض، وخاصة في الولايات المتحدة الأميركية، ممن يحاولون التظاهر بقبول هذه الأفكار، من دون أن يؤمنوا بها في أعماقهم).

ومهم أن نلاحظ أن كل السمات اليهودية - وأعني بها تلك الصفات التي ينسبها المثقفون المزعومون الأفظاظ في الغرب إلى اليهود - هي سمات عنصرية لم تكن معروفة خلال الجزء الأكبر من التاريخ اليهودي، والتي ظهرت عندما أخذت الجاليات الشمولية تفقد سلطتها. خذ مثلاً، روح النكتة المشهورة عن اليهود. فالنكتة ليست نادرة في الأدب العبري قبل القرن التاسع عشر فحسب (ولم توجد إلا عندما تحررت الطبقات اليهودية العليا من النير الحاخامي، كما في إيطاليا بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر وإسبانيا المسلمة)، بل أن السخرية أو النكتة ممنوعة بتاتاً في الديانة، إلا إذا كانت سخرية من الديانات الأخرى. وهجاء الحاخامين أو

زعامة الجالية، لم تعرفه اليهودية ولو في نطاق ضيق، كما كان الحال في المسيحية اللاتينية. ولا توجد مسرحيات هزلية يهودية كما لم توجد مسارح هزلية في اسبرطة، ولسبب مماثل[٨]. أو خذ مثلاً حب التعليم، باستثناء التعليم الديني البحت الذي كان هو أيضاً فاسداً ومتدنياً، كان يهود أوروبا (وإلى مدى أقل يهود الدول العربية) قبل ١٧٨٠م، يكنون احتقاراً شديداً وكرهاً لكل أنواع التعليم (عدا التلمود والتصوف اليهودي). وأجزاء عديدة من العهد القديم والشعر العبري غير الديني ومعظم كتب الفلسفة اليهودية لم تكن تقرأ، حتى أن أسماءها كانت ملعونة. ودراسة كل اللغات كانت ممنوعة بتاتاً، وكذلك دراسة الرياضيات والعلوم. والجغرافيا[٩] والتاريخ - وحتى التاريخ اليهودي - لم يكونا معروفين أبداً. والحس النقدي، الذي يفترض أنه من سمات اليهود، كان غائباً كلياً، ولم يكن هناك محظور مرهوب مثل النقد مهما كان معتدلاً وبريئاً.

كان عالماً غارقاً في الخرافات المرذولة والجهل والتعصب، وفي مقدمة أول كتاب جغرافيا عبري (نشر عام ١٨٠٣م في روسيا) يشكون من أن عدداً من الحاخامين ينكرون وجود القارة الأميركية، ويعتبرون ذلك مستحيلاً. لا شيء مشترك بين هذا العالم وما يعتبره الغرب في الغالب من خصائص اليهود، سوى الاسم الخاطئ.

ورغم ذلك، فالعديد من يهود اليوم يحنون إلى ذلك العالم، فردوسهم المفقود، المجتمع المغلق المريح، الذي لم يتحرروا بل طردوا منه. وقطاع كبير من الحركة الصهيونية أراد على الدوام إعادته، وكانت لهذا القطاع الكلمة الأولى. والعديد من دوافع السياسة الإسرائيلية التي تذهل وتربك الغربيين المساكين من «أصدقاء إسرائيل»، تبدو واضحة إذا نظر إليها كرد فعل، رد فعل بالمعنى السياسي الذي فهم من هذه الكلمة خلال المئتي سنة الأخيرة، عودة إكراهية ومبتدعة من نواح عدة، ووهمية إلى المجتمع المغلق في الماضي اليهودي.

تاريخياً، يمكن إثبات أن المجتمع المغلق لا يهتم بوصف نفسه، ولا شك في أن السبب هو أن الوصف يتضمن شكلاً من التحليل النقدي، مما قد يشجع الأفكار النقدية المحظورة. وكلما أصبح المجتمع أكثر انفتاحاً، زاد اهتمامه بالتأمل، الوصفي أولاً ثم النقدي، في حاضره وماضيه. فما الذي يحصل عندما تحاول زمرة مثقفة سحب مجتمع أصبح منفتحاً إلى حد ما وإعادته إلى الوضع الشمولي المغلق؟ تصبح كل وسائل التقدم السابق - الفلسفة والعلوم والتاريخ والسوسيولوجيا بشكل خاص - أشد الوسائل فعالية في «خيانة المثقفين». فهم ينحرفون لخدمة وسائل الخداع وعبر هذا المسار تنحط مداركهم.

اليهودية الكلاسيكية[١٠] قليلة الاهتمام بوصف أو إيضاح نفسها لأعضاء جالياتها سواء كانوا دارسين (للتلمود) أم لا[١١]. ومما يلفت النظر أن كتابة التاريخ اليهودي، حتى بالأسلوب التحليلي الجاف، توقفت كليا منذ عصر جوزيفوس فلاڤيوس (Josephus Flavius)، في نهاية القرن الأول، وحتى عصر النهضة، عندما انتعشت لفترة قصيرة في إيطاليا، وبعض البلدان الأخرى الخاضعة لنفوذ إيطالي قوي[١٢]. السمة البارزة هي أن الحاخامات خافوا من التاريخ اليهودي أكثر مما خافوا من التاريخ العام. وكتاب التاريخ الحديث المنشور بالعبرية (في القرن السادس عشر)، كان عنوانه: «تاريخ ملوك فرنسا والملوك العثمانيين». وتلاه بعض الكتب التي تعالج الاضطهاد الذي تعرض له اليهود فقط. وأول كتاب عن التاريخ اليهودي العادي[١٣] (يعالج العصور القديمة)، منع على الفور وحظرته السلطات الحاخامية العليا ولم يظهر ثانية قبل القرن التاسع عشر. وقضت السلطات الحاخامية في شرق أوروبا بأن كل الدراسات غير التلمودية ممنوعة، حتى ولو لم يوجد فيها شيء يستحق اللعن، لأنها تشكل مضيعة للوقت الذي يجب أن يكرس لدراسة التلمود أو ربح النقود التي يجب أن تستعمل لدعم الدراسات التلمودية. وأبقي على فجوة

واحدة فقط، هي الفترة التي يقضيها اليهودي الورع مرغماً في المرحاض. ففي ذلك المكان النجس، تحظر الدراسات المقدسة، ولذلك يسمح بقراءة التاريخ هناك، شريطة أن يكون مكتوباً بالعبرية وعلمانياً تماماً، أي أن يكون مكرساً بكامله لموضوعات غير يهودية (ويستطيع المرء أن يتخيل أولئك اليهود القلائل الذين - أغراهم الشيطان بلا شك - فأبدوا في ذلك الوقت، اهتماماً بتاريخ ملوك فرنسا وكيف كانوا يشكون لجيرانهم على الدوام من الانتفاخ الذي يعانون منه). ونتيجة لذلك، كانت غالبية كبرى من اليهود، قبل مئتي عام، تجهل كلياً وجود أميركا والتاريخ اليهودي ووضع اليهود الراهن، وكانوا قانعين بالبقاء كما هم.

تاريخ شمولي

كانت هناك، في كل حال، ناحية واحدة لم يتح لهم أن يبقوا قانعين بها؛ مسألة الهجمات المسيحية على النصوص التلمودية والأدب التلمودي المعادي للمسيحية خاصة، وكل الشعوب الأخرى عامة. ومن المهم أن نلاحظ أن هذا التحدي ظهر في العلاقات المسيحية - اليهودية، متأخراً نسبياً، أي منذ القرن الثالث عشر (قبل ذلك، كانت السلطات المسيحية تهاجم اليهود بالاستناد إلى التوراة أو الحجج العامة، وبدا أنها تجهل تماماً محتويات التلمود). والظاهر أن الحملة المسيحية على التلمود بدأت بعد تحول عدد من اليهود المطلعين على التلمود إلى المسيحية، والمتأثرين بالفلسفة المسيحية بسمتها الأرسطية البارزة (أي الكونية)(١٤).

وينبغي الإقرار منذ البدء بأن التلمود والأدب التلمودي - عدا عن الخط العام المعادي للشعوب الأخرى والذي سنبحثه بتفصيل أوفى في الفصل الخامس - يحتوي على تعابير عدائية ومفاهيم موجهة ضد المسيحيين تحديداً. مثلاً، بالإضافة إلى سلسلة المزاعم الجنسية البذيئة، يقول التلمود أن عقابهم في الجحيم سيكون باغراقهم في غائط يغلي؛ وهذا تعبير لا يقصد به تحبيب المسيحيين الأتقياء بالتلمود في أي حال.

ويستطيع المرء أن يذكر المفهوم الذي يؤمر اليهود بموجبه بحرق اي نسخة من العهد الجديد تصل إلى أيديهم، وعلناً إذا أمكن (وهذا ما زال سارياً ويمارس فعلاً حتى اليوم، ففي ٢٣ آذار (مارس) ١٩٨٠، حرقت مئات النسخ من العهد الجديد علناً وبصورة احتفالية في القدس برعاية ياد لياخيم (Yad Le'akhim)، وهي منظمة دينية يهودية تدعمها وزارة الأديان اليهودية).

ومنذ القرن الثالث عشر، شنت في أوروبا هجمات مركزة ضد يهودية التلمود. ونحن هنا لا نشير إلى الافتراءات الحمقاء التي كان ينشدها الرهبان الجهلة في المدن الصغرى، مثل تهمة الدموية، ولكن إلى المنازعات الجدية والمناظرات أمام أفضل الجامعات الأوروبية في ذلك الوقت، والتي اتسم تنظيمها، بصورة إجمالية، بالعدالة الممكن تحقيقها في ظروف القرون الوسطى(١٥).

فماذا كان الرد اليهودي - بل الحاخامي؟ الأبسط، وهو سلاح الرشوة القديم والإثارة. ففي معظم البلدان الأوروبية، وخلال معظم الأوقات، كان يمكن ترتيب الأمور بالرشوة. ولا يصدق هذا المثل على مكان أكثر من روما في ظل بابوات عصر النهضة. والطبعة الأولى من المجموعة الكاملة للشرائع التلمودية وكتاب بن ميمون (Maimonides)، ميشنا توراه (Mishneh Torah) - الطافح لا بأسوأ النعوت لكل الأمم فحسب، بل وبالهجمات الصريحة على المسيحية والمسيح - الذي كان الكاتب يضيف بعد اسمه: «ليختفي اسم الشرير» - نشرت من دون أن يحذف منها شيء في روما عام ١٤٨٠م، أثناء ولاية سكستوس الرابع (Sixtus IV)، الذي كان نشيطاً جداً في المجال السياسي، وبحاجة ملحة للمال على الدوام. وبعد سنوات قلائل، نشرت في روما أيضاً، الطبعة الوحيدة من كتاب أبوليوس (Apuleius) «الحمار الذهبي» المتضمن هجوماً شرساً على المسيحية لم يحذف، وقد كان ألكسندر بورجيا السادس، ليبرالياً جداً في هذا المجال.

وحتى في تلك الفترة، كما في قبلها، وجدت على الدوام بلاد تكتسحها موجة اضطهاد ضد التلمود، ولكن هجمات أقوى وأوسع انتشاراً رافقت الإصلاح والإصلاح المضاد الذي دعا إلى مستوى أعلى من الأمانة العلمية وإلماماً أفضل بالعبرية بين العلماء المسيحيين. ومنذ القرن السادس عشر، خضع كل الأدب التلمودي، والتلمود نفسه، للرقابة المسيحية في بلاد عديدة، ودام هذا في روسيا حتى عام ١٩١٧م. وكان بعض الرقباء، في هولندا مثلاً، متهاوناً والبعض الآخر متشدداً، وقد حذفت الفقرات العدوانية أو عدلت.

كل الدراسات الحديثة عن اليهودية، وخاصة تلك التي يقوم بها اليهود، انطلقت من ذلك النزاع وما زالت حتى اليوم تتسم بعلامات بارزة من أصولها: الخداع والتبرير والجدل العدواني واللامبالاة بتحري الحقيقة أو حتى العمل بنشاط ضد تحريها. ومعظم الدراسات المدعوة يهودية عن اليهودية، منذ ذلك الوقت وحتى اليوم، هي دفاع ضد عدو خارجي أكثر منها حواراً ذاتياً.

ومهم أن نلاحظ أن هذا كان، مبدئياً، طابع التأريخ في كل المجتمعات المعروفة (باستثناء اليونان القديمة، حيث تعرض المؤرخون المتحررون الأوائل لهجمات من المفكرين اللاحقين بسبب نقص وطنيتهم). وهذا يصح أيضاً عن المؤرخين الكاثوليك البروتستانت الأوائل الذين هاجموا بعضهم بعضاً. وبالمثل، كانت التواريخ القومية الأوروبية الأولى مشحونة بالعواطف القومية الفجة واحتقار كل الأمم المجاورة. ولكن، عاجلًا أم آجلاً، جاء وقت محاولة فهم الخصم الديني أو القومي، وفي الوقت نفسه، نقد بعض الظواهر الهامة في تاريخ الجماعة نفسها، وقد جاء هذان التطوران معاً. عندما يصبح التأريخ - كما أحسن بيتر غيل (Pieter Geyl) القول - «حواراً بلا نهاية» بدلاً من مواصلة الحرب بوسائل تأريخية، عندها فقط، يصبح التأريخ الإنساني الذي يجهد في تحري الدقة والإنصاف، ممكناً. وعندئذ يتحول إلى إحدى

أقوى الأدوات الإنسانية، والثقافية الذاتية.

ولهذا السبب، تعيد الأنظمة الشمولية الحديثة كتابة التاريخ أو تعاقب المؤرخين[١٦]. وعندما يحاول مجتمع بكامله العودة إلى الشمولية، فإنه يكتب تاريخاً شمولياً، لا بسبب الإكراه من فوق، بل بسبب الضغط من تحت، وهذا أقوى تأثيراً بكثير. وهذا هو ما حدث للتاريخ اليهودي، ويشكل العقبة الأولى التي علينا تجاوزها.

آليات الدفاع

ما هي تفاصيل الآليات (عدا الرشوة) التي استخدمتها الجاليات اليهودية، بالتعاون مع قوى خارجية، لدفع الهجوم على التلمود والأدب الديني؟ يمكننا تمييز أساليب عدة، لها كلها نتائج سياسية هامة انعكست في السياسات الإسرائيلية الحالية. ورغم أنه يصعب بيان المثيل البيغني (Beginistic) أو الصهيوني - العمالي في كل حالة، فأنا واثق بأن القراء الملمين إلى حد ما بتفاصيل سياسات الشرق الأوسط، يمكنهم ملاحظة الشبه.

الآلية الأولى التي سأبحثها هي المعارضة الخفية مقرونة بالتوافق الظاهري. وكما أوضحنا فيما سبق، فقد اقتضى الأمر تعديل أو حذف الفقرات التلمودية المتضمنة هجوماً على المسيحية أو غير اليهود[١٧]؛ فالضغط كان قوياً جداً. وهذا ما تم بالفعل، فقد حذف عدد قليل من الفقرات المؤذية من كل الطبعات المنشورة في أوروبا بعد القرن السادس عشر. أما في فقرات أخرى، فقد استبدلت تعابير «أممي Goy» و«غير يهودي eino yehudi» و«غريب nokhzi» - التي تظهر في كل المخطوطات والمطبوعات السابقة في أوروبا، وكل الطبعات المنشورة في البلاد الإسلامية - بتعابير أخرى مثل «وثني» و«همجي» وحتى «كنعاني» و«سامري»، وهي تعابير يمكن تبريرها، إلا أن القارئ اليهودي سيعتبرها تلطيفاً للتعابير القديمة.

ومع تصاعد الهجوم، أصبح الدفاع أكثر تعقيداً مما أدى، أحياناً، إلى نتائج مأساوية دائمة الأثر. فخلال فترات معينة في روسيا القيصرية كانت الرقابة أشد وأدركت حقيقة التعابير الملطفة المذكورة فيما سبق، فمنعتها هي أيضاً، وعندها استبدلت السلطات الحاخامية هذه التعابير بأخرى مثل «عربي» و«مسلم» (بالعبرية «اسماعيلي» التي تعني كليهما)، وأحياناً «مصري»، ظناً منها أن السلطات القيصرية لن تعترض على هذا النوع من الإساءات. وعمدت في الوقت نفسه، إلى تعميم قوائم مخطوطة بالمحذوفات التلمودية، تتضمن شرحاً لكل التعابير الجديدة وإشارات إلى المحذوفات. وأحياناً، كان يطبع قبل الصفحة الأولى من كل مجلد، إنكار يعلن بكل وقار، وأحياناً يشفع بالقسم، أن التعابير العدائية في ذلك المجلد يقصد بها الوثنيون في الماضي، أو الكنعانيون الذين اندثروا منذ زمن بعيد، و«ليس الشعوب التي نعيش على أرضها». وبعد الغزو البريطاني للهند، إحتال بعض الحاخامين بالادعاء أن أي تعبير شائن أو معيب يستعملونه، يقصد به الهنود فقط. وأضيف سكان أستراليا الأصليون إلى قائمة أكباش الفداء، أحياناً.

لا حاجة للقول أن كل هذا كان كذباً مقصوداً من البداية إلى النهاية، فإثر إقامة دولة إسرائيل وشعور الحاخامات بالأمان أعيدت كل الفقرات والتعابير العدائية، من دون تردد، في كل الطبعات الجديدة (ويسبب التكاليف الباهظة لكل طبعة جديدة، ما زال جزء كبير من الأدب التلمودي والتلمود نفسه يعاد طبع نسخه القديمة). ولهذا السبب، أعيد نشر كل المحذوفات التلمودية في إسرائيل بطبعات رخيصة، تحت عنوان «هيسرونوت شاس Hesronot Shas». وهكذا يستطيع المرء اليوم أن يقرأ بحرية - وما زال الأطفال اليهود يعلّمون بالفعل - فقرات[١٨] كتلك التي تأمر كل يهودي بأن يتلو دعاءً بالرحمة إذا مر بالقرب من مقبرة يهودية، وأن يلعن أمهات الموتى[١٩]، إذا كانت لغير اليهود. وقد حذفت اللعنة في الطبعات القديمة، أو استبدل تعبير «أممين Gentiles» بتعبير ملطف.

ولكن الطبعة الإسرائيلية الجديدة، طبعة الحاخام أدين ستينسالز «Adin Steinsalz» (الكاملة مع الشروح العبرية ومعاني كلمات الأجزاء الآرامية من النص، كي لا يساور طلاب المدارس أي شك حول ما يفترض فيهم قوله)، استعادت تعابير «أممي» و«غريب» التي لا غموض فيها.

وبفعل الضغط الخارجي، حذف الحاخامون أو عدلوا، مخادعين، بعض الفقرات، وليس الطقوس والممارسات الفعلية التي تتم بموجبها. وينبغي أن يتذكر اليهود أنفسهم وغيرهم، حقيقة أن مجتمعنا الشمولي استخدم، منذ قرون عديدة، عادات بربرية ولا إنسانية لتسميم عقول أعضائه، وما زال يفعل ذلك (هذه التقاليد اللاإنسانية لا يمكن تبريرها باعتبارها مجرد رد فعل على اللاسامية واضطهاد اليهود، لأنها تصرفات بربرية موجهة ضد كل كائن بشري آخر، من دون مبرر). فاليهودي المتدين الذي يزور أستراليا لأول مرة، ويصدف أن يمر بقرب مقبرة للسكان الأصليين، عليه - كجزء من عبادته لله - أن يلعن أمهات الموتى المدفونين هناك. ومن دون أن نواجه هذه الواقعة الاجتماعية سنصبح أطرافاً ومساهمين في عملية تسميم عقول الأجيال الحالية والآتية، مع كل ما يترتب على ذلك.

ويستمر الخداع

علماء اليهودية الحديثون، لم يواصلوا عملية الخداع فحسب، بل زادوا الأساليب الحاخامية وقاحة وافتراءً. وسأصرف النظر هنا عن التواريخ العديدة للاسامية، لأني أعتبرها غير جديرة بالبحث، لأعطي ثلاثة أمثلة محددة، ومثلاً عاماً عن الخداع الدراسي الحديث.

عام ١٩٦٢م، نشر في القدس جزء من القانون الميموني المذكور سابقاً وهو المسمى «كتاب المعرفة» الذي يحوي معظم القواعد الأساسية للإيمان اليهودي والعبادات، بالعبرية ويقابلها ترجمة إنجليزية[٢٠]. فأعيد النص العبري، إلى أصله، والأمر بإبادة اليهود الكفرة يظهر كاملاً: «الواجب يقضي بأن يبيدهم المرء بيديه». أما في الترجمة الإنجليزية، فقد

جرى تلطيفه: «الواجب يقضي باتخاذ تدابير نشطة لتدميرهم». ولكن النص العبري يواصل الحديث لتحديد أمثلة مختارة من «الكفار» الذين يجب أن يبادوا مثل: يسوع الناصري وتلاميذه، وتزادوك (Tzadoq)، وبايتوس (Baitos) وتلاميذهما[٢١]، و«ليختفي اسم الشرير». ولا تظهر كلمة واحدة من هذه الكلمات في النص الإنجليزي على الصفحة (٧٨أ) المقابلة للنص العبري. والأكثر أهمية، هو أنه رغم انتشار هذا الكتاب على نطاق واسع في البلدان التي تتكلم الإنجليزية، فلم يحتج أحد على هذا الخداع الساطع.

المثل الثاني يأتي من الولايات المتحدة الأميركية، ومن ترجمة إنجليزية لكتاب بن ميمون. فعدا عن جمعه للشريعة التلمودية، كان ابن ميمون أيضاً فيلسوفاً، وكتابه «دليل المحتار» يعتبر بحق، أعظم كتاب في الفلسفة الدينية اليهودية، وما زال يقرأ على نطاق واسع حتى اليوم. لسوء الحظ، فبالإضافة لموقفه من غير اليهود عامة والمسيحيين خاصة، كان ابن ميمون عنصرياً معادياً للسود. ففي فصل أساسي في الدليل (الكتاب الثالث، الفصل ٥١)، يبحث في الشرائح البشرية المختلفة التي يمكنها تحقيق القيم الدينية العليا، والعبادة الحقيقية لله، ويبين غير القادرين حتى على الاقتراب من هذا: «بعض الأتراك (مثل العنصر المنغولي)، والبدو إلى الشمال، والسود والبدو إلى الجنوب، والذين يشابهونهم في أقاليمنا. وطبيعتهم تشبه طبيعة الحيوانات البكماء، هم في رأيي لم يبلغوا مستوى الكائنات البشرية، والمستوى السائد بينهم هو دون مستوى الإنسان وفوق مستوى القرد، لأن صورتهم تشبه صورة الإنسان أكثر مما تشبه صورة القرد».

والآن، ماذا يفعل المرء حيال هذه الفقرة في أكثر الكتب اليهودية أهمية وضرورة؟ أيواجه الحقيقة ونتائجها؟ لاسمح الله. أيعترف (كما فعل العديد من العلماء المسيحيين في ظروف مشابهة) بأن مرجعاً يهودياً هاماً جداً يؤمن بآراء عنصرية متطرفة ضد السود، ويقوم باعترافه هذا بمحاولة

للتثقيف الذاتي في الإنسانية الحقيقية؟ لا عاشت هذه الفكرة. أستطيع تخيل العلماء اليهود في الولايات المتحدة الأميركية يتشاورون مع بعضهم قائلين: ما العمل؟ فالكتاب لا بد من ترجمته بسبب قلة معرفة اليهود الأميركان بالعبرية. وسواء كان ذلك بنتيجة تشاور أو بمبادرة فردية، وجد الحل السعيد: ففي الترجمة الأميركية الشعبية للدليل، بقلم شخص يدعى فريدلاندر (Friedlander)، والتي نشرت لأول مرة عام ١٩٢٥م وأعيد طبعها مرات عدة، في طبعات ورقية الغلاف، ترجمت الكلمة العبرية «كوشيم Kushim» التي تعني «سود» بكلمة «كوشيتيين Kushites» التي لا تعني شيئاً لأولئك الذين لا يعرفون العبرية، والذين لا يعطيهم الحاخام الكريم أي إيضاح لها[٢٢]. وخلال كل هذه السنوات، لم تقل كلمة واحدة لكشف هذا الخداع أو الحالة الاجتماعية التي تبرر مواصلته. وقد حصل هذا طوال الحملة المثيرة التي قام بها مارتن لوثر كنغ (Martin Luther King)، الذي أيده عدد من الحاخامات، وبعض الشخصيات اليهودية الأخرى، الذين لا بد أن يعرف بعضهم الموقف العنصري المعادي للسود الذي يشكل جزءاً من تراثهم اليهودي[٢٣].

وهذا يقود المرء إلى الافتراض بالتأكيد أن عدداً قليلاً من الحاخامين المؤيدين لمارتن لوثر كنغ كانوا، إما عنصريين معادين للسود دعموه لأسباب تكتيكية بهدف خدمة المصالح اليهودية (الرغبة في كسب دعم السود ليهود أميركا وسياسة إسرائيل)، أو هراطقة متمرسين إلى درجة انفصام الشخصية والقدرة على التحول السريع من الاستمتاع الدفين بالعنصرية المسعورة، إلى الارتباط المزعوم بالنضال ضد العنصرية، مرة وأخرى.

المثل الثالث، يأتي من عمل هدفه الثقافي أقل خطورة بكثير - إلا أنه الأكثر شعبية - «مباهج اليديش» (The Joys of Yiddish) بقلم ليو روستين (Leo Rosten)؛ هذا العمل الشيق نشر لأول مرة عام ١٩٦٨م في الولايات المتحدة الأميركية وأعيد طبعه مرات عديدة منها طبعات عدة

حتى عن دار «بنغوين» بغلاف ورقي؛ وهو سرد لكلمات اليديش الشائعة الاستعمال بين اليهود وغير اليهود في الدول التي تتكلم الإنجليزية، مع تعريف مفصل وعدد قليل أو كثير من الاستشهادات التي توضح استعمالها ودراسة (صحيحة في الغالب) تحدد اللغة التي اشتقت منها ومعناها في تلك اللغة. تعبير شايغيتس (Shaygets) الذي يعني الولد أو الفتى غير اليهودي، هو الاستثناء، لأن الكاتب يقول، لسبب خفي، أن أصلها عبري، ولا يعطي معنى الأصل العبري، ولكنه مقابل تعبير شيكسا (Shiksa)؛ مؤنث شايغيتس، يذكر الأصل العبري وهو شيكيتز (Sheqetz)، ويترجمه شيكيوز ويذكر أن معناه «عيب». وهذا كذب صراح يعرفه كل ناطق بالعبرية. وقاموس مجدو العبري - الإنجليزي الحديث، يورد التعريف الصحيح لكلمة شيكيتز وهو: «حيوان نجس»، «مخلوق كريه»، «بغيض»، «بائس»، «شاب عنيد»، «شاب غير يهودي».

مثلي الأخير، الأكثر عمومية أفظع من الأمثلة الأخرى. وهو يتعلق بموقف الحركة الحسيدية (Hassidism) - التي تشكل استمراراً (وتخلفاً) للصوفية اليهودية - تجاه غير اليهود. الحسيدية حركة ما زالت موجودة وتضم آلاف الأتباع المتطرفين في إخلاصهم للحاخامين الأتقياء الذين يملك بعضهم نفوذاً سياسياً كبيراً في إسرائيل، بين قادة معظم الأحزاب وحتى في صفوف الرتب العليا في الجيش.

ما هي إذن نظرة هذه الحركة إلى غير اليهود؟ كمثال، دعونا نأخذ «هاتانيا» (Hatanya)، كتاب حركة حاباد (Habbad)، إحدى أهم وأشهر فروع الحسيدية. ففي رأي هذا الكتاب، كل غير اليهود مخلوقات شيطانية تماماً «لا يوجد فيها شيء طيب على الإطلاق»، وحتى الجنين غير اليهودي يختلف نوعياً عن الجنين اليهودي. ومجرد وجود غير اليهود ليس أمراً هاماً، لأن جميع المخلوقات الأخرى وجدت من أجل اليهود.

نشر من هذا الكتاب طبعات لا حصر لها، وآراؤه يشرحها وبالتفصيل الفوهرر (Fuehrer) الحالي لحاباد، الحاخام اللوبافيتشي

(Lubavitcher)، م.م. شنورسون (M. M. Schneurssohn)، الذي يقود هذه الآراء على نطاق واسع في إسرائيل، حتى في المدارس والجيش. وحسب شهادة شولاميت آلوني (Shulamit Aloni) عضو الكنيست، تزايدت هذه الدعاية الحابادية قبيل الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٧٨م، لاقناع الأطباء والممرضات العسكريين بحجب المعالجة الطبية عن الجرحى غير اليهود. وهذه النصيحة شبه النازية لم تذكر العرب أو الفلسطينيين صراحة، بل فقط «غير اليهود goyim». وزالمان شازار، الرئيس الإسرائيلي السابق، كان نصيراً متحمساً لحاباد، كما أيدها صراحة وعلناً عدد من كبار السياسيين الإسرائيليين والأميركان وعلى رأسهم بيغن. هذا رغم سوء سمعة الحاخام اللوبافيتشي، فهو ينتقد على نطاق واسع في إسرائيل لأنه يرفض المجيء إلى الأرض المقدسة ولو في زيارة ويحرص على البقاء في نيويورك لأسباب غامضة، وعنصريته المعادية للسود تجعله سيئ السمعة حتىٰ في نيويورك.

الحقيقة هي أن تأييد عدد من كبار الشخصيات الرسمية، رغم هذه الصعوبات البراغمانية، يعود إلى التضليل والخداع الذي مارسه معظم الذين كتبوا أو يكتبون عن الحسيدية وفرعها الحابادي. وهذا يصح، خصوصا، علىٰ جميع الذين كتبوا أو يكتبون عنها باللغة الإنجليزية، لأنهم يطمسون البينات الساطعة في النصوص الحسيدية القديمة وما يترتب عليها من إشكالات سياسية، والتي تصفع القارئ العادي للصحافة الإسرائيلية العبرية التي تنشر على صفحاتها أشد التصريحات دموية ضد كل العرب والتي يدلي بها الحاخام اللوبافيتشي وغيره من القادة الحسيديين.

المخادع الرئيسي، في هذه الحالة، والبرهان الدامغ على تأثير الخداع هو مارتن بوبر (Martin Buber)، فكتاباته العديدة في مدح الحركة الحسيدية (بما فيها حاباد) لا تلمح أبداً إلى العقائد الحسيدية في خصوص غير اليهود. وجريمة الخداع أعظم لأن مدائح بوبر للحسيدية، نشرت لأول مرة باللغة الألمانية خلال فترة تنامي الشعور بالقومية الألمانية

وصعود النازية إلى السلطة. وفيما كان بوبر يعارض النازية ظاهراً، فقد كان يمجد حركة تؤمن وتبشر بمبادئ عن غير اليهود، لا تختلف كثيراً عن آراء النازية عن اليهود. طبعاً، يستطيع المرء أن يقول أن اليهود الحسيديين كانوا، قبل خمسين أو سبعين عاماً ضحايا، والكذب الأبيض مسموح به إذا كان لمصلحة الضحايا، إلا أن نتائج هذا الخداع لا تقدر. ترجمت كتابات بوبر إلى العبرية وشكلت عنصراً أساسياً في الثقافة العبرية في إسرائيل، مما دعم نفوذ القادة الحسيديين المتعطشين إلى الدم، وشكّل عاملاً هاماً في ظهور الشوفينية الإسرائيلية وكراهية كل الناس غير اليهود. فإذا فكرنا بالبشر العديدين الذين ماتوا لأن ممرضات الجيش الإسرائيلي، متأثرات بالدعاية الحسيدية، رفضن علاجهم، رأينا أن عبء دمائهم يقع على رأس مارتن بوبر.

ويجب أن أذكر هنا أن بوبر في مداهنته للحسيدية، تجاوز كثيراً الكتاب اليهود الآخرين، وخصوصا أولئك الذين كتبوا بالعبرية (أو اليديش سابقاً) وحتى باللغات الأوروبية ولكن لقراء يهود فقط. وقد أثيرت ذات مرة انتقادات حادة مبررة للحركة الحسيدية، لأسباب تتعلق بالمصالح الداخلية اليهودية: تكتمهم (المتطرف أكثر مما هو مألوف لدى جميع اليهود الأرثوذكس)، إفراطهم في تعاطي الكحول، تعلقهم الشديد بحاخاماتهم الوراثيين الذين يبتزون أموالهم، الخرافات العديدة التي لا يقول بها غيرهم؛ كلها وغيرها من السلبيات، كانت موضع نقد وتعليق. ولكن رومانسية بوبر العاطفية الخادعة كسبت الجولة، لاسيما في الولايات المتحدة وإسرائيل، لأنها توافقت مع الإعجاب الشمولي بأي شيء «يهودي خالص»، ولأن بعض الدوائر اليسارية اليهودية التي كان لبوبر تأثير قوي فيها، تبنت هذا الموقف.

ولم يكن بوبر وحيداً في موقفه هذا، رغم أنه كان، في رأيي، الأسوأ، لما نشره من شرور وللأثر الذي خلّفه. فقد كان هناك عالم اجتماع وتوراتي قوي النفوذ، هو يحزقيال كوفمان (Yehezkiel

(Kaufman)، الذي دعا إلى الإبادة العنصرية على غرار نموذج سفر يشوع. والفيلسوف المثالي هوغو شمويل بيرغمان (Hugo Shmuel Bergman)، الذي دعا منذ عام ١٩١٤/١٥ إلى طرد جميع الفلسطينيين إلى العراق، وكثيرون آخرون. كانوا كلهم في الظاهر «حمائم» ولكنهم استخدموا صيغاً يمكن استغلالها بتطرف شديد ضد العرب، وكلهم كانوا من ذوي الميول الصوفية الدينية التي تشجع على نشر الأكاذيب، وكلهم بدوا أشخاصاً لطفاء، حتى عندما بشّروا بالطرد والعنصرية وإبادة الجنس، متظاهرين بعدم القدرة على إيذاء ذبابة؛ ولهذا السبب بالذات كان تأثير خداعهم أشد.

ضد تمجيد اللاإنسانية التي ينادي بها لا الحاخامون فحسب، بل والذين يفترض أنهم أعظم علماء اليهودية، وبالتأكيد أقواهم نفوذاً، يجب علينا أن نناضل، وضد هؤلاء الخلفاء الحديثيين للأنبياء المزيفين والكهان الكذبة؛ علينا أن نردد - حتى في مواجهة الرأي شبه الإجماعي في إسرائيل ولدى أغلبية اليهود في بلاد مثل الولايات المتحدة الأميركية - تحذير لوكريتيوس (Lucretius) ضد إخضاع حكم المرء لخطب القادة الدينيين «الذين يدفعون الناس إلى هذا المستوى العالي من الشر». والدين ليس دائماً (كما يقول ماركس) أفيون الشعوب، ولكنه يمكن أن يكون كذلك، وعندما يستخدم بهذا المعنى للمراوغة ويعرض على غير حقيقته، فإن العلماء والمثقفون الذين يقومون بهذه المهمة، يشبهون مهربي الأفيون.

ويمكننا أن نستخلص من هذا التحليل نتيجة عامة أخرى عن أفعل وأرهب وسائل الإرغام على فعل الشر والخداع والمكر، مع الحفاظ على الأيدي بريئة من العنف، وإفساد شعب بكامله ودفعه في اتجاه القمع والقتل (لأنه لم يعد هناك شك في أن دوافع أشد تصرفات القمع بشاعة في الضفة الغربية هي التطرف الديني اليهودي). ويبدو أن معظم الناس يفترضون أن الشمولية الأسوأ هي التي تؤدي إلى الإكراه المادي ويشيرون

إلى ١٩٨٤ أورويل (Orwell) كنموذج لهذا النظام. ولكن ما يبدو لي هو أن هذا الرأي الشائع خاطئ إلى حد كبير، والأصح بالنسبة للطبيعة البشرية هو حدس إسحق عظيموف (Isaac Asimov)، في خياله العلمي بأن أسوأ أنواع القمع هو الذاتي دوماً. فخلافاً لعلماء ستالين المروضين، فإن الحاخامين - وأكثر منهم العلماء الذين هاجمناهم ومعهم كل الرعاع من أشباه المثقفين الصامتين كالكتاب والصحفيين والشخصيات العامة الذين يكذبون ويخادعون أكثر منهم - لا يواجهون خطر الموت أو معسكرات الاعتقال، بل الضغط الاجتماعي فقط. هم يكذبون بدافع وطني لأنهم يعتقدون أن من واجبهم أن يكذبوا لتحقيق المصالح اليهودية. هم كذبة وطنيون، والوطنية نفسها هي التي تجعلهم يصمتون عندما يجبهون بقمع الفلسطينيين والتمييز ضدهم.

نواجه في حالتنا هذه ولاءً فئوياً آخر يأتي من خارج الجماعة ولكنه أشد إزعاجاً في بعض الأحيان. عديد من غير اليهود (منهم رجال دين مسيحيون وعلمانيون متدينون وبعض الماركسيين من مختلف الجماعات الماركسية)، يبدون رأياً عجيباً مفاده أن إحدى وسائل التكفير عن اضطهاد اليهود هي الإحجام عن الحديث عن الآثام التي يرتكبها اليهود والإسهام في «الكذب الأبيض» عنهم. والاتهام الفظ باللاسامية (أو كره الذات بالنسبة لليهود)، يوجه ضد كل شخص يحتج على التمييز ضد الفلسطينيين أو يشير إلى أي حقيقة من حقائق الديانة اليهودية أو ماضي اليهود الذي يتعارض مع «الصيغة المعتمدة»، وبعداء أشد من «أصدقاء اليهود» من غير اليهود. ووجود ونفوذ هذه المجموعة في كل الدول الغربية، وخاصة الولايات المتحدة الأميركية (وغيرها من البلاد التي تتكلم الإنجليزية)، أتاح للحاخامين والعلماء اليهود أن ينشروا أكاذيبهم لا بدون معارضة فحسب، بل مع التأييد القوي.

واقع الأمر هو أن عدداً من أعداء الستالينية المزعومين، استبدلوه بصنم آخر يعبدونه وجنحوا نحو تأييد العنصرية والتطرف اليهوديين

بحماس أشد ونفاق أدهى مما كنا نلمسه لدى الستالينيين المخلصين في الماضي. ورغم أن ظاهرة التأييد الستاليني الأعمى للشر، بالنسبة لليهود، قد تعززت منذ عام ١٩٤٥ عندما كشف عن إبادة يهود أوروبا، فمن الخطأ افتراض أنها بدأت عندئذ، بل على العكس، فتاريخها يعود إلى ما قبل ذلك بكثير، لاسيما في الأوساط الاشتراكية - الديمقراطية. أحد أصدقاء ماركس، موسى هيس (Moses Hess)، المشهور على نطاق واسع والمقدر كأحد أوائل الاشتراكيين في ألمانيا، فضح نفسه فيما بعد كعنصري يهودي متطرف، لا تختلف آراؤه عن «العرق اليهودي النقي» والمنشورة عام ١٨٥٨ عن الآراء الجوفاء عن «العرق الآري النقي». ولكن الإشتراكيين الألمان الذين ناضلوا ضد العنصرية الألمانية ظللوا ساكتين عن العنصرية اليهودية.

عام ١٩٤٤، إبّان النضال الفعلي ضد هتلر، اعتمد حزب العمال البريطاني خطة لطرد الفلسطينيين من فلسطين، تشبه الخطط الأولى التي أعدها هتلر (قبل ١٩٤١) للتعامل مع اليهود، وقد اعتمدت هذه الخطة نتيجة ضغط من الأعضاء اليهود في قيادة الحزب أبدى العديد منهم تأييداً لكل سياسة إسرائيلية، أشد بكثير من تأييد أي محافظ لسياسات أيان سميث. ولكن المحرمات الستالينية كانت أقوى تأثيراً على اليسار البريطاني منها على اليمين. إذ لم يجر أي نقاش جدي حتى عندما دعم حزب العمال حكومة بيغن.

الوضع السائد في الولايات المتحدة مماثل، والليبراليون الأميركان هم الأسوأ.

هذا ليس مجال التحري عن النتائج السياسية لهذا الوضع، ولكن علينا أن نواجه الحقيقة، وهي أن أعدى أعدائنا، في نضالنا ضد العنصرية والتطرف في الديانة اليهودية، ليسوا العنصريين اليهود (ومستغلي العنصرية)، بل غير اليهود الذين يدعون - كذباً في رأيي - «تقدميين» في مجالات أخرى.

الإشارات والمراجع

١ - اليهود أنفسهم وعلى نطاق عالمي وصفوا أنفسهم بأنهم جماعة دينية، وعلى وجه التحديد، أمة دينية «شعبنا هو شعب بسبب التوراة فقط» (القانون الديني). هذا قول أحد أعلى المراجع، الحاخام سعديه هاجاعون الذي عاش في القرن العاشر، وقد أصبح مثلاً.

٢ - من قبل الأمبراطور جوزيف الثاني عام ١٧٨٢.

٣ - كل هذا يحذف عادة في التأريخ اليهودي الدارج، لترسيخ أسطورة محافظة اليهود على دينهم بأعجوبة، أو بفعل قوة سحرية عجيبة.

٤ - مثلاً، في «أصول التوتاليتارية»، جزء كبير مكرس لليهود.

٥ - قبل نهاية القرن الثامن عشر، سمح الحاخامون لليهود الألمان بأن يكتبوا الإلمانية بحروف عبرية فقط، تحت طائلة الحرمان أو الجلد... إلخ.

٦ - عندما أخضع جميع اليهود في الإمبراطورية الرومانية، بموجب صفقة بين السلطات والقادة اليهود (سلالة نسيئيم) للسلطة المالية والعقابية لهؤلاء القادة والمحاكم الدينية، والتي لعبت دوراً في المحافظة على النظام بين اليهود.

٧ - أكتب هذا رغم أني لست اشتراكياً ولكني سأحترم وأكرّم الناس الذين لا أوافق على مبادئهم إذا بذلوا جهداً مخلصاً ليكونوا صادقين في معتقداتهم. وعلى العكس، لا شيء ادعى إلى الاحتقار من استغلال المبادئ العالمية، سواء كانت صحيحة أو كاذبة، لغايات أنانية فردية أو جماعية، وهذا هو الأسوأ.

٨ - في الواقع، العديد من مظاهر اليهودية المتشددة مستمد من أسبرطة، عبر تأثير أفلاطون المؤذي سياسياً. حول هذا الموضوع، أنظر ملاحظات موسى هاداس الممتازة في «الثقافة الهللينية - الدمج والفصل»، مطبعة جامعة كولومبيا، نيويورك، ١٩٥٩.

٩ - بما في ذلك جغرافية فلسطين وحتى موقعها المحدد. وهذا ظاهر في تخطيط كل الكنس (جمع كنيس) في بلدان مثل بولندا وروسيا، حيث يفترض أن يصلي اليهود وهم متوجهون إلى القدس. ويهود أوروبا الذين كانت فكرتهم عن مكان القدس غامضة، افترضوا دوماً أنها إلى الشرق، مع أنها بالنسبة لهم أقرب إلى الجنوب.

١٠ - طوال هذا الفصل، استعمل تعبير «اليهودية الكلاسيكية» للإشارة إلى اليهودية الحاخامية كما ظهرت بعد عام ٨٠٠م واستمرت حتى نهاية القرن الثامن عشر. وأتجنب تعبير «اليهودية المعيارية» (normative)، الذي يستعمله كتاب عديدون بالمعنى نفسه تقريباً، لأن دلالاته لا مبرر لها، في رأيي.

١١ - كتابات اليهود الهيللينيين، مثل فيلو الإسكندري، تشكل استثناء، لأنهم كتبوا قبل أن تحتكر اليهودية الكلاسيكية وضع «الهيمنة» ولذلك كانوا، في ما بعد، مضطهدين بين اليهود، وقد استمروا لأن الرهبان المسيحيين وجدوهم مقبولين.

١٢ - طوال الفترة من ١٠٠ إلى ١٥٠٠م، ألف كتابا رحلات وواحد عن تاريخ الدراسات التلمودية؛ موجز وغير دقيق وكئيب، وفوق ذلك، كتبه فيلسوف محتقر (أبراهام بن داڤيد - إسبانيا، حوالي ١١٧٠م).

١٣ - «ميئور إينايم» (Me'or Eynayim) بقلم عازاريا دو روسي من فيرا، إيطاليا، ١٥٧٤م.

١٤ - أشهر الحالات كانت في إسبانيا (ولنستعمل الأسماء المسيحية التي تبنوها)، السيد ألفونسو من فالادوليد أرتد عام ١٣٢٠، وبول من سانتا ماريا ارتد عام ١٣٩٠، وعين أسقفاً في بورغوس عام ١٤١٥. ويمكن ذكر حالات عديدة أخرى في كل بلدان أوروبا الغربية.

١٥ - بالتأكيد، كان الأسلوب والنتائج أيضاً أفضل بكثير من المناظرات التي اتهم فيها المسيحيون بالهرطقة؛ مثلاً: تلك التي أدين فيها بيتر أبيلارد (Peter Abelard) والفرنسيسكان المتشددين.

١٦ - المثلان الستاليني والصيني مشهوران بما فيه الكفاية. ويجدر بالذكر، في أي حال، أن اضطهاد المؤرخين الشرفاء في ألمانيا بدأ مبكراً جداً؛ فعام ١٨٧٤، سجن هـ. إيوالد (H. Ewald)، البروفسور في غيونجن لأنه عبر عن آراء غير صحيحة عن غزوات فريدريك الثاني، قبل مئة عام. والوضع في إسرائيل مشابه؛ فأسوأ الهجمات ضدي سببها لا التعابير العنيفة التي استخدمها لإدانة الصهيونية وقمع الفلسطينيين فحسب، بل ولمقالة سابقة لي عن دور اليهود في تجارة الرقيق والتي كانت آخر قضية أشرت إليها فيها، تعود إلى عام ١٨٧٠م. وقد نشرت المقالة قبل حرب ١٩٦٧، أما اليوم فنشرها مستحيل.

١٧ - وفي النهاية، لا بد من حذف فقرات قليلة أخرى كتلك التي تبدو سخيفة لاهوتياً (مثلاً، التي تقول إن الله يصلي لنفسه أو يقوم فعلاً ببعض الممارسات المحرمة على الفرد اليهودي، أو تلك التي تمجد بحرية بعض المغامرات الجنسية للحاخامات القدماء).

١٨ - «تراكتيت بيراخوت» (Tractate Berakhot) صفحة ٥٨ ب.

١٩ - «أمك ستكون ملعونة جداً، وعار عليها أنها حملت بك. . .» إرميا ٥٠ : ١٢.

٢٠ - نشرته بويز تاون (Boys Town)، القدس، وحرره موسى هيامسون، أحد أشهر علماء اليهودية في بريطانيا.

٢١ - المؤسسون المفترضون للطائفة الصدوقية.

٢٢ - يسعدني أنه في ترجمة حديثة (مطبعة جامعة شيكاغو)، لا تظهر كلمة «السود» ولكن المجلد الثقيل والغالي جداً لا يحتمل حتى الآن، أن يقع في الأيدي الخطأ. وبالمثل، ففي إنجلترا القرن التاسع عشر، سمح للكتب الراديكالية (مثل كتب غوردون) بالظهور، شريطة أن تصدر بطبعات مرتفعة الثمن.

٢٣ - ويمكن ذكر واقعة أخرى في هذا الخصوص. كان من الممكن تماماً وأدعى للاحترام بشكل ظاهر، من عالم يهودي عن الإسلام هو برنارد لويس (الذي درس سابقاً في لندن ويدرس اليوم في الولايات المتحدة الأميركية) أن ينشر مقالاً في مجلة «إنكاونتر» (Encounter)، يشير فيها إلى فقرات عديدة في الأدب الإسلامي التي يرى أنها معادية للسود، ولكن أياً منها لا يقارب الفقرات المذكورة أعلاه. ولا يمكن لأي شخص كان، الآن أو في السنوات الثلاثين الأخيرة، أن يبحث في أي نشرة أميركية مشهورة عن الفقرات المذكورة فيما سبق وغيرها من الفقرات التلمودية المعادية للسود. ولكن، من دون نقد كافة الجوانب، يصبح الهجوم على الإسلام وحده، مجرد افتراء.

الفصل الثالث

الأرثوذكسية والتأويل

هذا الفصل مخصص لمزيد من البحث التفصيلي في الهيكل اللاهوتي - القانوني لليهودية الكلاسيكية(١). وتدعو الضرورة، قبل مباشرة هذا الوصف، إلى تفنيد الآراء الخاطئة المنتشرة في معظم اللغات الأجنبية (أي غير العبرية)، لا سيما تلك التي تنشر التعابير الدارجة حديثاً مثل «التقاليد اليهودية - المسيحية» أو «القيم المشتركة في الديانات التوحيدية».

ولتجنب الإطالة، سأتناول بالتفصيل أهم هذه الأوهام الشائعة، وهو أن اليهودية هي، وقد كانت دوماً، توحيدية. فكما يعلم العديد من العلماء التوراتيين الآن، وما تكشف عنه قراءة العهد القديم بعناية، فإن هذا الرأي اللاتاريخي خاطئ تماماً؛ ففي معظم، إن لم يكن كل، أسفار العهد القديم، فإن وجود وقوة «آلهة أخرى» أمر معترف به بكل وضوح ولكن يهوه هو أقوى الآلهة(٢)، وهو إله غيور جداً من منافسيه ويمنع شعبه من عبادتهم(٣). ولم ينكر وجود آلهة أخرى غير يهوه، إلا في الكتب المتأخرة جداً، قبل الأنبياء المتأخرين(٤).

ما يهمنا في أي حال، ليس اليهودية التوراتية بل الكلاسيكية. وهذه اليهودية، كما هو واضح تماماً، وإن لم يعترف بذلك على نطاق واسع، كانت خلال مئات سنواتها القليلة الأخيرة، بعيدة جداً عن التوحيدية الصافية. ويمكن إيراد القول نفسه عن العقائد الحقيقية السائدة حالياً لدى

اليهودية الأرثوذكسية (المتشددة)، التي تشكل استمراراً مباشراً لليهودية الكلاسيكية. وقد جاء فساد التوحيدية عبر انتشار الصوفية اليهودية (القبالية Cabbala) التي تطورت في القرنين الثاني والثالث عشر وأحرزت انتصارها شبه الكامل، في معظم المراكز اليهودية، أواخر القرن السادس عشر. وكان على التنوير اليهودي، الذي نشأ عن أزمة اليهودية الكلاسيكية، أن يحارب هذه الصوفية وتأثيرها أكثر من محاربة أي أمر آخر، إلا أن تأثير القبالية ظل سائداً في اليهودية الأرثوذكسية، لاسيما بين الحاخامات[٥]. فحركة غوش إيمونيم (Gush Emunim) مثلاً، متأثرة بالأفكار القبالية، إلى حد بعيد.

معرفة وفهم هذه الآراء هام لسببين: الأول، بدون ذلك لا يستطيع المرء فهم المعتقدات الحقيقية لليهود في نهاية حقبتها الكلاسيكية. والثاني، هذه الأفكار تلعب دوراً سياسياً معاصراً هاماً، لأنها تشكل جزءاً من المعتقدات التي يؤمن بها العديد من السياسيين المتدينين صراحة، ومنهم معظم القادة الصهاينة في كل الأحزاب، وحتى اليسار الصهيوني.

وفق المعتقدات القبالية، فإن الكون ليس محكوماً من إله واحد، بل من آلهة عدة، مختلفة الصفات والقدرات، انبثقت عن سبب أول قديم غامض. وبحذف الكثير من التفاصيل، يستطيع المرء أن يلخص هذا الترتيب على النحو التالي: من السبب الأول، انبثق أو ولد أولاً، إله ذكر يدعى «الحكمة» أو «الأب»، ثم إلهة أنثى تدعى «المعرفة» أو «الأم»، ومن زواج هذين ولد إلهان صغيران: الإبن، وتطلق عليه أسماء أخرى عديدة مثل «الوجه الصغير» أو «التقي المبارك»، أو «الإبنة»، وتدعى أيضاً «السيدة» (أو ماترونيت Matronit – وهي كلمة مشتقة من اللاتينية)، أو «شيخيناه» (Shikhinah) أو «الملكة». . . وهكذا. هذان الإلهان الصغيران يجب أن يتحدا ولكن أحابيل الشيطان تمنع اتحادهما. والشيطان ضمن هذا الترتيب، شخصية مستقلة وهامة جداً، قام السبب الأول بعملية الخلق كي يتيح الفرصة لاتحادهما ولكن السقوط جعلهما منفصلين أكثر مما

سبق، حتى أن الشيطان تمكن من الاقتراب من الابنة واغتصابها (وتختلف الآراء حول ما إذا كان ذلك قد تم فعلاً أو تشبيهاً). وجاء خلق الشعب اليهودي، لإصلاح الخرق الذي سببه آدم وحواء، وتم هذا أسفل جبل سيناء للحظة، فقد اتحد الإله الابن، متجسداً بموسى، مع الإلهة شيخيناه. ولسوء الحظ، فقد تسببت خطيئة العجل الذهبي بانفصام في رأس الإله ولكن توبة الشعب اليهودي أصلحت الأمور إلى حد ما. وبالمثل، يعتقد بأن كل حادثة في التاريخ اليهودي التوراتي ترتبط باتحاد أو انفصام الزواج المقدس. وانتزاع اليهود لفلسطين من أيدي الكنعانيين وبناء المعبدين الأول والثاني، ملائم تماماً لاتحادهما، أما هدم المعبدين ونفي اليهود من الأرض المقدسة، فهما ليسا مجرد علامتين خارجيتين على الانفصال الإلهي، بل وعلى «البغاء مع آلهة غرباء». فالابنة تخضع تماماً لسيطرة الشيطان، فيما يصطحب الابن إناثاً شيطانيات مختلفات إلى فراشه، بدلاً من زوجته الحقيقية.

واجب اليهود الأتقياء أن يعيدوا، عبر صلواتهم وتصرفاتهم، الوحدة المقدسة الكاملة، على شكل اتحاد جنسي بين الإلهين الذكر والأنثى[٦]. ولهذا السبب، وقبل القيام بمعظم التصرفات الطقوسية، لا بد من تلاوة الدعاء القبالي التالي: «لأجل اتحاد الابن المبارك التقي مع شيخيناه... (جنسياً)»[٧]. وصلوات الصبح اليهودية تقام من أجل الدعاء لهذا الاتحاد الجنسي، ولو مؤقتاً. والأجزاء المتتابعة للصلاة، تتوافق صوفياً مع مراحل الاتحاد المتوالية: ففي جزء تقترب الإلهة مع وصيفاتها، وفي آخر يضع الإله يده فوق عنقها ويربت على صدرها، ويفترض أخيراً أن يكون الفعل الجنسي قد حصل.

الصلوات والتصرفات الدينية الأخرى، كما تؤول قباليا، يقصد بها خداع الملائكة (الذين يصورون كآلهة من درجة أدنى ويملكون بعض الاستقلال) أو استرضاء الشيطان. وفي جزء محدد من صلاة الصبح تتلى بعض الآيات بالآرامية (بدلاً من العبرية)[٨]. ويفترض أن القصد هو خداع

الملائكة الذين يحرسون البوابات التي تدخل صلوات الأتقياء عبرها إلى السماء، لأنهم يستطيعون منعها من الدخول. فالملائكة لا تفهم إلا العبرية والآيات الآرامية تربكها لأنها بليدة إلى حد ما (المفروض هو أنها أقل ذكاء من القباليين)، ولذلك تفتح البوابات، وفي هذه اللحظة تدخل الصلوات كلها، بما في ذلك العبرية منها. ولنأخذ مثلاً آخر: قبل وبعد الأكل، يجب على اليهودي المتدين أن يغسل يديه وهو يتلو دعاءً محدداً. ففي إحدى هاتين المناسبتين يمجد الله بالدعاء لاتمام الاتحاد المقدس بين الابن والابنة، ولكنه في المناسبة الأخرى يمجد الشيطان الذي يحب الصلوات والطقوس اليهودية كثيراً، ولذا، فهو ينشغل بها عند تلاوتها أو أدائها، وينسى لبرهة مضايقة الابنة المقدسة. وبالفعل، يعتقد القباليون أن بعض الأضاحي التي تحرق في المعبد، كانت قرباناً للشيطان. مثلاً، السبعون عجلاً (مخصياً) التي يضحى بها خلال ايام عيد الخيمة السبعة[٩]، يفترض أنها قربان للشيطان باعتباره حاكم غير اليهود[١٠]، لابقائه مشغولاً فلا يتدخل في اليوم الثامن، عندما تقدم القرابين لله. ويمكننا إعطاء أمثلة عديدة أخرى من هذا النوع.

لا بد من إيضاح نقاط عدة لأهميتها في مجال الفهم السليم لليهودية، سواء في حقبتها الكلاسيكية، أو لأثرها السياسي على الممارسات الصهيونية في الوقت الحاضر.

أولاً، مهما قيل عن هذا النظام القبالي، فلا يمكن اعتباره توحيدياً، إلا إذا كان المرء مستعداً لاعتبار الهندوسية أو الديانة اليونانية - الرومانية المتأخرة، أو حتى ديانات مصر القديمة، توحيدية.

ثانياً، الطبيعة الحقيقية لليهودية الكلاسيكية، توضحها السهولة التي تم بها تبني هذا النظام. فالإيمان والمعتقدات (عدا المعتقدات القومية) تلعب دوراً ضئيلاً جداً في اليهودية الكلاسيكية. والأهمية الكبرى هي للطقس بحد ذاته، بدلاً من الأهمية المفترضة للمعتقد المرتبط به. ولذلك، خلال الفترة التي رفضت فيها أقلية يهودية متدينة قبول القبالية

(كما هي الحال اليوم)، يستطيع المرء أن يرى جماعتين يهوديتين تمارسان طقساً دينياً محدداً، تعتقد الأولى أنه عبادة لله، فيما تعتقد الأخرى أنه استرضاء للشيطان. وما دام الطقس واحداً، فهما تصليان معاً وتبقيان ضمن طائفة واحدة، مهما كانت إحداهما تكره الأخرى. أما إذا حاول شخص إدخال تعديل على طريقة غسل اليدين، بدلاً من القصد المرتبط بالطقس المتمثل في غسل اليدين[11]، فلا بد أن يحصل انشقاق حقيقي.

ويمكن قول الشيء نفسه عن كل الصيغ اليهودية المقدسة، فمعناها يأتي في الدرجة الثانية من الأهمية، ما دام الشكل باقياً على حاله. مثلاً، إحدى أشد العبارات اليهودية قداسة: «إسمعي يا إسرائيل، الرب إلهنا، الرب واحد»، التي يرددها كل يهودي متدين مرات عدة كل يوم، يمكن أن تعني في الوقت الحاضر أمرين متناقضين: يمكن أن تعني أن الرب فعلاً «واحد»، ولكن، يمكن أن تعني أيضاً أنه تم، في مرحلة معينة، اتحاد الآلهة الذكر والأنثى، أو يدعى لتمامه بتلاوة هذه العبارة بصورة صحيحة. ورغم ذلك، عندما حاولت بعض الطوائف الإصلاحية تلاوة هذه العبارة بأي لغة غير العبرية، غضب الحاخامون المتشددون، سواء كانوا يؤمنون بالوحدانية أو الاتحاد الجنسي المقدس، غضباً شديداً.

وأخيراً، كل هذا هام جداً في إسرائيل (والمراكز اليهودية الأخرى)، حتى في الوقت الحاضر. والأهمية الكبرى مرتبطة بالصيغ المجردة (مثل «قانون القدس»)، وأفكار ودوافع غوش ايمونيم: الإلحاح على كره غير اليهود الذين يعيشون في فلسطين حالياً، الموقف القدري تجاه كل مبادرة سلام تقوم بها الدول العربية؛ كل هذه وغيرها من سمات السياسات الصهيونية، والتي تحير الكثيرين من ذوي النوايا الحسنة والآراء الزائفة حول اليهودية الكلاسيكية، تصبح مفهومة في ضوء هذه الخلفية الدينية الباطنية. أما تأثيراتها فتختلف في مداها. وقد كان بن غوريون ماهراً في استغلالها باسلوب منتظم، بقصد تحقيق غايات محددة. وفي ظل حكم بيغن، كان للماضي تأثير كبير على الحاضر.

ويتوجب على المرء أن لا يتجاهل الماضي وآثاره، لأنه بمعرفتها يتمكن من تجاوز سلطتها العمياء.

تأويل التوراة

يتضح من المثل السابق، أن معظم ما يفترض الناس المطلعون معرفته عن اليهودية، قد يكون مضللاً تماماً، ما لم يتمكنوا من القراءة بالعبرية. وجميع التفاصيل الواردة في ما سبق يمكن العثور عليها في النصوص الأصلية، وفي بعض الحالات، في الكتب الحديثة المكتوبة بالعبرية لقراء محددين. وعبثاً يحاول المرء أن يجدها بالإنجليزية، حتى عندما يؤدي حذف مثل هذه الحقائق الاجتماعية الهامة إلى تشويه الصورة بكاملها.

وهناك فكرة أخرى خاطئة عن اليهودية، وهي شائعة بين المسيحيين أو المتأثرين بالثقافة والتراث المسيحي، هي الفكرة المضللة القائلة بأن اليهودية «ديانة توراتية»، وأن العهد القديم يحتل في اليهودية المركز نفسه والسلطة الشرعية نفسها التي للتوراة لدى البروتستانت أو حتى الكاثوليك.

ومرة ثانية، يرتبط هذا بمسألة التأويل، وقد رأينا تساهلاً كبيراً في المسائل المتعلقة بالمعتقدات، ولكن العكس هو الصحيح بالنسبة للتأويل الشرعي للنصوص المقدسة. فالتأويل هنا جامد تماماً؛ ولكن على أساس التلمود وليس التوراة نفسها[١٢]. والعديد من، وربما معظم الآيات التي تصف التصرفات والالتزامات الدينية، تفهم لدى اليهودية الكلاسيكية وأرثوذكسية الوقت الحاضر بمعنى يختلف تماماً عن أو يتناقض مع معناها الحرفي الذي يفهمه المسيحيون أو غيرهم من قراء العهد القديم، الذين ينظرون إلى النص الصريح. والانقسام نفسه موجود في إسرائيل بين الذين يتعلمون في المدارس الدينية اليهودية والذين يتعلمون في مدارس علمانية عبرية، حيث يدرس المعنى الواضح للعهد القديم.

هذه النقطة الهامة يمكن فهمها عبر الأمثلة. وسيلاحظ أن تغييرات

المعنى ليست كلها في الاتجاه نفسه من وجهة نظر أخلاقية، حسب المعنى المفهوم لهذا التعبير اليوم. ويزعم المدافعون عن اليهودية أن تأويل التوراة الذي يعود أصله إلى الفريسيين (Pharisees) وثبت في التلمود، هو في كل الحالات أكثر تحرراً من المعنى الحرفي. ولكن بعض الأمثلة التي نوردها في ما يلي تظهر أن الأمر ليس كذلك، على الإطلاق.

١ - دعونا نبدأ بالوصايا العشر. الوصية الثامنة تقول «لا تسرق» (الخروج ٢٠ : ١٥) فقد فسرت كنهي عن سرقة «أي خطف» شخص يهودي. والسبب هو أن جميع الأعمال الممنوعة في الوصايا العشر هي جرائم كبرى في نظر التلمود، وسرقة الممتلكات ليس جريمة كبرى، وخطف غير اليهود مصرح به لليهود حسب ما ورد في التلمود، ولذلك، اعتمد هذا التأويل. والجملة المطابقة «لا تسرق» (اللاويين ١٩ : ١١) ترجمت بمعناها الحرفي.

٢ - الجملة الشهيرة «العين بالعين والسن بالسن» (الخروج ٢١ : ٢٤)، اعتبر أنها تعني «عين مال مقابل العين»، أي دفع غرامة عوضاً عن العقاب الجسدي.

٣ - وهذه حالة شاذة شهيرة قلب فيها المعنى الحرفي إلى ضده تماماً؛ فالنص التوراني يحذر بوضوح من الانحياز لقضية غير عادلة «لا تتبع الحشد لفعل الشر ولا تتكلم في قضية لتتراجع بعد كثيرين لانتزاع حكم» (الخروج ٢٣ : ٢)، وقد نزعت الكلمات الأخيرة في هذه الجملة «تتراجع بعد كثيرين لانتزاع حكم» عن مضمونها وفسرت كنهي عن اتباع رأي الأغلبية.

٤ - جملة «لا تسلق الجدي بحليب أمه» (الخروج ٢٣ : ١٩) فسرت كحظر على خلط أي نوع من اللحوم مع أي نوع من الحليب أو من منتجات الألبان. ولما كانت الجملة نفسها تتردد في موقعين آخرين في الأسفار الخمسة الأولى، فقد اعتبر مجرد التكرار حظراً ثلاثياً يمنع اليهودي من (١) أكل مثل هذا الخليط. (٢) طبخه لأي غرض

كان. (٣) الانتفاع أو التمتع به في أي شكل كان[١٣].

٥ - في حالات عديدة، أوِّلت التعابير العامة مثل «رفيقك» و«غريب» وحتى «إنسان» تأويلاً شوفينياً حصرياً. فالجملة الشهيرة «أحب رفيقك كما تحب نفسك» (اللاويين ١٩ : ١٨)[١٤]، فهمتها اليهودية الكلاسيكية (وأرثوذكسية الوقت الحاضر) كأمر بحب الرفيق اليهودي وليس أي رفيق إنسان آخر. وبالمثل، جملة «لا تقف حيال دم رفيقك» (اللاويين: ١٦)، يفترض أن تعني أن لا يقف المرء لا مبالياً عندما تتعرض حياة (دم) رفيقه اليهودي للخطر، ولكن اليهودي، كما سنرى في الفصل الخامس، لا يجوز له إنقاذ حياة غير اليهودي لأنه «ليس رفيقك». والأمر الكريم بترك لقاطات الحقل والكرم «للفقير والغريب» (اللاويين ٩ : ١٠) فسر على أنه يشير إلى فقراء اليهود والمتحولين إلى اليهودية، حصراً. وتبدأ قوانين التحريم المتعلقة بالجثث بجملة: «هذا هو الشرع، عندما يموت رجل في خيمة، فكل ما يدخل الخيمة... يكون نجساً لمدة سبعة أيام» (العدد ١٩ : ١٦)، ولكن رجل اعتبر أنها تعني «يهودي»، وبذلك تكون الجثة اليهودية فقط محرمة (أي مقدسة ونجسة في آن). وعلى أساس هذا التفسير يبدي المتدينون اليهود احتراماً سحرياً بالغاً للجثث والمقابر اليهودية، ولكنهم لا يحترمون جثث ومقابر غير اليهود. وهكذا دمرت المئات من مقابر المسلمين في إسرائيل (وفي إحدى الحالات لبناء هيلتون تل أبيب)، ولكن الصراخ ارتفع عالياً لأن مقبرة على جبل الزيتون، تضررت إبان الحكم الأردني. والأمثلة من هذا النوع كثيرة جداً. وبعض النتائج اللاإنسانية لهذا النوع من التأويل ستبحث في الفصل الخامس.

٦ - وأخيراً، لنبحث إحدى أجمل الفقرات النبوية، إدانة اليشع (Isaiah) الرائعة للرياء والطقوس الجوفاء والحض على الآداب العامة. فإحدى جمل هذه الفقرة (اليشع ١ : ١٥) تقول: «عندما ترفع يديك

نحوي، سأشيح بعيني عنك، وعندما تقوم بصلواتك العديدة لن أسمع. يداك مليئتان بالدم». ولما كان الكهان اليهود «يرفعون أيديهم» لمباركة الناس في أثناء الصلاة، يفترض أن تعني عدم أهلية الكاهن الذي يقتل خطأ «الرفع يديه» للمباركة (ولو تاب)، لأنهما مليئتان بالدم.

واضح تماماً، حتى من هذه الأمثلة، أنه عندما يقرأ اليهود لأرثوذكس اليوم (وكل اليهود قبل ١٧٨٠م)، فهم يقرأون كتاباً مختلفاً وذا معان مختلفة تماماً عن التوراة كما يقرؤها غير اليهود أو اليهود غير لمتشددين. وهذا التمييز يسري على إسرائيل رغم أن الفريقين يقرآن لنص بالعبرية. والعديد من اليهود في إسرائيل (وأماكن أخرى) ليسوا متشددين ومعرفتهم بتفاصيل الديانة اليهودية محدودة وقد حاولوا تعيير لإسرائيليين المتشددين (واليمينيين المتأثرين بالدين) بموقفهم اللاإنساني تجاه الفلسطينيين، بالاستشهاد ببعض جمل التوراة بمعناها الواضح. وقد بين في كل الأحوال أن مثل هذه الحجج لا أثر لها إطلاقاً على أتباع ليهودية الكلاسيكية، فهم، وبكل بساطة، لا يفهمون ما يقال لهم لأن لنص التوراتي يعني، بالنسبة لهم، شيئًا مختلفاً تماماً عما يعنيه لأي شخص آخر.

فإذا كانت هذه الفجوة في التواصل موجودة في إسرائيل حيث الناس قرأون العبرية وبإمكانهم الحصول على المعلومات فوراً إذا رغبوا، ستطيع المرء أن يتخيل عمق الأفكار الخاطئة في الخارج، بين الناس لذين تربوا على التقاليد المسيحية. والحقيقة هي انه كلما قرأ هذا لشخص التوراة، قلَّ ما يعرفه عن اليهودية الأرثوذكسية، لأن الأخيرة، عتبر العهد القديم نصاً لصيغ غير قابلة للتغيير لتلاوتها مزايا عظيمة، أما معناها فمحدد في مكان آخر. وكما قال هامبتي دامتي (Humpty Dumpty) لأليس، خلف مسألة من يحدد معاني الكلمات، يكمن السؤال لحقيقي: «من هو السيد؟».

هيكلية التلمود

ينبغي أن يكون مفهوماً بوضوح أن مصدر ومرجع كل الممارسات في الكلاسيكية اليهودية (والأرثوذكسية اليوم)، والقاعدة التي تحدد شرعيتها، هو التلمود، وبتحديد أدق، ما يدعى بالتلمود البابلي، أما باقي الأدب التلمودي (بما في ذلك ما يدعى تلمود القدس أو فلسطين) فهو مراجع إضافية.

لا نستطيع في هذا المجال أن نقدم وصفاً مفصلاً للتلمود والأدب التلمودي، لذا سنكتفي بالنقاط الرئيسية التي نحتاجها لبيان رأينا. أساساً، يتألف التلمود من قسمين: أولاً، المشناه (Mishnah) وهي مجموعة قانونية شاملة تضم ستة مجلدات، ينقسم كل منها إلى أبحاث عدة. وهي مكتوبة بالعبرية وقد نقحت في فلسطين حوالي ٢٠٠م، واستخلصت من مواد قانونية (شفوية في الغالب) واسعة جداً، تم تأليفها خلال القرنين السابقين. والجزء الثاني الغالب هو الجميراه (Gemarah)، وهي سجل ضخم لأبحاث حول الميشناه. وهناك مجموعتان متوازيتان من الجميراه، ألفت إحداها في وادي الرافدين (بابل)، ما بين ٢٠٠ و٥٠٠م، والأخرى في فلسطين في تاريخ غير معروف قبل ٥٠٠م بكثير. والتلمود البابلي (الميشناه والجميراه البابلية) أكثر شمولاً وأفضل ترتيباً من المراجع الفلسطينية، وهي وحدها تعتبر دقيقة ورسمية. أما التلمود المقدسي (الفلسطيني) فيحتل مركزاً أدنى كمرجع شرعي، ومعه عدد من النصوص التي يطلق عليها اسم «الأدب التلمودي» وتشمل المواد التي تركها محررو التلمود خارجه.

خلافاً للمشناة، فإن باقي التلمود والأدب التلمودي مكتوب بخليط من العبرية والآرامية وهما اللغة السائدة في التلمود البابلي، ولا تقتصر على المسائل الشرعية. ومن دون أي سبب ظاهر، يمكن أن يقاطع البحث الشرعي بما يدعى حكاية (Aggadah) وهي قصص مركبة عن نوادر

الحاخامين أو الناس العاديين، أو الشخصيات التوراتية أو الملائكة أو العفاريت أو السحر أو الأعاجيب. والحكايات، رغم تأثيرها الشعبي الكبير عبر العصور، اعتبرت على الدوام (حتى في التلمود نفسه) ذات قيمة ثانوية. فالأعظم أهمية في اليهودية الكلاسيكية هو الجزء الشرعي من النصوص وخاصة بحث القضايا التي تعتبر غير ثابتة. ويحدد التلمود نفسه فئات اليهود تصاعدياً، كما يلي: الأدنى هم الجاهلون تماماً، ثم يأتي الذين يعرفون التوراة فقط، فالملمون بالمشناه أو أغاداه، والطبقة الأعلى هم الذين درسوا الجميراه ويستطيعون بحث القسم الشرعي فيها، والفئة الأخيرة فقط، هي التي يحق لها أن تقود اليهود في كافة المناحي.

يمكن وصف النظام الشرعي في التلمود بأنه شامل كلياً، سلطوي، جامد، إلا أنه قابل للتطور غير المحدود، من دون أي تغيير في قاعدته الدوغمائية (اللاهوتية)؛ فكل نواحي الحياة اليهودية، الفردية والجماعية، مشمولة بتفصيل وطول، مع جزاءات وعقوبات لكل خطيئة أو مخالفة لأحكام الشرع، يمكن تصورها. والأحكام الأساسية لكل مسألة مدرجة لاهوتياً ولا يمكن الشك فيها. ما يمكن بحثه بالتفصيل هو إيضاح التعريف العملي لهذه الأحكام. دعوني أعطي أمثلة قليلة.

«عدم القيام بأي عمل» يوم السبت: مفهوم «عمل» محدد ويشمل ٣٩ نوعاً من الأعمال على وجه التحديد، لا أكثر ولا أقل. ومعيار الشمول بالقائمة لا علاقة له بصعوبة العمل المحدد، لأنه يحدد على أساس لاهوتي. أحد الأعمال الممنوعة هو «الكتابة». وهنا ينشأ السؤال: كم حرفاً يجب أن يكتب الشخص ليرتكب خطيئة الكتابة يوم السبت؟ (الجواب: اثنين)، وهل تبقى الخطيئة نفسها بصرف النظر عن اليد التي يكتب بها؟ (الجواب: لا). ورغم ذلك، وللاحتياط من الوقوع في الخطيئة، عزز حظر الكتابة بتحريم آخر، هو لمس أي أداة للكتابة يوم السبت.

عمل نموذجي آخر محظور يوم السبت هو طحن القمح، ومنه

استنتج بالمقارنة، تحريم أن نوع آخر من الطحن مهما كان نوعه. وهذا بدوره وسع ليشمل العلاج الطبي يوم السبت (إلا إذا كانت حياة يهودي في خطر)، كي لا يقع المعالج في خطيئة طحن العلاج. وعبثاً تحاول بيان أن هذا الخطر لم يعد موجوداً هذه الأيام (ولم يوجد في عديد من الحالات في العصور التلمودية)، لأن التوسع يؤدي إلى حظر تلمودي واضح للعلاجات السائلة والمشروبات المنعشة يوم السبت. وما تم تحديده يبقى محدداً مهما كان سخيفاً. وقد كتب ترتوليان (Tertallian)، أحد آباء الكنيسة القدامى: «أنا أصدقه لأنه سخيف». وهذا يمكن استخدامه شعاراً لمعظم القواعد التلمودية مع استبدال كلمة «أصدق» بكلمة «أمارس».

المثل الثاني يوضح بصورة أفضل مستوى السخف الذي وصل إليه هذا النظام. فأحد الأعمال الممنوعة يوم السبت هو الحصاد، وبالمقارنة، تحدد ليشمل قطع غصن شجرة ولذلك، حظر ركوب الحصان (أو أي حيوان آخر) خشية الوقوع في إغراء قطع غصن شجرة لضرب الحيوان. وعبثاً تحاول أن تقول أنك تملك سوطاً جاهزاً، أو أنك تزمع الركوب في مكان لا أشجار فيه. ويمكن في أي حال تعزيز هذا الحظر والتوسع فيه فقد حظر ركوب الدراجة يوم السبت، لأنه مشابه لركوب الحصان.

المثل الأخير الذي أورده يوضح استخدام الأساليب نفسها حتى في الحالات النظرية البحتة التي لا يمكن تصورها في عالم الواقع؛ إبان وجود المعبد، كان يسمح للكاهن الأعلى بأن يتزوج عذراء. ورغم عدم وجود معبد أو كاهن أعلى خلال الفترة التلمودية، يكدس التلمود أحد أكثر أقسامه تشويشاً (وغرابة)، لتحديد المعنى الدقيق للعذراء المناسبة للزواج من الكاهن الأعلى. ما حكم المرأة التي فض غشاء بكارتها نتيجة حادث؟ بتأثير أداة معدنية أو خشبية؟ وهل كانت تتسلق شجرة؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب، فهل كانت صاعدة أم نازلة؟ وهل حصل ذلك بصورة طبيعية أم غير طبيعية؟ هذا كله وغيره، يبحث بالتفصيل المطول. ويتوجب

على كل دارس لليهودية الكلاسيكية أن يحفظ مئات القضايا المماثلة. ويقيم العلماء العظام بمدى قدرتهم على التوسع في هذه القضايا، لأن المجال، كما هو واضح من الأمثلة، متاح للتوسع - ولو في اتجاه واحد فقط - وقد تواصل هذا الاتجاه بالفعل، حتى بعد التنقيح الأخير للتلمود.

وهناك، في كل حال، اختلافان كبيران بين الفترة التلمودية (المنتهية حوالي ٥٠٠م) وفترة اليهودية الكلاسيكية (من حوالي ٨٠٠م). فالمنطقة الجغرافية المذكورة في التلمود محددة والمجتمع اليهودي الذي يشار إليه مجتمع «كامل»، قاعدته الزراعة اليهودية (وهذا يصح في وادي الرافدين وفلسطين). ورغم أن اليهود في ذلك الوقت، كانوا يعيشون في كل أرجاء الأمبراطورية الرومانية والأمبراطورية الفارسية الساسانية، فالواضح تماماً أن التلمود الذي استغرق تأليفه خمسة قرون، شأن محلي تحديداً، لم يسهم في تأليفه أي عالم من خارج وادي الرافدين، ولا يعكس النص ظروفاً اجتماعية خارج هاتين المنطقتين.

المعلومات المتوفرة عن ظروف اليهود الاجتماعية والدينية خلال القرون الثلاثة الفاصلة قليلة جداً. أما اعتباراً من ٨٠٠م فقد توفرت معلومات تاريخية أكثر تفصيلاً، ونجد أن ظاهرتين مما ذكر سابقاً قد انعكستا؛ التلمود البابلي (وإلى مدى أقل، باقي الأدب التلمودي)، معترف به كمرجع، ويدرس ويطور في كل الجاليات اليهودية. وفي الوقت نفسه، حصل تغير عميق في المجتمع اليهودي؛ فهو لا يضم فلاحين، مهما كان نوعهم، في أي مكان.

النظام الاجتماعي الناشئ عن هذا التغير سيبحث في الفصل الرابع. أما هنا، فسنصف تطور التلمود وفق ظروف - الاتساع الجغرافي والانحصار الاجتماعي، مع الاختلاف الجذري في الحالين - اليهودية الكلاسيكية. وسنركز على ما أعتبره أهم أساليب التطوير، أي الإعفاءات الشرعية.

الإعفاءات الشرعية

كما لاحظنا في ما سبق، فإن النظام التلمودي دوغمائي متشدد لا يسمح بأي تساهل في تطبيق أحكامه حتى ولو أصبحت سخيفة نتيجة لتطور الظروف. ففي حالة التلمود - بخلاف التوراة - المعنى الحرفي للنص ملزم، ولا يسمح للمرء بأن يفسره خلافاً لذلك. ولكن، حصل خلال فترة اليهودية الكلاسيكية، أن أحكاماً تلمودية مختلفة أصبحت مزعجة للطبقات اليهودية الحاكمة: الحاخامين والأغنياء. ولمصلحة هذه الطبقات الحاكمة ابتدع نظام مخادع يتمسك بحرفية الحكم الشرعي، ويخالف روحه ومقاصده. هذا النظام المرائي «الإعفاءات الشرعية» (heterim) كان، في رأيي العامل الأهم في انحطاط اليهودية في حقبتها الكلاسيكية (السبب الثاني هو الصوفية اليهودية، التي مورست لفترة أقل). وثانية تدعو الحاجة لإيراد بعض الأمثلة لإيضاح عمل هذا النظام.

١ - تقاضي الفائدة (الربا): يحظر التلمود اليهودي بشكل قاطع، تحت طائلة العقاب الشديد، تقاضي فوائد على قرض يهودي آخر (وفق أحكام معظم المراجع التلمودية. يقضي الواجب الديني بتقاضي أعلى فائدة ممكنة من غير اليهودي). وهناك أحكام تفصيلية عديدة تتناول معظم الحالات البعيدة الاحتمال التي يمكن لمقرض يهودي أن يفيد منها من مقترض يهودي. كل الأشخاص المشاركين في صفقة كهذه، حتى الكاتب والشهود، ينعتهم التلمود بسوء السمعة، ولا يحق لهم الإدلاء بشهادة في المحكمة، لأن مشاركتهم في مثل هذا التصرف تجعلهم كاليهودي الذي يعلن أن «لا علاقة له بالله». وواضح أن هذا النص يراعي مصالح العمال والفلاحين اليهود، أو الجاليات اليهودية الصغيرة التي تستثمر أموالها في إقراض غير اليهود. ولكن الوضع اختلف تماماً في أوروبا الشرقية (وخاصة في بولندا)، بحلول القرن السادس عشر. فقد كانت هناك جالية كبيرة نسبياً، تشكل الغالبية في مدن عدة. ولم يكن الفلاحون الخاضعون

لنظام القنانة (Serfdom)، الذي لا يختلف كثيراً عن العبودية، قادرين على الاقتراض، فيما انشغل اليهود الأثرياء باقراض النبلاء، وكان العديد منهم يتعاملون مع بعضهم.

في هذه الظروف، ابتدع الترتيب التالي (يدعى إعفاء تجاري heter isqo)، لفرض الفوائد على القروض بين اليهود والتي لا تخالف حرفية الحكم الشرعي، لأنها لا تعتبر قروضاً من الناحية الرسمية. المقرض «يستثمر» أمواله في تجارة المقترض مشترطاً شرطين: الأول، هو أن يدفع المقترض له، في تاريخ محدد، مبلغاً من المال (هو في الحقيقة فائدة على القرض) باعتباره «حصة المقرض من الأرباح». والثاني، هو اعتبار المقترض قد حقق ربحاً كافياً كي يعطي المقرض حصته، ما لم يزعم خلاف ذلك ويؤيد زعمه هذا حاخام المدينة أو قاضيها الديني. . . إلخ، الذي يقضي الترتيب بأن يمتنع عن الشهادة في هذه القضايا. عملياً، كل ما يلزم، هو أخذ نص الإعفاء المكتوب بالآرامية ولا تستطيع الغالبية فهمه، ووضعه على جدار الغرفة التي تعقد فيها الصفقة (تعرض نسخ من هذا النص في كل فروع المصارف الإسرائيلية)، أو حتى حفظها في صندوق، ليصبح القرض بين اليهود وفوائده مشروعاً تماماً ولا تثريب عليه.

٢ - السنة السبتية: حسب الشرع التلمودي (على أساس اللاويين ٢٥) يجب أن تترك الأرض التي يملكها اليهود في فلسطين(١٥) من دون زراعة كل سنة سابعة (سبتية Sabbatical)، وعندها يحظر كل عمل زراعي (حتى الحصاد) على هذه الأرض. وهناك بينات كثيرة على أن هذا القانون كان مطبقاً بدقة خلال ألف سنة، اعتباراً من القرن الخامس ق.م.، وحتى اختفاء الزراعة اليهودية في فلسطين. وعندما لم تعد الفرص متاحة لتطبيق هذا القانون، بقى قائماً نظرياً من دون أي تعديل، لكن في عام ١٨٨٠، ومع بداية تأسيس المستوطنات الزراعية الأولى في فلسطين، أصبحت المسألة ذات أهمية عملية،

فابتدع الحاخامون المتعاطفون مع المستوطنين إعفاءً، وقام خلفاؤهم في الأحزاب الدينية الصهيونية بتحسينه حتى أصبح جزءاً من التقاليد الإسرائيلية الراسخة.

وهكذا يعمل النظام الجديد: قبل كل سنة سبتية بوقت قصير، يعطي وزير الداخلية الإسرائيلي لكبير الحاخامين سنداً يجعله المالك القانوني لكل الأراضي الإسرائيلية، الخاصة والعامة. واستناداً لهذا الصك، يبيع الحاخام الأكبر كل أراضي إسرائيل (والأراضي المحتلة منذ ١٩٦٧) لشخص غير يهودي، مقابل مبلغ رمزي، ويوقع معه وثيقة مستقلة تقضي بالزام «المشتري» بأن «يعيد بيع» الأرض عند انتهاء السنة. وتتكرر هذه الصفقة مرة كل سبع سنوات، وعادة مع المشتري نفسه.

الحاخامون اللاصهيونيون لا يعترفون بهذا الإعفاء[١٦]، ويرون بحق، أنه ما دام القانون الديني يمنع اليهود من بيع الأرض في فلسطين لغير اليهود، فالصفقة كلها تشكل خطيئة وتعتبر لاغية كأن لم تكن. ويجيب الحاخامون الصهاينة بأن الممنوع هو البيع الحقيقي وليس البيع الصوري.

٣ - الحلب يوم السبت: حرم هذا خلال الفترات اللاحقة للتلمودية، عن طريق أساليب التشدد الديني المذكورة في ما سبق. وهذا يمكن التقيد به في الشتات لأن اليهود الذين يملكون الأبقار، هم عادة من الأغنياء القادرين على استجار خدم من غير اليهود، ويمكنهم (باستخدام إحدى الحيل التي سنصفها فيما يلي) أن يأمروهم بحلبها. وقد استأجرت المستوطنات اليهودية الأولى في فلسطين عرباً لهذه الغاية ولأغراض أخرى. ولكن تطبيق سياسة العمل العبري الصهيونية جعل ابتداع إعفاء ضرورياً (وكان هذا ضروريا، بصورة خاصة، قبل استخدام آلات الحليب في الخمسينات). وهنا أيضاً اختلف الحاخامون الصهاينة مع غير الصهاينة.

رأى الحاخامات الصهاينة، أن الحلب الممنوع يصبح مباحاً إذا لم يكن الحليب أبيضاً وصبغ باللون الأزرق. وهذا الحلب السبتي الأزرق يخصص لصناعة الجبن حصراً، ويغسل الصباغ الأزرق بالمصل. وابتدع الحاخامون غير الصهاينة حيلة أكثر مكراً (شاهدت بنفسي إجراءها في أحد الكيبوتزات الدينية عام ١٩٥٢)؛ اكتشفوا حكماً قديماً يسمح بافراغ ضروع البقرة يوم السبت بغرض تخفيف معاناة البقرة من امتلاء ضروعها، بشرط أن يسيل الحليب على الأرض ويهمل. والآن، ما الذي يجري فعلاً؟ صباح السبت، يذهب أحد المتدينين في الكيبوتز إلى حظيرة الأبقار ويضع الدلاء تحت البقرة (هذا العمل ليس ممنوعاً في الأدب التلمودي)، ثم يذهب إلى الكنيس ليصلي، فيأتي زميل له معتزماً «بحسن نية» تخفيف معاناة الأبقار بجعل حليبها يسيل على الأرض. فإذا وجد، بالصدفة، دلاءً تحت الأبقار، فهل هو ملزم بإزاحتها؟ بالطبع، لا. ولذلك، يتجاهل الدلاء ويؤدي مهمته الرحيمة ويذهب إلى الكنيس. وختاماً، يأتي ثالث من زملائه المتدينين إلى حظيرة الأبقار ويكتشف، مندهشاً، الدلاء الملأى بالحليب، فيضعها في براد ويلتحق برفاقه في الكنيس. الأمر كله جيد الآن، ولا حاجة لتبديد الأموال لشراء الصباغ الأزرق.

٤ - المحاصيل المختلطة: صدر عن الحاخامين الصهاينة إعفاءات مماثلة بخصوص زرع نوعين من المحصول في الحقل نفسه. (اللاويين ١٩ : ١٩). فقد أظهرت مبادئ الزراعة الحديثة (وخاصة في زراعة الأعلاف) أن الزراعة المختلطة أكثر ربحية في بعض الحالات، فابتدع الحاخامون إعفاء يقوم رجل بموجبه ببذر نوع من الحبوب في الحقل طولياً، فيما يقوم زميل له «لا يعرف ما يفعله» بزرع نوع آخر من البذور في الحقل نفسه، عرضياً. ورغم ذلك، اعتبر هذا الحل هدراً للجهد، فابتدع ما هو أفضل منه. يأتي رجل ويضع كومة من

البذور في مكان عام ويغطيها بكل عناية بكيس أو لوح خشب، ثم يأتي آخر ويضع بذوراً من نوع آخر فوق الغطاء، بعد ذلك، يأتي شخص ثالث ويدعي أمام شهود «أنا بحاجة لهذا الكيس» (أو اللوح الخشبي) ويسحبه فتختلط الحبوب بالطبع. وأخيراً، يأتي شخص رابع، فيقال له: «خذ هذا وازرع الحقل»، فيباشر العمل[١٧].

٥ - المواد المخمرة: ويجب أن لا يأكلها اليهودي أو تبقي في حيازته طوال أيام عيد الفصح السبعة (ثمانية خارج فلسطين). وقد تواصل التوسع في مفهوم المواد المخمرة، وكراهية حتى رؤيتها خلال أيام العيد لدرجة قاربت الهستيريا. وهي تشمل كل أنواع الطحين وحتى الحبوب غير المطحونة. وكان الأمر محتملاً في المجتمع التلمودي الأصلي لأنهم كانوا يخبزون الخبز (مخمراً أو غير مخمر) مرة كل أسبوع. والعائلة الفلاحية تستعمل ما تبقى من حبوب السنة لصنع خبز غير مخمر لأيام العيد التي فيها المحصول الجديد، إلا أن ظروف يهود أوروبا بعد العصر التلمودي، جعلت التقيد به صعباً بالنسبة لعائلات الطبقة الوسطى اليهودية، ولاسيما بالنسبة لتجار القمح. بناء عليه، ابتدع إعفاء يقضي ببيع كل هذه المواد، صورياً، لشخص غير يهودي قبل العيد، وإعادة شرائها منه بعده. الأمر الوحيد الذي يتوجب عمله هو الإقفال على المواد المحرمة خلال فترة العيد. وفي إسرائيل، جعل البيع الصوري أكثر إحكاماً؛ فاليهود المتدينون «يبيعون» ما لديهم من المواد المحرمة إلى الحاخامين المحليين، وهم بدورهم يبيعونها إلى الحاخام الأكبر، وهو يبيعها إلى شخص غير يهودي، ويعتبر هذا البيع شاملاً المواد المحرمة لدى اليهود غير المتدينين.

٦ - غريب السبت: ربما كانت أكثر الإعفاءات إتقاناً هي المتعلقة بأغراب السبت (Goy of Sabbath). فكما ذكر سابقاً، توسعت سلسلة الأعمال المحظورة يوم السبت باستمرار ولكن سلسلة الأعمال التي

يجب القيام بها أو الإشراف عليها لتأمين الاحتياجات والراحة، ما زالت هي الأخرى تتوسع، لاسيما في العصور الحديثة، وقد أخذ الناس يشعرون بآثار التطور التكنولوجي منذ مدة طويلة. وقد كان حظر الطحن يوم السبت مسألة بسيطة لأن الفلاح أو العامل اليهودي، في فلسطين القرن الثاني مثلاً، كان يستعمل الطاحونة اليدوية لأغراض منزلية. ولكن الأمر مختلف بالنسبة لمستأجر الطاحونة المائية أو الهوائية؛ إحدى اكثر المهن شيوعاً بين يهود أوروبا الشرقية. وحتى مسألة إنسانية بسيطة مثل الرغبة في كوب شاي ساخن عصر يوم السبت، تصبح أشد، إذا كان السماور (Samorar) الذي يستعمل لإعداد الشاي خلال الأيام العادية، يتصدر الغرفة. هناك مثلان، من بين عدد كبير جداً مما يدعى «مشاكل التقيد بالسبت». ويمكن للمرء أن يقول موقتاً أن لا حل لها في مجتمع يتألف من اليهود الأرثوذكس حصراً، لاسيما خلال القرون الثمانية أو العشرة الأخيرة، من دون مساعدة من غير اليهود. وهذا يصح أيضاً اليوم في «الدولة اليهودية» لأن العديد من الخدمات العامة مثل الماء والكهرباء والغاز تدخل ضمن هذه الفئة. لم تكن اليهودية الكلاسيكية تستطيع البقاء لمدة أسبوع كامل من دون استخدام غير اليهود.

ولكن، دون بعض الإعفاءات الخاصة عقبات كبرى تحول دون استخدام غير اليهود للقيام بهذه الأعمال يوم السبت، لأن القواعد التلمودية تمنع اليهود أن يطلبوا من غير اليهود، القيام بأي عمل محظور عليهم أن يعملوه بأنفسهم(١٨). وسأصف اثنين من الإعفاءات العديدة المستخدمة لهذه الغاية.

أولًا، هناك أسلوب التلميح المستند إلى منطق التحايل الذي يصبح الطلب الخاطئ بموجبه سليماً إذا صيغ ببراعة. والقاعدة هي أن التلميح يجب أن يكون «غامضاً»، وفي الحالات القصوى يمكن أن يكون

«صريحاً». مثلاً، في كتيب حديث عن الواجبات الدينية أعد للجنود الإسرائيليين، يعلم هؤلاء كيف يحدثون العمال العرب الذين يستخدمهم الجيش الإسرائيلي كغرباء السبت؛ ففي الحالات المستعجلة، مثل شدة البرد والحاجة إلى إيقاد النار أو الإضاءة للقيام بواجب ديني، يستطيع الجندي اليهودي أن يلجأ إلى التلميح الواضح فيقول للعربي: «هذا المكان بارد أو مظلم»[١٩]. أما المعتاد، فهو أن يكون التلميح الغامض كافياً مثل «لو أن المكان أدفأ لكان أفضل». وأسلوب التلميح هذا مخز ومثير للاشمئزاز لأنه يمارس على غير اليهود الذين يخضعون لسلطة صاحب العمل اليهودي خضوعاً مطلقاً بسبب فقرهم أو تدني وضعهم الاجتماعي. والخادم غير اليهودي (أو مستخدم الجيش الإسرائيلي) الذي لا يدرب نفسه على تفسير التلميحات الغامضة كأوامر، يطرد من دون رحمة[٢٠].

الأسلوب الثاني يستخدم في الحالات التي لا يطلب فيها إلى غير اليهودي أن يقوم يوم السبت بعمل غير عادي أو خدمة شخصية، مما يمكن التلميح إليه إذا دعت الحاجة، بل بعمل روتيني أو مهمة منتظمة تؤدى من دون مراقبة يهودية مستمرة. وفق هذا الأسلوب - ويدعى «الشمول الضمني» للسبت بين أيام أسبوع (havla'ah) - يستأجر غير اليهودي للعمل طوال الأسبوع (أو السنة) من دون أي ذكر للسبت في العقد. ولكن العمل لا يؤدى في الواقع إلا يوم السبت. وقد استخدم هذا الأسلوب في الماضي لاستئجار غير اليهود لإضاءة الشموع في الكنس بعد صلاة ليلة السبت (بدل إبقائها وضاءة حتى تحترق). والأمثلة الإسرائيلية الحديثة تشمل: توريد المياه أو حراسة خزانات المياه يوم السبت[٢١].

وتستخدم فكرة أخرى بالنسبة لليهود ولكن لغاية مختلفة؛ اليهود ممنوعون من قبض أي مبلغ لقاء عمل يؤدى يوم السبت، حتى ولو كان مسموحاً به. والمثل الرئيسي هنا هو المهن المقدسة: الحاخام أو العالم

التلمودي الذي يعظ أو يعلم يوم السبت؛ قائد الجوقة الذي ينشد أيام السبت أو الأعياد الدينية؛ القندلفت وأمثاله من الموظفين. وفي العصور التلمودية، لقرون عدة بعد ذلك في بعض البلدان، كانت هذه الوظائف غير مأجورة، وعندما أصبحت مأجورة، في ما بعد، استخدم «الشمول الضمني» وجرى استئجارهم «شهرياً» أو «سنوياً». والمشكلة معقدة بصورة خاصة، بالنسبة للحاخامين وعلماء التلمود، لأن التلمود يمنعهم من قبض أي مبلغ مقابل الوعظ والتعليم أو تدريس الأمور التلمودية حتى في أيام الأسبوع الأخرى[٢٢]. لذلك، ابتدع من أجلهم، إعفاء إضافي يشترط أن لا يكون راتبهم راتباً حقيقياً بل «تعويضاً عن الكسل» (elmey batalah). ونتيجة لدمج هاتين الخدعتين يتحول ما هو في الحقيقة أجر لعمل يؤدى يوم السبت، إلى أجر للكسل خلال أيام الأسبوع الأخرى.

المظاهر الاجتماعية للإعفاءات

ظاهرتان اجتماعيتان، وعدد من الممارسات المماثلة تستحق الذكر بشكل خاص:

أولاً، المظهر البارز لنظام الإعفاءات هذا ولليهودية الكلاسيكية، إلى مدى اعتمادها عليه، هو الخداع - خداع الله أولاً، إذا كان استعمال هذه الكلمة مناسباً بالنسبة لكائن يمكن تخيل انخداعه بسهولة بتصرفات الحاخامين الذين يعتبرون أنفسهم أذكى منه. ولا يمكن تصور تناقض أشد من ذلك القائم بين إله التوراة (وخاصة إله الأنبياء العظام) وإله اليهودية الكلاسيكية؛ فالأخير شديد الشبه بإله روما القديم جوبيتر (Jupiter)، الذي كان يخدعه عابدوه، أو الآلهة التي يصفها فريزر (Frazer)، في «الغصن الذهبي».

تمثل اليهودية الكلاسيكية من الناحية الأخلاقية مساراً انحطاطياً ما زال مستمراً في اتجاه مجموعة الطقوس القبالية الجوفاء والخرافات السحرية، مما أدى إلى نتائج اجتماعية وسياسية هامة جداً، لأنه يجب أن

نتذكر أن خرافات الكلاسيكية اليهودية هذه، ذات تأثير كبير على الجماهير اليهودية، بدلاً من أسفار التوراة أو أجزاء التلمود ذات القيمة الدينية أو الأخلاقية الحقيقية (ويمكن ملاحظة الأمر نفسه في الأديان الأخرى التي تتعرض لنوع من الأحياء). ما الذي يعتبر شعبياً الأمر الأكثر قداسة والمناسبة الأشد وقاراً في السنة الدينية اليهودية والتي يحضرها يهود عديدون بعيدون عن الدين في المجالات الأخرى؟ إنها صلاة كول نيدري (Kol Nidrey)، عشية عيد الغفران (يوم كيبور)، وهي الترتيل الساذج للإعفاءات الخادعة التي تعتبر، مقدماً، كل ما ينذر لله في السنة التالية لاغياً وغير ملزم[٢٣]. وفي مجال الديانة الشخصية، صلاة قادش التي تقال أيام حداد الأبناء على آبائهم ويدعون فيها لرفع أرواح الراحلين إلى الفردوس؛ تلاوة لنص آرامي لا تفهمه الغالبية العظمى. واضح تماماً، أن التقدير الشعبي يعطى لهذه الأجزاء الخرافية من الديانة اليهودية، وليس للأجزاء الأفضل.

ومع خداع الله، يتم خداع اليهود لمصلحة الطبقة اليهودية الحاكمة أولاً. والسمة البارزة هي أنه لم يبتدع أي إعفاء لمصلحة فقراء اليهود. مثلاً، اليهود الذين كانوا يعانون الجوع حتى شارفوا على الموت، لم يسمح لهم الحاخامون (الذين لا يعانون من الجوع في الغالب) بأكل أي طعام محظور، رغم أن الطعام المعد على الطريقة اليهودية (Kosher)، مرتفع الثمن.

المظهر الثاني البارز في هذه الإعفاءات هو أن أغلبها قد صدر، وبكل وضوح، بدافع الربح. وهذا الدمج بين الهرطقة والربح سيطرا باضطراد على اليهودية الكلاسيكية. وفي إسرائيل، يتواصل هذا النهج ويلاحظه الرأي العام بشيء من الغموض، رغم غسيل الدماغ الرسمي الذي يمارس عبر التعليم والإعلام. المؤسسة الدينية - الحاخامون والأحزاب الدينية - ويشاركها إلى حد المجتمع الأرثوذكسي بكامله، لا شعبية لها في إسرائيل، وأحد أهم الأسباب هو فسادها وازدواجيتها

تحديداً. والرأي العام (الذي يمكن أن ينحاز أحياناً) يختلف بالطبع عن التحليل الاجتماعي. ولكن الصحيح فعلاً، وفي هذه الحالة على وجه التحديد، هو أن المؤسسة الدينية تعاني من ميل شديد نحو الاحتيال والابتزاز، نتيجة التأثير المفسد للديانة اليهودية الأرثوذكسية، ولأن الحياة الدينية ذات تأثير محدود على الحياة الاجتماعية العامة، وتأثيرها على جماهير المؤمنين لا يضاهي تأثيرها على الحاخامين وقادة الأحزاب الدينية. واليهود المتدينون الشرفاء في إسرائيل، ولا شك أن الغالبية هم كذلك، ليسوا شرفاء نتيجة لتأثير الديانة والحاخامين عليهم، بل على الرغم منه، ومن جهة أخرى، ففي بعض النواحي القليلة في الحياة العامة الإسرائيلية والتي تسيطر عليها الدوائر الدينية سيطرة كاملة، يرتفع مستوى الخداع والفساد والرشوة إلى درجة بشعة، ويزيد كثيراً عن المستوى المألوف بصورة عامة، والذي قد يتساهل المجتمع غير الديني حياله.

سنرى في الفصل الرابع أن شيوع دافع الربح في اليهودية الكلاسيكية مرتبط ببنية المجتمع اليهودي وعلاقته بالمجتمع العام الذي عاش فيه خلال الحقبة الكلاسيكية. وهنا، أريد أن أبدي أن دافع الربح لم يكن من خصائص الديانة اليهودية في كل تاريخها. والتشويش الأفلاطوني وحده يبحث عن جوهر اليهودية اللازمني والميتافيزيقي، بدل البحث في التغيرات التاريخية التي طرأت على المجتمع اليهودي، والتي غطت على هذه الحقيقة (وهذا التشويش شجعه الصهاينة كثيراً باعتمادهم على الحقوق اللاتاريخية، التي استخلصت لا تاريخياً من التوراة). وهكذا، يزعم المبررون بحق أن يهودية التوراة معادية للربح كدافع، بينما يتساهل التلمود حياله. ولكن هذا نشأ عن الظروف الاجتماعية المختلفة التي ألف كل منهما في ظلها. وكما بينا في ما سبق، فقد ألف التلمود في منطقتين محددتين، خلال فترة كان اليهود فيها يشكلون مجتمعاً زراعياً، قوامه الأساسي من الفلاحين، وهو يختلف تماماً عن مجتمع اليهودية الكلاسيكية.

وسنعالج في الفصل الخامس تفصيلياً، المواقف المعادية والخدع التي تمارسها اليهودية الكلاسيكية ضد غير اليهود. ولكن الأهم هو المظهر الاجتماعي الذي مارسه أغنياء اليهود ضد فقراء اليهود (كالاعفاء المتعلق بالفوائد على القروض). وهنا يتوجب علي أن أقول أنه رغم معارضتي للماركسية كفلسفة وكنظرية اجتماعية، فقد كان ماركس مصيباً عندما وصم اليهودية بأنها تستهدف الربح في مقالين، شريطة أن يقتصر هذا على اليهودية كما عرفها، أي اليهودية الكلاسيكية التي كانت، في شبابه، قد دخلت مرحلة الانحلال. وصحيح أنه قال هذا تعسفاً ومن دون سند تاريخي وحتى بلا إثبات، إلا أن الواضح هو أنه توصل إلى هذه النتيجة بالحدس، وكان الحدس في هذه الحالة - مع التحديد التاريخي المناسب - صائباً.

الإشارات والمراجع

١ - كما في الفصل الأول استعمل تعبير «اليهودية الكلاسيكية» للإشارة إلى اليهودية الحاخامية خلال الفترة من حوالي ٨٠٠م إلى نهاية القرن الثامن عشر. وهذه الفترة تتزامن مع القرون الوسطى اليهودية، ولذلك، استمرت ظروف القرون الوسطى في الجاليات اليهودية لمدة أطول مما حصل في أوروبا الغربية، وبالتحديد حتى الثورة الفرنسية. وهكذا، يمكن اعتبار اليهودية الكلاسيكية، يهودية القرون الوسطى.

٢ - الخروج ٥: ١١.

٣ - الخروج ٢٠: ٣-٦.

٤ - إرميا ١٠، وقد وردت المقولة نفسها ثانية في أشعيا الثاني، ٤٤.

٥ - القبالية بالطبع، عقيدة حصرية ودراستها مقصورة على العلماء. وفي أوروبا، وخاصة بعد ١٧٥٠، اتخذت تدابير مشددة لابقائها سرّيّة ومنع دراستها إلا من قبل علماء كبار تحت رقابة صارمة. ولا تعرف الجماهير اليهودية غير المتعلمة في شرق أوروبا حقيقة القبالية ولكنها ترشح إليهم على شكل خرافات وممارسات سحرية.

٦ - العديد من الصوفيين اليهود المعاصرين يؤمنون بأنه يمكن الوصول إلى النتيجة نفسها وإنجازها بصورة أسرع عن طريق حرب ضد العرب وطرد الفلسطينيين وحتى بإنشاء مستوطنات عديدة في الضفة الغربية. وحركة بناء المعبد الثالث المتنامية القوة تقوم على أفكار مشابهة.

٧ - الكلمة العبرية المستعملة - Yehud تعني حرفياً الاتحاد في مكان منعزل - هي الكلمة نفسها التي تستعمل في النصوص القانونية (في شأن الزواج... إلخ) للإشارة إلى الجماع الجنسي.

٨ - ما يدعى - Qedushah Shlishit - (القداسة الثالثة) مدرجة في صلاة أوفا لتزيون (Wva Letzion) آخر قداس الصباح.

٩ - العدد، ٢٩.

١٠ - سلطة الشيطان وارتباطه بغير اليهود موضحة في تقليد واسع الانتشار، نشأ بتأثير القبالية في جاليات يهودية عديدة في القرن الرابع عشر: المرأة اليهودية العائدة

من حمام الطهارة بعد العادة الشهرية (وبعدها يصبح الجماع الجنسي مع زوجها واجباً)، يجب أن تتجنب ملاقاة أي من المخلوقات الشيطانية الأربعة: غير يهودي، خنزير، كلب، حمار. وإذا لقيت أياً منهم وجب أن تستحم مرة أخرى. وهذا تقليد مدافع عنه في شيڤيت موزار (Shevet Musar) (بين كتب أخرى)، المنشور عام ١٧١٢م، وكان أحد أكثر الكتب شعبية بين اليهود في أوروبا الشرقية والبلدان الإسلامية حتى أوائل القرن الحالي، وما زال يقرأ على نطاق واسع في الأوساط الأرثوذكسية.

١١ - هذا موصوف بالتفصيل الدقيق، مثل طقس عدم غسل اليد تحت حنفية، وكل يد يجب أن تغسل على حدة في ماء من إبريق (محدد حجمه الأدنى) ويمسك باليد الأخرى. فإذا كانت يدا امرئ وسختين فعلاً، غداً غسلهما بهذه الطريقة غير ممكن، ولكن مثل هذه الاعتيادات العملية لا علاقة لها بالأمر. اليهودية الكلاسيكية تسرد تفاصيل العديد من هذه الطقوس التي تعلق عليها القبالية أهمية كبرى. هناك مثلاً، قواعد عديدة ودقيقة تتعلق بالتصرف في المرحاض؛ فاليهودي الذي يتبرز في مكان طلق يجب أن لا يتجه نحو الشمال - جنوب، لأن الشمال مرتبط بالشيطان.

١٢ - «التأويل» هو تعبيري الخاص، لأن اليهودية الكلاسيكية (والأرثوذكسية الحالية) تعتبرها معنى التلمود حتى عندما تخالف المعنى الحرفي.

١٣ - وفق قصة مشكوك في صحتها، لاحظ منشق يهودي مشهور في القرن التاسع عشر، في هذا الخصوص، أن آية «أنت لن تقترف الزنا» مكررة مرتين، لذا يفترض أن المرء ممنوع من أكل الزنا أو طبخه، أما الاستمتاع به فمباح!

١٤ - الكلمة العبرية re'akha مترجمة في نسخة الملك جيمس (ومعظم المترجمين الإنجليز) «جارك» وهذا غير دقيق تماماً. أنظر صموئيل ٢-١٦: ١٧ حيث ترجمها نسخة الملك جيمس بصورة صحيحة «صديقك».

١٥ - الميشناه متحررة من كل هذا بشكل ملحوظ، وبصورة خاصة تقل فيها المعتقدات الخاصة بالعفاريت والسحر. أما التلمود البابلي، من جهة أخرى، فمليء بالخرافات.

١٦ - لنكون دقيقين، في أجزاء عديدة من فلسطين. واضح أن المناطق التي ينطبق عليها القانون هي التي كانت أغلبية سكانها يهودية حوالي ١٥٠-٢٠٠م.

١٧ - ولذلك، يقيم اليهود المتشددون من غير الصهيونيين في إسرائيل محلات خاصة خلال السنة السبتية، تباع فيها الخضروات والفواكه التي ينتجها العرب.

١٨ - في شتاء ١٩٤٥-٤٦ وكنت في الثالثة عشر من عمري، شاركت في مثل هذه الإجراءات. الرجل المسؤول عن العمل الزراعي في المدرسة الدينية الزراعية

التي كنت أدرس فيها كان يهودياً ورعاً بصورة خاصة وارتأى أن الآمن هو أن يقوم بنزع اللوح يتيم دون الثالثة عشر، لا يستطيع أن يكون أو أن يجعل غيره، خاطئاً (الصبي دون الثالث عشرة لا يستطيع أن يكون خاطئاً لأن أباه، إذا كان حياً، يعتبر مسؤولاً). شرح الأمر لي بعناية مسبقاً وبعناية شملت حتى واجبي بأن أقول «أحتاج هذا اللوح» مع أني لم أكن بحاجة إليه في الحقيقة.

١٩ - يحظر التلمود على اليهودي مثلاً أن يفيد من ضوء شمعة أشعلها غير يهودي، ما لم يكن الأخير قد أشعلها لغرض خاص به قبل دخول اليهودي لغرفته.

٢٠ - أحد أعمامي استعمل أسلوباً أذكى في وارسو عام ١٩٣٩. استخدم خادمة غير يهودية تدعى ماريسيا، وكان من عادته عندما يفيق من قيلولة السبت أن يقول، بهدوء أولاً، كم سيكون جميلاً لو أن - ثم يرفع صوته ويصرخ... ماريسيا تحضر كوباً من الشاي. كان ورعاً جداً ويخاف الله ولا يمكن أن يحلم بشرب كوب من الحليب لمدة ست ساعات بعد أكل اللحم. كان في مطبخه مغسلتان، إحداهما لغسل الأطباق المستعملة في أكل اللحم، والأخرى لغسل أطباق الحليب.

٢١ - تحصل بعض الأخطاء المؤسفة من وقت لآخر، لأن بعض هذه المهمات كان سهلاً تماماً، مما يتيح للمستخدمين راحة لمدة ستة أيام في الأسبوع. مدينة بني براك - Bney Braq - (قرب تل أبيب)، يسكنها يهود كلهم، تقريباً، من المتشددين. هزتها عام ١٩٦٠ فضيحة مروعة. عند وفاة خادم السبت الذي استخدموه أكثر من عشرين عاماً لمراقبة توريد المياه يوم السبت، تبين أنه لم يكن مسيحياً بل يهودياً. وهكذا، عندما استأجروا درزياً خلفاً له، طلبت المدينة وثيقة حكومية تشهد بأن المستخدم الجديد ليس يهودياً ومن أصل غير يهودي، وحصلت عليها. ويشاع أنه طلب إلى الشرطة السرية أن تحقق في الموضوع.

٢٢ - على العكس، يمكن تعليم المخطوطات مقابل أجر، وقد اعتبرت هذه وظيفة دنيا، ذات راتب ضئيل.

٢٣ - وطقس هام جداً هو النفخ في الصور يوم روش هاشاناه وهدفه تضليل الشيطان.

الفصل الرابع

سلطان التاريخ

كتب الكثير من اللغو في محاولات لتقديم تفسير اجتماعي أو باطني لليهود أو اليهودية ككل، ولكن هذا غير ممكن لأن البنية الاجتماعية للشعب اليهودي والبنية الإيديولوجية لليهودية تغيرت بعمق عبر العصور، ويمكننا تمييز أربع مراحل رئيسية:

١ - مرحلة الملكيات القديمة في إسرائيل ويهودا حتى تدمير المعبد الأول (٥٨٧ق.م.) والسبي البابلي (معظم العهد القديم يعنى بهذه الفترة، رغم أن معظم أسفار العهد القديم، بما فيها الأسفار الخمسة الأولى، قد ألفت بعد ذلك التاريخ). اجتماعياً، كانت الممالك اليهودية القديمة مشابهة تماماً للممالك المجاورة في فلسطين وسوريا. وقد شمل التشابه - كما تبين دراسة الأنبياء بعناية - المذاهب الدينية التي مارستها غالبية الشعب[1]. أما الأفكار التي أصبحت نموذجية في اليهودية اللاحقة - وخاصة التمييز العرقي والتوحيدية الحصرية - فقد اقتصرت في هذه المرحلة على دوائر صغيرة من الكهنة والأنبياء، الذين كان تأثيرهم يستند إلى الدعم الملكي.

٢ - مرحلة ازدواج المركز في فلسطين ووادي الرافدين، «من العودة من بابل (٥٣٧ق.م.) حتى ٥٠٠م»، وقد اتسمت بوجود هذين المركزين المستقلين للمجتمعات اليهودية القائمة أساساً على الزراعة، واللذين

فرضت عليهما الديانة اليهودية كما أوضحتها دوائر الكتبة والكهنوت، بقوة وسلطة الأمبراطورية الفارسية. ويشتمل سفر عزرا في العهد القديم على سرد لنشاطات عزرا الكاهن «الكاتب المؤهل لشريعة موسى» الذي فوّضه ملك فارس، آرتحششتا الأول، صلاحية «تعيين حكام وقضاة اليهود» في فلسطين. وكل «من لا يأتمر بقانون الله وقانون الملك، يطبق عليه حكم معجل، سواء كان بالإعدام أو النفي أو مصادرة الأملاك أو السجن»[٢]. وفي سفر نحميا - ساقي الملك آرتحششتا الذي عين حاكماً فارسياً ليهودا وبسلطات أقوى - نلحظ القسر الأجنبي (الإمبريالي بلغة اليوم) الذي كان فعالاً في فرض الديانة اليهودية، والنتائج الدائمة التي ترتبت عليه.

خلال معظم هذه الفترة، وفي كلا المركزين، استمر الحكم الذاتي اليهودي، وقمع أي انحراف عن الديانة الأرثوذكسية. والاستثناءات لهذه القاعدة حصلت عندما أصيبت الأرستقراطية الدينية نفسها بعدوى الأفكار الهيللينية (من ٣٠٠-١٦٦ق.م.)، وثانية في عهد هيرود الكبير وخلفائه (٥٠ق.م-٧٠م)، أو انقسمت نتيجة التطورات الجديدة (مثلاً، انقسام الحزبين الكبيرين، الفريسيين والصدوقيين الذي ظهر عام ١٤٠ق.م.). وفي أي حال، ما أن ينتصر حزب منهما حتى يستخدم آليات القمع التي يوفرها الحكم الذاتي اليهودي (أو الاستقلال لفترة قصيرة)، لفرض آرائه الدينية على جميع اليهود في المركزين.

وخلال معظم هذه الفترة، وخاصة بعد انهيار الأمبراطورية الفارسية وحتى ٢٠٠م، كان اليهود خارج المركزين متحررين من الإكراه الديني اليهودي. وبين أوراق البردي المحفوظة في إليفانتين (Elephantine) في مصر العليا، توجد رسالة يعود تاريخها إلى ٤١٩ق.م.، تحتوي على نص أمر من الملك الفارسي داريوس

الثاني إلى يهود مصر يأمرهم بالتقيد بتقاليد الفصح[٣]. ولكن الملكية الهللينية والجمهورية الرومانية والامبراطورية الرومانية القديمة، لم تبال بمثل هذه الأمور. وأتاحت الحرية التي تمتع بها اليهود خارج فلسطين لهم فرصة كتابة أدب يهودي باللغة اليونانية وقد رفضته اليهودية بكامله في ما بعد، وبقاياه حفظتها المسيحية[٤]، التي كان ظهورها ذاته ممكناً بسبب هذه الحرية النسبية التي نعمت بها الجاليات اليهودية خارج المركزين. وتجربه بولس الرسول هامة. ففي كورنثيا، عندما اتهمت الجالية اليهودية بولس بالهرطقة، رد الحاكم الروماني غاليو (Galio) الدعوى على الفور، لأنه رفض أن يقضي في مثل هذه الأمور[٥]. ولكن حاكم يهودا، فيستوس (Festus)، شعر بأنه ملزم بأن يعترف قانونياً بأن النزاع ديني يهودي محض[٦].

هذا التسامح انتهى حوالي ٢٠٠م، عندما فرضت الأمبراطورية الرومانية الديانة اليهودية، كما تطورت وشرحت في فلسطين، على كل يهود الأمبراطورية[٧].

٣ - الفترة التي عرفناها بأنها حقبة اليهودية الكلاسيكية وستبحث في ما يلي.

٤ - الفترة الحديثة وتتسم بانهيار المجتمع اليهودي الشمولي ومحاولات إعادة فرضه، وأهمها الصهيونية. وتبدأ هذه الفترة في هولندا في القرن السابع عشر، وفي فرنسا والنمسا (باستثناء هنغاريا) أواخر القرن الثامن عشر، وفي بعض البلدان الإسلامية في القرن العشرين (يهود اليمن كانوا لا يزالون يعيشون في مرحلة القرون الوسطى حتى عام ١٩٤٨م). وسنقول شيئاً عن هذه التطورات في ما بعد.

بين المرحلتين الثانية والثالثة، أي اليهودية الكلاسيكية، فجوة دامت بضعة قرون ومعلوماتنا عن اليهود والمجتمع اليهودي خلالها طفيفة جداً، والقليل المتوفر لدينا مستقى من مصادر خارجية (غير يهودية).

ولم توجد في البلدان اللاتينية المسيحية أي سجلات للأدب اليهودي حتى منتصف القرن العاشر. والمعلومات اليهودية الداخلية، وغالبها من الأدب الديني، أصبحت متوفرة بكثرة في القرن الحادي عشر وتزايدت في القرن الثاني عشر. قبل ذلك، نعتمد اعتماداً كلياً على المصادر الرومانية، ثم المسيحية. ولم تكن فجوة المعلومات بهذا الاتساع في البلدان الإسلامية، ورغم ذلك، فما نعرفه عن المجتمع اليهودي قبل ٨٠٠م، وعن التطورات التي طرأت خلال القرون الثلاثة السابقة، قليل.

السمات الرئيسية لليهودية الكلاسيكية

دعونا لذلك، نتجاهل «عصور الظلمات»، ونبدأ بالقرنين ١٠٠٠-١٢٠٠م لأن معلومات كثيرة تتوفر من مصادر داخلية وخارجية، حول اليهود في المراكز وفي الشرق والغرب. وقد تعرضت اليهودية الكلاسيكية التي يمكن تمييزها بوضوح في هذه الفترة لتغيرات قليلة جداً منذ ذلك الوقت و(تحت قناع اليهودية الأرثوذكسية) ما زالت قوة نافذة حتى اليوم.

كيف يمكن وصف تلك اليهودية الكلاسيكية، وما هي الفروقات الاجتماعية التي تميزها عن يهودية الفترات السابقة؟ أعتقد أن هناك ثلاثة مظاهر رئيسية:

١ - المجتمع اليهودي الكلاسيكي كان بدون فلاحين وهو بهذا يختلف جذرياً عن اليهودية القديمة في المركزين: فلسطين ووادي الرافدين. ويصعب علينا، في الوقت الحاضر، أن نفهم معنى هذا، إذ علينا أن نبذل جهداً لتصور حقيقة نظام القنانة، والفرق الكبير في الأمية والتعليم بين القرية والمدينة طوال تلك الفترة، والحرية الواسعة بما لا يقاس التي تمتعت بها الأقلية الصغيرة من غير الفلاحين، لندرك أنه خلال الفترة الكلاسيكية بكاملها، ورغم كل الاضطهاد الذي تعرضوا له، شكلوا جزءاً لا يتجزأ من الطبقات ذات الامتياز.

والتأريخ اليهودي، لاسيما المكتوب بالإنجليزية، مضلل حول هذه النقطة لأنه يميل إلى التركيز على فقر اليهود والتمييز ضدهم. وإذا كان كلاهما صحيحاً لبعض الوقت، فإن الحرفيين اليهود الأفقر مثل البائع المتجول وخادم صاحب الأرض، والكاتب الصغير، كانوا أفضل حالاً بما لا يقاس، من القن (Serf). وهذا يصح بصورة خاصة في البلدان الأوروبية التي استمرت فيها القنانة حتى القرن التاسع عشر، سواء بشكلها الجزئي أو المتطرف: بروسيا، النمسا (بما في ذلك هنغاريا)، بولندا أو الأراضي البولندية التي أخذتها روسيا. ومن المهم أن نلاحظ أنه حتى بداية الهجرة اليهودية الكبرى في العصور الحديثة (حوالي ١٨٨٠م.)، كانت المهمة الاجتماعية الأهم لغالبية اليهود الذين يعيشون في تلك المناطق، هي التوسط لقمع الفلاحين، بالنيابة عن النبلاء والتاج.

وفي كل مكان تقريباً، أثارت اليهودية الكلاسيكية كرهاً واحتقاراً للزراعة كمهنة وللفلاحين كطبقة، وأشد من ذلك لغير اليهود؛ كراهية لا علم لي بما يضاهيها في مجتمعات أخرى. وهذا ظاهر فوراً لأي شخص ملم بأدب اليديش أو العبرية في القرنين التاسع عشر والعشرين[٨].

معظم الاشتراكيين اليهود في أوروبا الشرقية (أي أعضاء الأحزاب والفئات اليهودية جميعهم أو غالبيتهم)، مذنبون لعدم إشارتهم إلى هذه النقطة، وبعضهم وصم هو نفسه لمواقفه المعادية للفلاحين والتي ورثها عن اليهودية الكلاسيكية. وبالطبع، كان الاشتراكيون «الصهاينة» الأسوأ في هذا المجال، ولكن الآخرين مثل البوند (Bund)، لم يكونوا أفضل بكثير. والمثل التقليدي هو معارضتهم لتشكيل تعاونيات فلاحية يدعمها الكهنة الكاثوليك، على أساس أن ذلك يعتبر عملاً لاسامياً. وهذا الموقف لم يختف حتى الآن، إذ يمكننا أن نلاحظ بوضوح آراء عنصرية لدى عديد من المنشقين اليهود

في الاتحاد السوفياتي، حيال الشعب الروسي، إلى جانب استنكاف العديد من الاشتراكيين اليهود عن بحث هذه الخلفية، مثل إسحق دويتشر (Isaac Deutscher). ومجمل الدعاية العنصرية حول التفوق المفترض للأخلاقية والعبقرية اليهودية (وقد برز فيها عدد من الاشتراكيين اليهود) موسومة بفقدان الحساسية تجاه معاناة القسم الأكبر من البشرية والذين اضطهدوا خلال آلاف السنين، أقصد الفلاحين.

٢ - المجتمع اليهودي الكلاسيكي كان يعتمد بصورة خاصة على الملوك أو النبلاء ذوي السلطات الملكية. وفي الفصل التالي سنبحث مختلف القوانين اليهودية الموجهة ضد غير اليهود، وخاصة القوانين التي تأمر اليهود بلعن غير اليهود والاحجام عن مدحهم أو مدح تقاليدهم. وهناك قوانين تسمح باستثناء واحد فقط هو: ملك غير يهودي أو زعيم محلي ذو مكانة (بالعبرية باريتز Paretz، وباليديشية بوريتز Poorets)؛ فالملك يمدح ويصلى من أجله ويطاع، لا في معظم المسائل المدنية فحسب، بل وفي بعض الأمور الدينية. كما سنرى أن الأطباء اليهود، الذين هم ممنوعون، بصورة عامة، من إنقاذ حياة غير اليهودي يوم السبت، يؤمرون ببذل أقصى جهدهم لشفاء الزعماء والحكام، وهذا يفسر جزئياً لماذا استخدم الملوك والنبلاء والبابوات والأساقفة أطباء يهود، وأطباء فقط. وجباة الضرائب والمكوس اليهود أو وكلاء المزارع (في أوروبا الشرقية) يمكن الاعتماد عليهم لأنهم يبذلون أقصى جهدهم في خدمة الملك أو البارون، بطريقة لا يقوم بها المسيحيون دوماً.

الوضع القانوني للجالية اليهودية في الفترة الكلاسيكية، يستند عادة إلى «امتياز» - صك صادر عن الملك أو الأمير (أو نبيل متنفذ في بولندا بعد القرن السادس عشر)، يمنح الجالية اليهودية حكماً ذاتياً - أي تفويض الحاخامين صلاحية أمر اليهود الآخرين. والجزء الأهم

من الامتياز، ويعود ذلك إلى أواخر فترة الامبراطورية الرومانية، هو حق إقامة مزارع يهودية دينية، تشبه تماماً ما كان يصرح به للكهنة المسيحيين في القرون الوسطى، معفاة من دفع الضرائب للملك، ومسموح لها بفرض الضرائب على الشعب الذي يخضع لها - اليهود - لمصلحتها هي. ومثير للاهتمام أن نلاحظ أن هذا الاتفاق بين الأمبراطورية الرومانية والحاخامين يسبق الامتيازات التي منحها قسطنطين الكبير وخلفاؤه للكهنوت المسيحي، بما لا يقل عن مئة عام.

اعتباراً من حوالي ٢٠٠م وحتى أوائل القرن الخامس، كان الوضع القانوني لليهود في الأمبراطورية الرومانية كما يلي: بطريرك يهودي وراثي (مقيم في طبريا في فلسطين)، معترف به كصاحب مقام رفيع في التراتب الرسمي، هو الرئيس الأعلى لكل اليهود في الأمبراطورية(٩)؛ وكموظف رسمي روماني، كان البطريرك رفيع المقام، ومن الطبقة الرسمية نفسها التي تضم القناصل وكبار القادة العسكريين وكبار الوزراء المحيطين بالعرش (المجمع المقدس)، ولا يعلوه رتبة سوى العائلة الأمبراطورية. واقعياً، كان البطريرك الشهير (كما كان يوصف في المراسيم الأمبراطورية دوماً) أعلى رتبة من الحاكم الإقليمي لفلسطين. وقد أعدم الأمبراطور ثيودوسيوس الأول - المسيحي المتشدد الورع - حاكم فلسطين لأنه أهان البطريرك.

وفي الوقت نفسه، كان كل الحاخامين - الذين يعينهم البطريرك - متحررين من الضرائب الرومانية الباهظة ويتمتعون بامتيازات رسمية مثل الإعفاء من الخدمة في مجلس المدينة (الذي كان أحد الامتيازات التي منحت فيما بعد للكهنوت المسيحي). وفضلاً عن ذلك، كان البطريرك يملك صلاحية فرض الضرائب على اليهود وتأديبهم بفرض الغرامات والجلد وغير ذلك من العقوبات، وقد استخدم هذه السلطة لقمع البدع اليهودية (كما نعرف من التلمود) واضطهاد الوعاظ اليهود

الذين اتهموه بفرض الضرائب لمصلحته الشخصية.

ونعلم من المصادر اليهودية أن الحاخامين الذين أعفوا من الضرائب استخدموا الحرمان وغيره من الوسائل التي تدخل ضمن نطاق سلطتهم لدعم سيطرة البطريرك الدينية. ونسمع أيضاً، بصورة مداورة في الغالب، عن الكره والاحتقار الذي يكنه الفلاحون وفقراء المدن اليهود في فلسطين للحاخامين، واحتقار الحاخامين لليهود الفقراء (يعبر عنه عادة كاحتقار للجهلة). ورغم ذلك، استمر هذا الترتيب الاستعماري لأنه كان مدعوماً بقوة الأمبراطورية الرومانية.

أوجدت ترتيبات مماثلة ضمن كل بلد، طوال فترة اليهودية الكلاسيكية، أما آثارها الاجتماعية على الجاليات اليهودية فقد اختلفت باختلاف حجم الجالية، فحيثما كان اليهود قليلي العدد، كان التمييز الاجتماعي، في العادة، ضئيلاً ضمن الجالية التي تألفت في الغالب من يهود أغنياء ومن الطبقة الوسطى، وحظي معظمهم بثقافة حاخامية، تلمودية جيدة. أما في البلدان التي يكثر فيها اليهود وتظهر بينهم طبقة فقيرة، فقد كشف الانقسام الذي وصفناه في ما سبق عن نفسه، ونلاحظ أن طبقة الحاخامين كانت تتحالف مع الأغنياء لقمع الفقراء لمصلحتها ومصلحة الدولة - أي التاج والنبلاء.

هكذا كان الوضع في بولندا قبل ١٧٩٥، وسنوجز الظروف الخاصة ليهود بولندا في ما بعد، وهنا، أود أن أبين أنه بسبب تشكل جالية يهودية كبيرة في ذلك البلد، حصل انقسام حاد بين الطبقات اليهودية العليا (الحاخامات والأغنياء) والجماهير اليهودية منذ القرن الثامن عشر وتواصل طوال القرن التاسع عشر. وطالما كان للجالية اليهودية سلطة على أعضائها، كانت ثورات الفقراء الذين يتحملون وطأة الضرائب، تقمع بقوة الحكم الذاتي اليهودي والعقوبات الدينية.

لكل هذا، وطوال الفترة الكلاسيكية (وفي العصور الحديثة)، كان الحاخامون أشد إخلاصاً، كي لا نقول تطرفاً، في دعم السلطة

القائمة. وكلما كان النظام أكثر رجعية، كان الدعم الحاخامي له أشد.

٣ - مجتمع اليهودية الكلاسيكية كان على تعارض كلي مع المجتمع غير اليهودي المحيط به، باستثناء الملك (أو النبلاء عندما يتولون السلطة). وسنشرح هذا بشكل واف في الفصل الخامس.

نتائج هذه المظاهر الاجتماعية الثلاثة، إذا أخذت معاً، تشرح تاريخ الجاليات اليهودية الكلاسيكية في البلدان المسيحية والإسلامية، إلى حد كبير.

ويصبح وضع اليهود أفضل بصورة خاصة في ظل النظم القوية التي حافظت على الطابع الإقطاعي، والتي لم يبدأ الوعي القومي بالظهور فيها ولو بأدنى مستوياته. وكان أفضل من ذلك في بعض البلدان، مثل بولندا قبل ١٧٩٥م، وممالك إيبيريا (Iberia) قبل النصف الثاني من القرن الخامس عشر، حيث تأخر نشوء الملكية القومية الاقطاعية القوية. وفي الواقع، كانت اليهودية الكلاسيكية تنتعش في ظل الأنظمة القوية المنفصلة عن معظم طبقات المجتمع، ففي مثل هذه الأنظمة، يقوم اليهود بدور الطبقة الوسطى؛ ولكن بشكل اتكالي على الدوام. ولهذا السبب عارضهم لا الفلاحون فحسب (الذين تكون معارضتهم غير مهمة إلا عرضياً وفي الثورات الشعبية النادرة)، بل والطبقة الوسطى غير اليهودية (التي كانت صاعدة في أوروبا)، وهذا هو الأهم، والجناح الشعبي من الكهنوت، في الوقت الذي تحميهم طبقة الكهنوت العليا والنبلاء. أما في البلدان التي ضبطت فيها الفوضى الإقطاعية ودخل النبلاء في شراكة مع الملك (وقسم من البورجوازية في الأقل) لحكم الدولة التي تفترض شكلاً قومياً أو شبه قومي، فقد كان وضع اليهود يتدهور.

النسق العام الذي يصح بالنسبة للدول الإسلامية والمسيحية، سنوضحه بإيجاز في الأمثلة التالية.

إنجلترا وفرنسا وإيطاليا

بالنظر لأن فترة الإقامة اليهودية الأولى في إنجلترا قصيرة جداً، وتزامنت مع تطور الملكية الإقطاعية القومية الإنجليزية، يمكن أن يكون هذا البلد أفضل مثل للمشروع المذكور سابقاً. فقد جلب اليهود إلى إنجلترا وليام الفاتح، كجزء من الطبقة النورماندية الحاكمة التي تتكلم الفرنسية، ومهمتها الأولى منح القروض لأولئك النبلاء الروحيين والزمنيين لأنهم لا يستطيعون أداء التزاماتهم الإقطاعية بدون ذلك (وقد كانت في إنجلترا باهظة وتجبى بكل صرامة في تلك الفترة، خلافاً لأي ملكية أوروبية أخرى). وحاميهم الأكبر كان هنري الثاني، وشكل صدور الماغنا كارتا (Magna Carta) - الوثيقة العظمى - بداية تدهور وضعهم، وقد تواصل ذلك خلال صراع البارونات مع هنري الثالث. وتزامن الحل المؤقت لهذا النزاع في عهد إدوارد الأول وتشكيل البرلمان وتحديد الضرائب مع طرد اليهود.

وبالمثل، انتعش اليهود في فرنسا خلال فترة تشكل الإمارات الإقطاعية القوية، بما في ذلك المقاطعة الملكية، في القرنين الحادي والثاني عشر، وأفضل حماتهم بين الملوك الكابيتان (Capetian) هو لويس السابع (١١٣٧-١١٨٠م)، رغم كونه مسيحياً مخلصاً وورعاً؛ ففي ذلك الوقت، اعتبر اليهود أنفسهم من الفرسان (باراشيم Parachim بالعبرية)، والشخصية اليهودية القائدة في فرنسا كانت الحاخام تام (Tam)، لكنهم ظلوا حذرين من أن يقبلوا دعوة أي سيد إقطاعي للإقامة في مقاطعته ما لم يمنحوا امتيازات كتلك التي تمنح للفرسان الآخرين. وبدأ تدهور وضعهم مع فيليب الثاني (أغسطس)، منشئ التحالف السياسي والعسكري بين التاج والحركة الشعبية الناشئة، ووصل ذروته مع فيليب الرابع (الوسيم)، الذي جمع مجلس الإقطاعيات العام لكل فرنسا، كي يضمن دعمهم ضد البابا. وارتبط الطرد النهائي لليهود من فرنسا ارتباطاً وثيقاً بحصر صلاحية فرض الضرائب بالملك واتسام الملكية بالطابع القومي.

ويمكن إيراد أمثلة أخرى من دول أوروبية أخرى عاش فيها اليهود في الفترة نفسها. وبالاحتفاظ بإسبانيا المسيحية وبولندا لمزيد من البحث، نلاحظ أن إيطاليا، حيث كانت مدن عديدة جمهورية، شهدت المسار نفسه، انتعش اليهود، بصورة خاصة، في الدول البابوية والمملكتين الإقطاعيتين التوأمين في صقلية ونابولي (حتى طردهم بأوامر إسبانية حوالي ١٥٠٠م)، والجيوب الإقطاعية في بيدمونت. أما في المدن التجارية المستقلة الكبرى مثل فلورنسا، فقد بقي عدد اليهود قليلاً ودورهم الاجتماعي غير ذي أهمية.

العالم الإسلامي

وينطبق المسار العام على الجاليات اليهودية في البلدان الإسلامية خلال الفترة الكلاسيكية، غير أن مسألة طرد اليهود لم تكن معروفة هناك، لأنها تخالف الشريعة الإسلامية (القانون الكنسي الكاثوليكي، من جهة أخرى، لم يكن يمنع طرد اليهود أو يأمر به).

انتعشت الجاليات اليهودية، في ما عرف خطأ من وجهة نظر اجتماعية، بالعصر الذهبي اليهودي في البلدان الإسلامية، وبصورة خاصة في ظل الأنظمة المنفصلة عن غالبية الشعوب التي تحكمها والتي كانت سلطتها تستند إلى القوة وجيش من المرتزقة. والمثل الأفضل هو إسبانيا المسلمة، حيث يبدأ العصر الذهبي اليهودي الحقيقي (الشعر العبري والقواعد والفلسفة. . . إلخ) مع سقوط الخلافة الأموية في إسبانيا بعد موت الحاكم الفعلي (De facto)، المنصور عام ١٠٠٢م، ونشوء دول الطوائف العديدة على أساس القوة العارية. وبروز القائد العام اليهودي المشهور وأول رئيس وزراء في مملكة غرناطة، صموئيل الرئيس (شمويل هنيقاد Shmu'el Hannigad المتوفى عام ١٠٥٦م)، والذي كان أحد أعظم شعراء العبرية في كل العصور كان قائماً على أساس كون المملكة التي خدمها، دولة طغيان تحكمها قوة عسكرية بربرية صغيرة متسلطة على

السكان الذين يتكلمون العربية. ونشأت أوضاع مماثلة في دول الطوائف العربية الأخرى في إسبانيا. وقد تدهور وضع اليهود قليلاً مع قيام النظام المرادي (١٠٨٦-٩٠)، وأصبح متقلقلاً في ظل الحكم المهدي القومي الشعبي (بعد ١١٤٧)، ونتيجة للاضطهاد هاجر اليهود إلى إسبانيا المسيحية، حيث كانت سلطة الملوك ما زالت ضعيفة.

ويمكن إبداء ملاحظات مماثلة في خصوص الدول الإسلامية في الشرق؛ الدولة الأولى التي وصلت فيها الجالية اليهودية إلى وضع مارست فيه نفوذاً سياسياً هاماً هي الأمبراطورية الفاطمية، وخاصة بعد فتح مصر عام ٩٦٩م، لأنها قامت على أساس حكم الأقلية الاسماعيلية الشيعية. ويمكن ملاحظة الظاهرة نفسها في الدول السلجوقية المستندة إلى جيوش إقطاعية الطابع والمرتزقة، ثم العبيد (المماليك)، وفي الدول التي خلفتها. ولم يكن تأييد صلاح الدين للجالية اليهودية في مصر أولاً، ثم في الأجزاء الأخرى من الامبراطورية، بسبب صفاته الشخصية من تسامح وحب للخير وحكمة دينية عميقة، بل لأنه وصل إلى السلطة كقائد ثوري لمرتزقة وصلوا حديثاً إلى مصر، وكمغتصب للسلطة من السلالة التي خدمها هو وأبوه وعمه من قبله.

ربما كان أفضل مثل إسلامي هو الدولة التي كان وضع اليهود فيها أفضل من وضعهم في أي مكان آخر منذ سقوط الامبراطورية الفارسية: الامبراطورية العثمانية، وخاصة في أوجها في القرن السادس عشر(١٠). كما هو معروف جيداً، قام النظام العثماني مبدئياً على إقصاء الأتراك أنفسهم (كي لا نذكر المسلمين بالولادة الآخرين) عن مراكز السلطة السياسية وأهم أقسام الجيش، الفرق الانكشارية، التي كان السلطان يعهد بها إلى العبيد المولودين مسيحيين وخطفوا في طفولتهم ليربوا في مدارس خاصة. ولم يكن ممكناً حتى نهاية القرن السادس عشر لأي تركي ولد حراً أن يصبح انكشارياً أو أن يتولى وظيفة حكومية هامة. وفي مثل هذا النظام، كان وضع اليهود في مجالهم، مماثلاً لوضع الانكشاريين، في

مجالهم. وهكذا كان وضع اليهود في أفضل أحواله عندما كان النظام منفصلاً عن الشعوب التي يحكمها، ومع قبول الأتراك أنفسهم (وبعض المسلمين الآخرين، قبل الألبانيين) ضمن الطبقة الحاكمة في الامبراطورية العثمانية، أخذ وضع اليهود بالتدهور. ولكن هذا التدهور لم يكن حاداً بسبب استمرار الطابع التعسفي اللاقومي للنظام العثماني.

هذه النقطة هامة جداً في رأيي، لأن وضع اليهود الجيد نسبياً في ظل الإسلام عموماً وبعض الأنظمة الإسلامية خصوصاً، يثيره الفلسطينيون والدعائيون العرب الآخرون بأسلوب يدل على الجهل، وإن بحسن نية. أولاً، هم يعممون ويحيلون المسائل السياسية والتاريخية إلى مجرد شعارات. ولو فرضنا أن وضع اليهود، بالمعدل، كان أفضل بكثير في ظل الإسلام منه في ظل المسيحية، فإن السؤال الهام هو في ظل أية أنظمة كان أفضل أو أسوأ؟ لقد رأينا إلى أين يقودنا هذا التحليل.

ولكن الأمر الثاني والأكثر أهمية هو أنه في الدول ما قبل الحديثة، كان الوضع «الأفضل» للجالية اليهودية، يستتبع درجة أشد من طغيان الحاخامات ضد اليهود الآخرين في الجالية نفسها. لنعط مثلاً واحداً. بالتأكيد، كانت شخصية صلاح الدين، في عصره، تبعث على الاحترام العميق. ولكن مع هذا الاحترام، أنا لا أستطيع أن أنسى أن الامتيازات الزائدة التي منحها للجالية اليهودية وتعيينه بن ميمون رئيساً (Nagid) لها، أدى على الفور إلى اضطهاد ديني حاد مارسه الحاخامون ضد اليهود «الخطأة»؛ مثلاً: «الكهان» اليهود (المفترض تحدرهم من الكهنة القدامى الذين خدموا في الهيكل) ممنوعون من زواج لا البغايا فحسب[11]، بل والمطلقات. وهذا الحظر الأخير الذي سبب بعض الصعوبات خولف خلال الفوضى التي سادت في ظل الحكام الفاطميين (حوالي ١١٣٠-٨٠)، من قبل كهنة تزوجوا خلافاً للقانون اليهودي من مطلقات يهوديات في المحاكم الشرعية الإسلامية (التي تملك اسمياً صلاحية عقد زواج غير المسلمين). والتسامح الكبير الذي أبداه صلاح الدين تجاه اليهود عند

تسلمه السلطة، مكن بن ميمون من إصدار أمر للمحاكم الدينية (الحاخامية) في مصر، للقبض على جميع اليهود الذين عقدوا مثل هذه الزواجات الممنوعة وجلدهم حتى «يوافقوا» على تطليق زوجاتهم(١٢). وبالمثل، في الأمبراطورية العثمانية، كانت سلطات المحاكم الدينية واسعة جداً وبالتالي أكثر أذى. بناء عليه، يجب أن لا يعتبر وضع اليهود في البلاد الإسلامية في الماضي، حجة سياسية في ما يتعلق بالحاضر والمستقبل.

إسبانيا المسيحية

تركت إلى آخر البحث، بلدين كان وضع الجالية فيهما والتطور الذاتي للكلاسيكية اليهودية أكثر أهمية: إسبانيا المسيحية(١٣) (أو بالأحرى شبه جزيرة إيبيريا، بما في ذلك البرتغال)، وبولندا قبل ١٧٩٥م.

سياسياً، كان وضع اليهود في ممالك إسبانيا المسيحية أفضل ما حصل عليه اليهود في أي بلد (باستثناء حكم بعض الطوائف في ظل الفاطميين) قبل القرن التاسع عشر، فقد عمل عديدون كخازن عام لدى ملوك قشتاله، وجباة ضرائب عموميون وإقليميون ودبلوماسيون (يمثلون الملك في البلاطات الأجنبية، الإسلامية والمسيحية، حتى خارج إسبانيا)، ورجال حاشية ومستشارون ونبلاء كبار. ولم يحصل في أي بلد آخر، عدا بولندا، أن حصلت الجالية اليهودية على صلاحيات قانونية واسعة على اليهود، أو استخدمتها على هذا النطاق العام الواسع، بما في ذلك صلاحية الحكم بالإعدام. ومنذ القرن الحادي عشر، كان اضطهاد الكاريت (Karaites) - القرائين - وهم طائفة يهودية منشقة - بجلدهم حتى الموت إذا لم يتوبوا، شائعاً في قشتالة. والنساء اليهوديات اللواتي يعايشن غير اليهود، كانت تجدع أنوفهن كي «يفقدن جمالهن»، كما يقول الحاخامون. واليهود الذين يتواقحون ويهاجمون قاضياً حاخاماً، كانت تقطع أيديهم. وكان الزناة يسجنون بعد التشهير بهم في الحي اليهودي.

أما في النزاعات الدينية فقد كانت تقطع ألسنة الذين يعتبرون هراطقة.

تاريخياً، كان هذا مرتبطاً بالفوضى الإقطاعية ومحاولة بعض الملوك «الأقوياء» أن يحكموا بالاستناد إلى القوة وحدها، متجاهلين المؤسسات البرلمانية والكورتيز (Cortes) الذي كان قد وجد. وفي هذا الصراع، كانت لا قوة اليهود السياسية والمالية فحسب، بل وقوتهم العسكرية (في الأقل في مملكة قشتالة) مهمة. ومثل واحد يكفي: سوء الحكم الإقطاعي والنفوذ السياسي لليهود في قشتالة، وصلا ذروتهما إبان حكم بدرو (Pedro) الأول الذي لقب بحق «القاسي»، حيث خدمت الجاليات اليهودية في طليطلة وبورغو ومدناً أخرى عدة عملياً كحاميات عسكرية له خلال الحرب الأهلية التي نشبت بينه وبين أخيه غير الشقيق، هنري التراسماري (Henry of Trasmara)، الذي سمي بعد انتصاره، هنري الثاني (١٣٦٩-٧٩م)[١٤]. وبدرو الأول نفسه، أعطى اليهود في قشتالة حق إنشاء محكمة تفتيش يهودية تحقق مع اليهود المنحرفين دينياً في كل بلد، قبل مئة سنة من إنشاء محاكم التفتيش المقدسة الكاثوليكية، الأكثر شهرة.

وكما في البلدان الأوروبية الأخرى، ترافق ذلك مع التفاف الوعي القومي تدريجياً حول الملكية التي ابتدأت بملوك آل تراستمارا (Trastamara). ووصل ذروته، بعد صعود ونزول مرات عدة، إبان حكم الملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا، منذ بدايته، ثم مع تدهور وضع اليهود، وانفجار الضغط والتحرك الشعبي ضدهم، وأخيراً طردهم. ولم يدافع عن اليهود سوى النبلاء وكبار الكهنة. أما المعادون لهم فقد كانوا كهنة الكنائس العادية وخاصة الأخويات ذات العلاقة بحياة الطبقات الدنيا. وأعدى أعداء اليهود هما توركيومادا (Torquemada) والكاردينال زيمنيز (Ximenes) اللذين كانا إصلاحيين عظيمين في الكنيسة الإسبانية وقد جعلاها أقل فساداً بكثير وأكثر اعتماداً على الملكية، بدل أن تبقى رديفاً للارستقراطية الإقطاعية.

بولندا

بولندا قبل ١٧٩٥ - جمهورية إقطاعية ذات ملك منتخب - مثل معاكس، يوضح كيف كان وضع اليهود ذا أهمية اجتماعية قبل ظهور الدولة الحديثة، وكيف كان استقلالهم الذاتي في ذروته في ظل نظام متخلف تماماً إلى درجة الانحلال الكامل.

لأسباب عدة، تأخرت بولندا في تطورها وراء بعض البلدان، مثل إنجلترا وفرنسا، وقامت فيها ملكية قوية إقطاعية الطراز - بدون أي مؤسسات برلمانية - في القرن الرابع عشر وخاصة تحت حكم كاسيمير الكبير (Casimir) (١٣٣٣-٧٠). وبعد وفاته مباشرة، أدى تغير السلالات الحاكمة وعوامل أخرى إلى تطور سريع في قوة النبلاء النافذين، ثم صغار النبلاء أيضاً. وبحلول ١٥٧٢م، وصل مسار تحويل الملك إلى رأس شكلي، وحرمان كل الإقطاعيين غير النبلاء من كل سلطة سياسية، درجة الكمال. وخلال القرنين التاليين، أدى فقدان الحكومة إلى فوضى مسلم بها، حتى أن القرار القضائي في قضية تتعلق بأحد النبلاء كان مجرد إذن قانوني لشن حرب ضده لتنفيذه (إذ لم يكن هناك أي طريقة أخرى). وأدى النزاع بين العائلات الإقطاعية الكبيرة، في القرن الثامن عشر، إلى استخدام جيوش خاصة تجاوز عديدها عشرات الآلاف، أي أكبر بكثير من جيش الجمهورية الرسمي.

رافق هذا المسار تدهور في وضع الفلاحين البولنديين (الذين كانوا أحراراً في القرون الوسطى الأولى)، إلى درجة القنانة الكاملة التي يصعب تمييزها عن العبودية، وبالتأكيد هي أسوأ ما عرفته أوروبا. ورغبة النبلاء في الدول المجاورة في ممارسة سلطة النبيل البولندي (Pan) على فلاحيه (بما في ذلك سلطة الحياة والموت من دون أي حق في الاستئناف)، كانت عاملاً أساسياً في التوسع الإقليمي البولندي. وكان الوضع في أراضي بولندا الشرقية (روسيا البيضاء وأوكرانيا) - المستعمرة والمستوطنة

بفلاحين أخضعوا لنظام القنانة حديثاً - الأسوأ[١٥].

كان عدد قليل من اليهود (ولو في مراكز هامة) قد عاشوا في بولندا منذ إنشاء الدولة البولندية. والهجرة الكبيرة إلى ذلك البلد، بدأت في القرن الثالث عشر وتزايدت إبان حكم كاسيمير الكبير، عندما تدهور وضع اليهود في أوروبا الغربية أولاً والوسطى ثانياً. والمعلومات المتوفرة عن يهود بولندا في تلك الفترة ليست وفيرة. ولكن مع تدهور الملكية في القرن السادس عشر - لاسيما إبان حكم سيسموند الأول (١٥٠٦-٤٨) وسيسموند أغسطس الثاني (١٥٤٨-٧٢) - اندفع يهود بولندا في البروز الاجتماعي والسياسي الذي واكبه، كالعادة، درجة كبيرة من الاستقلال الذاتي. وفي هذا الوقت بالذات منح يهود بولندا امتيازات كبرى، ذروتها تأليف لجنة الأقاليم الأربعة المشهورة، وهي جهاز حكم ذاتي نافذ تشمل صلاحيته كل اليهود في أقسام بولندا الأربعة. وكانت إحدى مهامها العديدة، جباية الضرائب من اليهود في كل البلاد والاحتفاظ بجزء منها لنفسها وللجاليات اليهودية المحلية، ودفع الباقي لخزينة الدولة.

ماذا كان الدور الاجتماعي ليهود بولندا منذ بداية القرن السادس عشر وحتى ١٧٩٥م؟ ما أن تقلصت سلطة الملك حتى سارع النبلاء إلى أخذ دوره في ما يتعلق باليهود، مما أدى إلى نتائج سيئة دائمة الأثر بالنسبة لليهود أنفسهم ولعامة الشعب في الجمهورية البولندية. ففي كل أرجاء بولندا، استخدم النبلاء اليهود كوكلاء لهم لإضعاف القوة التجارية للمدن الملكية التي كانت ضعيفة في كل حال. وفي بولندا وحدها، من بين كل الدول المسيحية الغربية، كانت أملاك النبلاء داخل المدن الملكية مستثناة من قوانين المدن وأنظمة النقابات في القرون الوسطى. وفي أغلب الحالات، أسكن النبلاء عملاءهم اليهود في هذه الممتلكات، مما أدى إلى نزاع طويل. كان اليهود عادة «منتصرين» بمعنى أن المدينة لا تستطيع إخضاعهم ولا طردهم، أما الاضطرابات الشعبية التي تكررت فقد أدت إلى خسارة أرواح يهودية وممتلكات يهودية، فيما واصل النبلاء جني

الأرباح. وترتبت نتائج مماثلة أو أسوأ على استخدام النبلاء لليهود كوكلاء تجاريين، فقد أدى إلى إعفائهم من معظم الضرائب والمكوس، مما شكل خسارة للبرجوازية الوطنية.

لكن أشد النتائج المأساوية أثراً حصلت في إقليم بولندا الشرقي تقريباً، وهو المنطقة الواقعة إلى الشرق من الحدود الحالية وتشمل معظم أوكرانيا الحالية، حتى حدود منطقة لغة روسيا الكبرى (حتى عام ١٦٦٧م كانت حدود بولندا الشرقية تبعد كثيراً عن نهر الدنيبر (Dnieper)، حتى إن بولتافا (Poltava) كانت داخل بولندا). وبالكاد وجدت مدن ملكية في تلك المناطق الواسعة. فالمدن أسسها النبلاء وأصبحت تابعة لهم، وقد استوطنها غالبية من اليهود. وحتى عام ١٩٣٩م كان ٩٠٪ من سكان المدن البولندية الواقعة إلى الشرق من نهر بوغ (Bug) من اليهود، وهذه ظاهرة ديمغرافية أكثر بروزاً في المناطق البولندية التي ضمتها روسيا القيصرية إليها وسميت «السياج اليهودي». وخارج المدن، استخدم العديد من اليهود في كل أرجاء بولندا، وخاصة في المناطق الشرقية، كمراقبين مباشرين ومضطهدين للفلاحين المستعبدين: وكلاء مزارع يمارسون كامل صلاحيات المالك أو مستأجرون لبعض الاحتكارات الإقطاعية مثل طاحون القمح أو معمل تقطير الخمور أو الخمارة، مع حق تفتيش منازل الفلاحين بحثاً عن الخمور غير المرخصة، أو المخبز، أو جباة للضرائب الإقطاعية المختلفة. باختصار، كان اليهود في بولندا الشرقية وإبان حكم النبلاء (والكنيسة الإقطاعية المؤلفة من النبلاء حصراً)، هم المستغلين المباشرين للفلاحين، وغالبية سكان المدن.

لا شك في أن معظم الأرباح التي كانت تستخلص من الفلاحين، ذهبت إلى الملاك، بصورة أو بأخرى. ولا شك أيضاً، في أن استغلال وقمع النبلاء لليهود كان حاداً. والتاريخ يروي قصصاً عديدة مذهلة عن الإذلال الذي فرضه النبلاء على أتباعهم اليهود، ويستطيع المرء أن يفترض أنه باستثناء فترات الانتفاضات الفلاحية، كان الفلاحون يعانون

من وطأة الشريعة اليهودية المعادية لغير اليهود. وكما سنرى في الفصل التالي، كانت هذه الشرائع تخفف أو تلطف في الحالات التي يخشى فيها أن تثير عداءً شديداً ضد اليهود، أما معاداة الفلاحين فيمكن إهمالها ما دام الوكيل اليهودي قادراً على الاحتماء بنبيل كبير.

استقر الوضع حتى ظهور الدولة الحديثة، عندما تفككت الدولة البولندية. ولذلك، كانت بولندا هي البلد المسيحي الغربي الوحيد الذي لم يطرد منه اليهود أبداً. ولم تنشأ طبقة وسطى جديدة لتعذر نشوئها من فلاحين مستعبدين تماماً، والبرجوازية القديمة كانت محدودة جغرافياً وضعيفة تجارياً، وبالتالي لا سلطة لها. إجمالاً، أخذت الأمور تسوء باضطراد، من دون أن يحصل أي تغير أساسي.

وتحركت الظروف الداخلية للجالية اليهودية في مسار مماثل، فخلال الفترة من ١٥٠٠-١٧٥٩م، إحدى أشد الفترات تأثراً بالخرافات في تاريخ اليهودية، كانت الجالية اليهودية في بولندا الأشد تعلقاً بالخرافات وتطرفاً بين كل الجاليات اليهودية. واستخدمت السلطة الواسعة للحكم الذاتي اليهودي وباضطراد لكبت أي فكر أصيل أو مبدع، ولدعم أشد أنواع الاستغلال الذي مارسه أغنياء اليهود على فقراء اليهود بالتحالف مع الحاخامين، ولتبرير دور اليهود في قمع الفلاحين خدمة للنبلاء. هنا أيضاً لم يكن هناك حل إلا التحرير من الخارج. قبل عام ١٧٩٥م، لعب الوضع الاجتماعي لليهود دوراً أهم من أي عامل آخر في الشتات، في إيضاح إفلاس اليهودية الكلاسيكية، بصورة أفضل مما كان عليه في أي بلد آخر.

اضطهاد اليهود

طوال فترة اليهودية الكلاسيكية تعرض اليهود لموجات من الاضطهاد[١٦]. وهذه الواقعة تعتبر اليوم «الحجة الرئيسية» التي يعتمدها الذين يبررون موقف الديانة اليهودية من غير اليهود، ولاسيما الصهيونية؛

وبالطبع، يفترض أن تتوج إبادة النازية لخمسة أو ستة ملايين يهودي، حجج هذا الخط من التفكير. لذا يجب أن تبحث هذه الظاهرة وسماتها المعاصرة. وهذا هام بصورة خاصة، لأن نسل يهود بولندا قبل ١٧٩٥م (يدعون عادة «يهود أوروبا الشرقية» بالمقارنة مع يهود نطاق الثقافة الألمانية أوائل القرن التاسع عشر، بما في ذلك النمسا وبوهيميا ومورافيا)، يمارسون سيطرة سياسية دائمة في إسرائيل، كما في الجاليات اليهودية في الولايات المتحدة الأميركية وغيرها من البلدان التي تتكلم الإنجليزية. وبسبب تاريخهم الماضي الخاص هذا، يتعزز هذا النمط من التفكير بينهم، أكثر منه لدى اليهود الآخرين.

يجب علينا أولاً، أن نميز بشكل حاسم بين أضطهاد اليهود في الفترة الكلاسيكية من جهة، والإبادة النازية من جهة أخرى. فالأولى كانت حركات شعبية منطلقة من تحت، فيما أثيرت ونظمت ونفذت الثانية من فوق، وبفعل الموظفين الرسميين. والتصرفات المماثلة للإبادة النازية التي نظمتها الدولة نادرة نسبياً في تاريخ الإنسانية، رغم وجود بعض الحالات الأخرى (إبادة التسمانيين وبعض الشعوب المستعمرة الأخرى، مثلاً). واعتزم النازيون بالإضافة إلى ذلك إبادة شعوب أخرى إلى جانب اليهود. فالغجر أبيدوا مثل اليهود، وإبادة السلافيين كانت قيد التنفيذ، مع الذبح المنظم لملايين المدنيين وأسرى الحرب. ورغم ذلك، ظل الاضطهاد المتكرر لليهود، في بلدان عدة خلال الفترة الكلاسيكية، يعتبر نموذجاً (وعذراً) للسياسيين الصهاينة لاضطهاد الفلسطينيين، وحجة يبديها الذين يبررون اليهودية بصورة عامة. وهذه هي الظاهرة التي نبحثها الآن.

ويجب أن نلفت النظر إلى أنه في أسوأ حالات الاضطهاد المعادية لليهود، أي التي قتل فيها اليهود، كانت النخبة الحاكمة - الأمبراطور، البابا، الملوك، الارستقراطية العليا، كبار الكهنة والبوجوازيون الأغنياء في المدن المستقلة ذاتياً - وعلى الدوام إلى جانب اليهود. وانتسب أعداؤهم إلى الطبقات المستغلة والمسحوقة، وإلى الفئات القريبة منهم في

حياتها اليومية ومصالحها مثل الرهبان وجمعيات الصدقات[17]. صحيح أنه في معظم (ولا أعتقد كل الحالات) دافع أعضاء النخبة عن اليهود لا بدافع العاطفة نحو اليهود بوصفهم يهوداً، بل للأسباب التي يستخدمها الحاكمون عادة لتبرير مصالحهم: حقيقة أن اليهود كانوا مفيدين (لهم)، الدفاع عن النظام، كره الطبقات الدنيا، الخوف من تطور الاضطرابات الشعبية لتصبح ثورة شعبية عامة. ورغم ذلك، تبقى الحقيقة، وهي أنهم دافعوا عن اليهود. لهذا السبب، كانت كل مجازر اليهود خلال الفترة الكلاسيكية، جزءاً من ثورة فلاحية أو حركة شعبية، في الأوقات التي تضعف فيها الحكومة لسبب أو لآخر. وهذا صحيح حتى في حالة روسيا القيصرية المختلفة جزئياً؛ فالحكومة القيصرية شجعت عبر شرطتها السرية، على مجازر اليهود، ولكنها كانت تفعل ذلك عندما تكون ضعيفة (بعد اغتيال الكسندر الثاني عام ١٨٨١م، والفترة التي سبقت وتلت ثورة ١٩٠٥م مباشرة)، وعمدت حتى في تلك الحالات إلى احتواء الفوضى. أما في حالات تنامي قوتها مثلاً، إبان حكم نيقولا الأول، أو الجزء الأخير من حكم الكسندر الثالث، عندما كانت المعارضة تسحق، فلم تكن تتسامح حيال مذابح اليهود، رغم اضطراد التمييز القانوني ضدهم.

القاعدة العامة يمكن ملاحظتها في كل مذابح اليهود الكبرى في أوروبا المسيحية: خلال الحملة الصليبية الأولى، لم تكن جيوش الفرسان النظامية التي يقودها نبلاء مشهورون، هي التي اعتدت على اليهود، بل الجماهير الشعبية التي تألفت من الفلاحين والمعدمين التابعين لبطرس الناسك، وفي كل مدينة عارضهم الأسقف أو ممثل الملك، وحاول عبثاً، في أغلب الحالات، حماية اليهود[18]. والاضطرابات المعادية لليهود في انجلترا والتي صاحبت الحملة الصليبية الثالثة، كانت جزءاً من حركة شعبية ضد المسؤولين الملكيين، وقد عاقب ريتشارد الأول بعض المشاغبين. ومذابح اليهود التي حصلت خلال فترة انتشار الطاعون، حصلت خلافاً لأوامر صارمة من البابا والامبراطور والأساقفة

والأمراء الألمان. وفي المدن الحرة، ستراسبورغ مثلاً، سبقتها في العادة ثورة شعبية، قام اليهود خلالها بحماية مجلس المدينة الأوليغارشي الذي أسقط واستبدل بمجلس شعبي. ومذابح اليهود الكبرى في إسبانيا عام ١٣٩١م، حصلت إبان حكم وصاية ضعيف، وفي وقت كانت فيه البابوية ضعيفة بسبب الانقسام الكبير بين البابوات المتنافسين غير القادرين على ضبط الرهبان الفقراء.

ربما كان المثل الأكثر بروزاً هو مذبحة اليهود الكبرى أثناء ثورة شيميلنسكي (Chemelnicki) في أوكرانيا عام ١٦٤٨م، والتي بدأت بتمرد الضباط القوازق وتحولت إلى حركة شعبية واسعة الانتشار للأقنان المسحوقين: «الرعايا المحرومون، الأوكرانيون، الأرثوذكس (المضطهدون من الكنيسة الكاثوليكية البولندية)، كانوا ثائرين ضد الأسياد الكاثوليك البولنديين، وبصورة خاصة ضد وكلاء المزارع والكهنة واليهود»[١٩]. هذه الثورة الفلاحية النموذجية ضد القمع الشديد شهدت لا مذابح ارتكبها الثوار فحسب، بل وأعمالاً عدوانية وإرهاباً وإرهاباً مضاداً مارسته الجيوش الخاصة التابعة للنبلاء البولنديين[٢٠]، وما زالت راسخة في وعي يهود أوروبا الشرقيين لا كانتفاضات فلاحية، أو ثورات مسحوقين، أو المعذبين في الأرض فعلاً، ولا حتى كانتقام من كل خدام النبلاء البولنديين، بل كتصرفات لاسامية لا مبرر لها، ضد اليهود كيهود. في الواقع، تفسر الصحافة الإسرائيلية تصويت البعثة الأوكرانية في الأمم المتحدة خاصة، والسياسات السوفياتية حيال الشرق الأوسط عامة، بأنها من تراث شيميلنسكي أو «نسله».

اللاسامية الحديثة

تعرض طابع الاضطهاد المعادي لليهود إلى تغيّر جذري في العصور الحديثة. فمع ظهور الدولة الحديثة وإلغاء نظام القنانة والحصول على الحد الأدنى من الحقوق الفردية، اختفى الدور الاجتماعي - الاقتصادي

لليهود، بالضرورة، واختفت معه سلطة الجالية اليهودية على أعضائها، وحصل الأفراد اليهود وبأعداد متزايدة، على حرية دخول مجتمعات بلدانهم. وبصورة طبيعية، أثار التحول رد فعل عنيفاً من جانب اليهود (وخاصة الحاخامين) الذين يشكلون عناصر في المجتمع الأوروبي المعارض للمجتمع المفتوح، واعتبر كل مسار لتحرير الفرد أمراً بغيضاً محرماً.

وتظهر اللاسامية الحديثة أولاً في فرنسا وألمانيا، ثم في روسيا بعد عام ١٨٧٠م. وخلافاً للرأي السائد بين الاشتراكيين اليهود، لا أعتقد أن بداياتها وتطوراتها اللاحقة حتى الوقت الحاضر، يمكن عزوها إلى «الرأسمالية». على العكس، أرى أن الرأسماليين الناجحين في كل البلدان كانوا، بصورة إجمالية، متحررين من اللاسامية بشكل ملحوظ، والبلاد التي نشأت فيها الرأسمالية أولاً وبأكثر أشكالها اتساعاً - مثل إنجلترا وبلجيكا - كانت هي البلدان التي كانت اللاسامية فيها أقل شيوعاً، منها في أي مكان آخر(٢١).

اللاسامية الحديثة الأولى (١٨٨٠-١٩٠٠م)، كانت رد فعل أناس يكنون كرهاً عميقاً للمجتمع الحديث بكل مظاهره، الجيدة والسيئة، وآخرين يؤمنون بحماس بنظرية التاريخ التآمري، حشروا اليهود في دور كبش فداء انهيار المجتمع القديم (الذي تصورته مشاعر اللاسامية أكثر انغلاقاً وانتظاماً مما كان في الواقع)، وكل أمر مزعج في العصور الحديثة. ومنذ البدء، واجه اللاساميون ما شكل، بالنسبة لهم، مشكلة صعبة: كيفية تعريف كبش الفداء وخاصة بتعابير شعبية؟ وما هو القاسم المشترك المفترض شيوعه لدى اليهودي الموسيقي والمصرفي والحرفي والشحاذ، خاصة بعد انحلال المظاهر الدينية إلى حد كبير، خارجياً في الأقل؟ وهكذا كانت نظرية العرق اليهودي الجواب الحديث على هذه المشكلة.

وبالمقابل، كان المسيحيون القدماء، وبنسبة أكبر المسلمون

المعارضون لليهودية الكلاسيكية متحررين من العنصرية بشكل ملحوظ. ولا شك في أن هذا كان، إلى حد ما، نتيجة السمة الكونية للمسيحية والإسلام، والرابطة الأصلية بينهم وبين اليهودية (سانت توماس مور عنف مراراً امرأة اعترضت عندما أخبرها أن مريم العذراء يهودية). وفي رأيي، كان العامل الأكثر أهمية بكثير هو دور اليهود الاجتماعي كجزء لا يتجزأ من الطبقات العليا. ففي بلدان عديدة، عوملوا كنبلاء في دور التكوين، وإثر تحولهم، استطاعوا التزاوج مع أعلى طبقات النبلاء بينما كان نبلاء قشتالة وأراغون في القرن الخامس عشر وأرستقراطيو بولندا في القرن الثامن عشر - كمثلين لحالتي تزاوج واسعتي الانتشار مع يهود مرتدين - بالكاد يرغبون بالارتباط مع فلاح إسباني أو قن (Serf) بولندي، مهما بلغ المديح الذي يسبغه الإنجيل على الفقراء.

الأسطورة الحديثة عن «العرق اليهودي» - ذي السمات الخارجية المخبوءة والمفترض شيوعها بين اليهود، بصورة مستقلة عن التاريخ أو الدور الاجتماعي أو أي شيء آخر - هي العلامة الرسمية والأكثر أهمية في تمييز اللاسامية الحديثة. وهذا ما أدركه في الواقع بعض قادة الكنيسة عند بدايات ظهور اللاسامية الحديثة كحركة تملك بعض القوة، فعارض بعض القادة الكاثوليك الفرنسيين، مثلاً، العقيدة العرقية الجديدة التي قدمها إي. درومونت (E. Drumont) أول لاسامي شعبي حديث وكاتب «يهود فرنسا» السيء السمعة عام ١٨٨٦م، والذي حقق انتشاراً واسعاً[٢٢]. وواجه اللاساميون الألمان الحديثون معارضة مماثلة.

ويجب أن نلفت النظر إلى أن بعض المجموعات الأوروبية المحافظة الهامة، كانت على أهبة الإستعداد للتلاعب باللاسامية الحديثة واستخدامها لغاياتها الخاصة، كما كان اللاساميون مستعدين لاستخدام المحافظين إذا سنحت الفرصة، رغم أن التشابه بين الفريقين كان ضئيلاً. والضحايا الذين عوملوا بقساوة (بعلم درومونت السابق الذكر) لم يكونوا آل روتشيلد، بل النبلاء الكبار الذين توددوا إليهم. ولم يوفر درومونت

العائلة المالكة أو الأساقفة أو حتى البابا[٢٣]. ورغم ذلك، كان العديد من كبار نبلاء فرنسا والأساقفة والمحافظين عامة، سعداء باستغلال درومونت ولاساميته خلال أزمة قضية دريفوس، في محاولة لإسقاط النظام الجمهوري.

هذا الطراز من التحالف الانتهازي عاود الظهور في بلدان أوروبية عديدة حتى انهزام النازية. وقد أعمت كراهية المحافظين للحركات الراديكالية وخاصة كل أشكال الاشتراكية، الكثيرين عن الطبيعة السياسية لرفاقهم. وفي حالات عديدة، كانوا مستعدين للتحالف مع الشيطان، متناسين المثل القديم القائل بأن المرء يحتاج إلى ملعقة طويلة ليتعشى معه.

فعالية اللاسامية الحديثة وتحالفها مع المحافظين، اعتمدت على عوامل عدة:

أولاً، التقليد الديني المسيحي القديم المعارض لليهود، والذي وجد في العديد من (وليس كل) الدول الأوروبية، والذي يمكن ربطه، ما لم يقاوم الكهنة ذلك أو لم يعارضوه، بعجلة اللاسامية. ورد الفعل الحقيقي لدى الكهنة في كل بلد، كانت تحدده الظروف الاجتماعية والتاريخية المحلية، إلى حد كبير. ففي الكنيسة الكاثوليكية، كان الميل إلى التحالف الانتهازي مع اللاسامية قوياً في فرنسا ولكن ليس في إيطاليا، في بولندا وسلوفاكيا وليس في بوهيميا. والكنيسة اليونانية الأرثوذكسية كان لديها ميول لاسامية في رومانيا، ولكنها اتخذت موقفاً معاكساً في بلغاريا. أما بين الكنائس البروتستانتية، فكانت الألمانية منقسمة بحدة حول هذا الموضوع، ومالت كنائس أخرى (في لاتفيا وأستونيا) نحو اللاسامية. ولكن العديد منها (مثل الهولندية والسويسرية والاسكندنافية) كانت من أوائل الذين دانوا اللاسامية.

ثانياً، كانت اللاسامية، إلى حد كبير، تعبيراً عاماً عن التخوف من

الأجانب والرغبة في مجتمع «نقي» متجانس. وفي العديد من البلدان الأوروبية حوالي ١٩٠٠م (وفي الواقع حتى وقت قريب) كان اليهودي هو «الغريب» الوحيد. وهذا صحيح بالنسبة لألمانيا بصورة خاصة. وبصورة عامة، كان العرقيون الألمان، أوائل القرن العشرين، يكرهون ويحتقرون السود كرههم واحتقارهم لليهود، ولكن لم يكن هناك سود في ألمانيا. والكراهية يمكن تركيزها على الحاضر وليس على الغائب، وخاصة في ظروف ذلك الوقت، عندما لم يكن السفر الجماعي والسياحة موجودين، وعندما لم يكن أغلب الأوروبيين يغادرون بلادهم في زمن السلم.

ثالثاً، نجاح التحالف المؤقت بين المحافظة واللاسامية، كان يتناسب عكسياً مع قوة وقدرات معارضيه. والمعارضون الفعالون المتماسكون للاسامية في أوروبا هم الليبراليون والاشتراكيون؛ وتاريخياً ستواصل القوى نفسها التقليد الذي رمزت إليه حرب الإستقلال الهولندية (١٥٦٨-١٦٤٨) والثورة الإنجليزية والثورة الفرنسية. وكانت العلامة الفارقة في القارة الأوروبية هي الموقف من الثورة الفرنسية الكبرى: تقريباً، كان مؤيدوها معادون للاسامية، والراضون بها من دون اقتناع عرضة للتحالف مع اللاساميين، أما الذين يكرهونها ويرغبون في إلغاء منجزاتها، فهم المحيط الذي تنمو فيه اللاسامية.

وينبغي رغم ذلك التمييز بكل حدة بين المحافظين والرجعيين من جهة، واللاساميين من جهة أخرى، فالعنصرية الحديثة (واللاسامية جزء منها)، رغم نشوئها عن ظروف اجتماعية محددة، تصبح عندما تقوى، قوة يمكن وصفها، في رأيي، بالشيطانية فقط. لكنها بعد وصولها إلى السلطة، وإبان توليها لها، تستعصي على التحليل وفق أي نظرية اجتماعية مفهومة حالياً، أو حتى مجرد الملاحظات الاجتماعية؛ وخاصة أي نظرية معروفة تقوم على المصالح، سواء كانت مصالح الطبقة أو الدولة أو مجرد مصالح «نفسية» أخرى لأية هيئة يمكن تعريفها بالاستناد للمعرفة الإنسانية في حالتها الحاضرة. ولا أعني بهذا أن مثل هذه القوى ليست معروفة من

حيث المبدأ، بل على العكس، فالمرء يأمل مع تنامي المعرفة الإنسانية، في أن يصبح فهمها ممكناً. أما في الوقت الحالي فهي ليست مفهومة ولا يمكن التبنؤ بها بصورة معقولة، وهذا ينطبق على العنصرية في كل المجتمعات[٢٤]. وحقيقة الأمر، أن ما من شخصية سياسية أو جماعة ذات لون سياسي في أي بلد، توقعت ولو بشكل غامض، فظائع النازية. فقط الفنانون والشعراء، مثل هاينه (Heine) تمكنوا من لمح ما يخبؤه المستقبل. ولم نعلم كيف فعلوا ذلك، كما أن العديد مما حدسوه كان خاطئاً.

الرد الصهيوني

تاريخياً، الصهيونية هي رد فعل للاسامية وتحالف محافظ معها؛ هذا على الرغم من أن الصهاينة، مثل المحافظين الأوروبيين الآخرين، لم يدركوا تماماً مع من كانوا يتحالفون.

حتى ظهور اللاسامية الحديثة، كان يهود أوروبا متفائلين ومتفائلين جداً. وهذا واضح لا في الأعداد الكبيرة من اليهود، وخاصة في البلدان الغربية، الذين تخلوا عن اليهودية الكلاسيكية من دون أسف بالغ، بعد جيل أو جيلين من الوقت الذي أصبح فيه ذلك ممكناً فحسب، بل ومن نشوء حركة ثقافية قوية، حركة التنوير اليهودي (Haskalah) التي ابتدأت في ألمانيا والنمسا حوالي ١٧٨٠م، وانتقلت إلى شرق أوروبا خلال الفترة من ١٨٥٠-١٨٧٠م، وجعلت من نفسها قوة اجتماعية كبيرة. ولا أستطيع الدخول هنا في بحث الانجازات الثقافية لهذه الحركة، مثل إحياء الأدب العبري وإبداع أدب رائع باليديشية. في أي حال، مهم أن نلاحظ، أنه رغم الاختلافات الداخلية العديدة، تميزت الحركة بمجملها بمعتقدين شائعين: الاعتقاد بضرورة نقد المجتمع اليهودي جذرياً، ولاسيما الدور الاجتماعي للديانة اليهودية بصيغتها الكلاسيكية والأمل الرسالي في انتصار «قوى الخير» في المجتمعات الأوروبية؛ هذه القوى التي كانت

تعرف وفق معيار وحيد هو مدى دعمها للتحرر اليهودي.

انتشار اللاسامية كحركة شعبية، والتحالفات العديدة مع القوى الرجعية، شكل ضربة حادة للتنوير اليهودي. وكانت ضربة مدمرة لأن الواقع هو أن صعود اللاسامية حصل بعد تحرر اليهود في بعض البلدان الأوروبية، وقبل أن يتحرروا في بعضها الآخر. فيهود الامبراطورية النمساوية نالوا حقوقاً كاملة عام ١٨٦٧. وفي ألمانيا، حررت بعض الدول المستقلة يهودها في وقت مبكر، ولم تفعل الأخرى ذلك، لاسيما بروسيا التي أنكرت هذا الأمر وتأخرت فيه، حتى أن تحرر اليهود الكامل لم يحصل، في الامبراطورية الألمانية ككل، إلا على يد بسمارك عام ١٨٧١م. وفي الامبراطورية العثمانية، ظل اليهود يعانون من التمييز الرسمي حتى عام ١٩٠٩م، وفي روسيا (وكذلك رومانيا) حتى عام ١٩١٧م. هذه اللاسامية الحديثة ظهرت خلال عقد من تحرير اليهود في أوروبا الوسطى، وقبل تحرر الجالية اليهودية الكبرى في ذلك الوقت، جالية روسيا القيصرية.

ولذلك، كان سهلاً على الصهاينة أن يتجاهلوا نصف الحقائق، وأن يرتدوا إلى اليهودية الكلاسيكية الانعزالية، وأن يزعموا بأنه ما دام كل غير اليهود يضطهدون اليهود، وعلى الدوام، فلا حل إلا بنقل جميع اليهود وتركيزهم في فلسطين أو أوغندا أو أي مكان آخر[٢٥]. وقد سارع بعض نقاد الصهيونية اليهود الأوائل إلى بيان أنه إذا افترض المرء عدم الانسجام التاريخي بين اليهود والأمم - الغرض المشترك لدى اللاسامية والصهيونية - فتركيز اليهود في مكان واحد سيجلب كره سكان ذلك الجزء من العالم لهم (كما حصل بالفعل، ولكن لأسباب مختلفة تماماً). وحسب معلوماتي، لم تترك هذه الحجة المنطقية أثراً، شأنها شأن كل الحجج المنطقية والواقعية ضد أسطورة «العرق اليهودي» التي لم تؤثر على اللاساميين أبداً.

الحقيقة، هي أن علاقات وثيقة قامت بين الصهاينة واللاساميين،

وبالضبط كبعض المحافظين الأوروبيين، ظن الصهيونيون أن بإمكانهم تجاهل السمة «الشيطانية» اللاسامية واستغلال اللاساميين لخدمة أغراضهم. وهناك أمثلة عديدة عن مثل هذا التحالف معروفة جداً، فهيرتزل ربط نفسه بسيء السمعة الكونت فون بليهفى (Von Plehve)، الوزير اللاسامي في حكومة القيصر نيقولا الثاني[٢٦]. وجابوتنسكي عقد ميثاقاً مع بتليورا (Petlyura) القائد الأوكراني الرجعي الذي نفذ مذابح قتل فيها مئة ألف يهودي عام ١٩١٨-٢١. وحلفاء بن غوريون ضمن اليمين الفرنسي المتطرف إبان الحرب الجزائرية، كان بينهم لاساميون مشهورون حرصوا على إيضاح أنهم ضد اليهود في فرنسا، لا في إسرائيل.

ربما كان أفظع هذا النوع من الأمثلة هو الابتهاج الذي أبداه بعض القادة الصهيونيين، ترحيباً بصعود هتلر إلى السلطة، لأنه يشاركهم الاعتقاد بأولوية «العرق» وبمعارضته لاستيعاب اليهود ضمن العرق «الآري»، فهنأوا هتلر بمناسبة انتصاره على العدو المشترك: قوى الليبرالية. والدكتور جواشيم برنز (Joashim Prinz)، الحاخام الصهيوني الذي هاجر في ما بعد إلى الولايات المتحدة الأميركية وأصبح نائباً لرئيس المؤتمر اليهودي العالمي، ومرشداً قيادياً في المنظمة الصهيونية العالمية (وصديقاً كبيراً لغولدا مائير)، نشر عام ١٩٣٤م، كتاباً خاصاً هو «نحن، اليهود» (Wir Juden) للاحتفال بثورة هتلر الألمانية وهزيمة الليبرالية: «معنى الثورة الألمانية بالنسبة للأمة الألمانية، سيتضح في نهاية الأمر لأولئك الذين أوجدوها وشكلوا صورتها. لكن معناها بالنسبة لنا يجب تحديده فوراً: فقدت الليبرالية مستقبلها، الشكل الوحيد للحياة السياسية التي ساعدت على اندماج اليهود، قد غرق»[٢٧].

انتصار النازية ألغى البحث في الاندماج والزواجات المختلطة كخيارات متاحة لليهود «ولسنا غير سعيدين بذلك» قال الدكتور برنز، ورأى أن واقعة إجبار اليهود على التعريف بأنفسهم كيهود، تشكل «تحقيقاً لرغباتنا»، وفضلاً عن ذلك، قال: «نريد استبدال الاندماج بقانون جديد:

إعلان الانتماء إلى الأمة اليهودية والعرق اليهودي. الدولة القائمة على مبدأ نقاء الأمة والعرق، لا يمكن أن يحترمها ويجلها إلا اليهودي الذي يعلن انتماءً من هذا النوع. وما أن يعلن ذلك، حتى لا يعود قادراً على محض الدولة ولاءً ناقصاً. والدولة لا تقوى على الرغبة في اليهود الآخرين، بل بأولئك الذين يعلنون انتماءهم لأمتهم، لأنها لن ترغب في منافقين وزاحفين يهود. يجب أن تطلب منا الولاء والإخلاص لمصلحتنا، لأن الذي يحترم عرقه الخاص ودمه، يمكن أن يحترم الإرادة القومية للأمم الأخرى»(٢٨).

الكتاب مليء بمثل هذا النفاق الساذج للإيديولوجيا النازية، والابتهاج بانهزام الليبرالية عامة، وأفكار الثورة الفرنسية، خاصة(٢٩)، والآمال الكبار بانتعاش الصهيونية وأسطورة العرق اليهودي في ظل اسطورة العرق الآري.

بالطبع، الدكتور برنز، كالكثيرين من أوائل المتعاطفين مع النازية، والمتحالفين معها، لم يدركوا ما تؤدي إليه الحركة (واللاسامية الحديثة عامة). ولا يدرك معاصرون عديدون بالمثل: إلى أين تتجه الصهيونية؛ الحركة التي كانت الدكتور برنز شخصية بارزة فيها: خليط من أحقاد اليهودية الكلاسيكية ضد غير اليهود والاستغلال غير المميز واللاتاريخي لكل حالات اضطهاد اليهود، لتبرير الاضطهاد الصهيوني للفلسطينيين(٣٠).

ومهما بدا الأمر غير سليم، فالواضح من التدقيق في الدوافع الحقيقية للصهيونيين، هو أن أشد المصادر الإيديولوجية رسوخاً لعداء المؤسسة الصهيونية المستمر للفلسطينيين، هو تماثلهم، في ذهن العديد من يهود أوروبا الشرقية، مع فلاحي أوروبا الشرقية الذين ثاروا وساهموا في ثورة شيميلنسكي، والثورات المشابهة؛ وهذه الثورات تُشبَّه من دون مبرر تاريخي باللاسامية والنازية

مواجهة الماضي

جميع اليهود الذين يريدون فعلاً أن يخلصوا أنفسهم من طغيان الماضي اليهودي الشمولي، يجب أن يواجهوا السؤال عن موقفهم حيال الظواهر الشعبية المعادية لليهود في الماضي، وخاصة تلك المرتبطة بثورات الفلاحين المستعبدين. ومن جهة أخرى، على الذين يبررون الديانة اليهودية والانعزالية والشوفينية اليهودية أن يتخذوا موقفاً - في المناقشات الحالية ونهائياً - من المسألة نفسها. والحقيقة التي لا شك فيها، وهي أن الفلاحين الثوريين ارتكبوا فظاعات مروعة ضد اليهود (وضد مستغليهم أيضاً)، تستعمل من قبل هؤلاء المبررين «حجة» مماثلة للحجة التي تستخدم الإرهاب الفلسطيني مبرراً لإنكار حق الفلسطينيين.

جوابنا الخاص يجب أن يكون شاملاً وينطبق، من حيث المبدأ على جميع الحالات المشابهة. وبالنسبة لليهودي الراغب في التحرر من الفردية والعنصرية اليهودية والأثر الماضي للديانة اليهودية، لن يكون الجواب صعباً أبداً.

وفي التحليل الأخير فإن ثورات الفلاحين المقهورين ضد أسيادهم ووكلاء أسيادهم شائعة في تاريخ الإنسانية؛ فبعد جيل من انتفاضة شيميلنسكي الفلاحية في أوكرانيا، انتفض الفلاحون الروس بقيادة ستينكا ريازين (Stenka Ryazin)، وثانية، بعد مئة سنة في ثورة بوغاشيف، (Pugachev). وفي ألمانيا، نشبت ثورة فلاحية عام ١٥٢٥، وفي فرنسا، ثورة الجاكوير (Jacquerie) ١٥٣٧-٣٨، وثورات شعبية أخرى عديدة، هذا كله عدا عن ثورات العبيد الكثيرة في كل أنحاء العالم. كلها - وقد تعمدت ذكر أمثلة لم يكن اليهود فيها هدفاً - رافقها مذابح مروعة، كما رافق الإرهاب الكبير أحداث الثورة الفرنسية الكبرى. فما هو موقف التقدميين الحقيقيين - والآن، معظم الناس العاديين المتعلمين سواء كانوا روساً أو ألمان أو فرنسيين - من هذه الثورات؟ هل يعتبر المؤرخون

الإنجليز المحترمون، مذابح الإنجليز التي ارتكبها الفلاحون الإيرلنديون الثائرين ضد عبوديتهم، مدانة باعتبارها عنصرية مناهضة للإنجليز؟ وما هو موقف المؤرخين الفرنسيين التقدميين من ثورة العبيد الكبرى في سانتو دومينغو التي نحر فيها العديد من النسوة والأطفال الفرنسيين؟ توجيه هذا السؤال جواب له. أما توجيه سؤال مماثل إلى عديد من الدوائر اليهودية «التقدمية» و«الاشتراكية» فيؤدي إلى جواب مختلف تماماً: هنا يتحول الفلاح المستعبد إلى وحش عنصري، إذا انتفع اليهودي من عبوديته واستغلاله.

الحكمة القائلة بأن الذين لا يتعلمون من التاريخ محكوم عليهم بأن يعيدوه، تنطبق على أولئك اليهود الذين يرفضون التفاهم مع الماضي اليهودي: فقد أصبحوا عبيداً له وهم يكررونه مع الصهيونية والسياسات الإسرائيلية. ودولة إسرائيل الآن، تمثل بالنسبة للفلاحين المقموعين - لا في الشرق الأوسط فحسب، بل وخارجه أيضاً - دوراً لا يختلف عن دور يهود بولندا قبل عام ١٧٩٥م؛ دور وكيل الطاغية الأمبريالي. ولعل هذا يوضح لم لم يتسبب دور إسرائيل الكبير في تسليح قوات نظام سوموزا في نيكاراغوا وأنظمة غواتيمالا والسلفادور وتشيلي وغيرها، في أي نقاش عام في إسرائيل أو بين الجاليات اليهودية المنظمة في الشتات. حتى السؤال عن المصلحة: هل بيع الأسلحة لدكتاتور يذبح المناضلين من أجل الحرية والفلاحين، يخدم مصلحة إسرائيل على المدى الطويل؛ نادراً ما يسأل. والأكثر بروزاً هو الدور الكبير الذي يقوم به المتدينون اليهود في هذا المجال وصمت الحاخامين المطبق (وهم الصريحون جداً في التحريض على كراهية العرب). يبدو أن إسرائيل والصهيونية ردة للكلاسيكية اليهودية، على نطاق أوسع ومجال كوني وفي ظروف أكثر خطورة.

الجواب الممكن الوحيد لكل هذا، من اليهود قبل غيرهم، يجب أن يكون الجواب الذي يعطيه دعاة الحرية والإنسانية في كل البلدان وجميع

الشعوب، وكل الفلسفات الكبرى، مهما بدت محدودة أحياناً بسبب محدودية الظروف الإنسانية ذاتها. يجب علينا أن نواجه الماضي اليهودي وبعض ظواهر الحاضر القائمة على الماضي والتي تستند إليه وتمجده. والشرط المسبق لهذا هو أولاً، الأمانة بالنسبة للوقائع. وثانياً، الإيمان (الدافع إلى العمل قدر الإمكان) بكل المبادئ والأخلاق والسياسات الإنسانية الشاملة.

الحكيم الصيني القديم منسيوس (Mencius) - القرن الرابع قبل الميلاد - الذي أعجب به فولتير (Voltaire) كثيراً، كتب مرة: «لهذا أقول إن كل الناس لديهم حس المواساة: هنا رجل يلاحظ فجأة طفلاً على وشك السقوط، فيشعر بالخطر ويتعاطف معه حتماً. وهذا ليس من أجل الحصول على منفعة من والدي الطفل، ولا على عبارات الاستحسان من جيرانه أو أصدقائه، أو خشية اللوم إذا فشل في إنقاذه. وهكذا نرى أن لا إنسان بدون وعي للتعاطف أو شعور بالخجل، أو إحساس باللطف أو إدراك للصواب والخطأ. الإحساس بالتعاطف هو بداية الإنسانية، والشعور بالعيب هو بداية التمسك بالحق، والإحساس باللطف هو بداية الذوق، وإدراك الصواب والخطأ هو بداية الحكمة. وكل إنسان فيه هذه البدايات الأربع، كما له أربعة أطراف. ولما كانت نفس كل إنسان تنطوي على هذه البدايات الأربع، فالرجل الذي يعتبر نفسه غير قادر على ممارستها، إنما يدمر نفسه».

رأينا في ما سبق، وسنظهر بتفصيل مطول في الفصل التالي، كم هي بعيدة عن هذا، المفاهيم التي تسمم بها اليهودية، في شكلها الكلاسيكي والتلمودي، العقول والقلوب.

الطريق إلى ثورة حقيقية في اليهودية - بجعلها إنسانية، تتيح لليهود مجال فهم ماضيهم الخاص وإعادة تثقيف أنفسهم للتحرر من طغيانه؛ يكمن في النقد الصارم للديانة اليهودية من دون خوف أو تحيز، يجب أن نتكلم ضد ما يتعلق بماضينا، كما فعل فولتير ضد ماضيه.

الإشارات والمراجع

١ - انظر مثلاً، إرميا ٤٤، وخاصة الآيات ١٥-١٩. وللإطلاع على معالجة ممتازة لبعض نواحي هذا الموضوع، انظر رافائيل باتاي (Raphael Patai) «الإلهة اليهودية» (The Hebrew Goddess)، كتاف، الولايات المتحدة، ١٩٦٧.

٢ - عزرا ٧: ٢٥-٢٦. الفصلان الأخيران من هذا السفر يتعلقان أساساً بجهود عزرا لعزل اليهود «الأنقياء» («البذر المقدس») بعيداً عن «شعوب الأرض»، الذين كانوا هم أنفسهم من أصل يهودي جزئياً، وفسخ الزواجات المختلطة.

٣ - دبليو، ف. ألبرايت، (W. F. Albright)، «مكتشفات حديثة في أراضي التوراة»، فإنك أند واغنال، نيويورك، ١٩٥٥، صفحة ١٠٣.

٤ - جدير بالاهتمام، أنه مع هذه الكمية من الأدب، رفضت جميع الكتب التاريخية التي كتبها اليهود بعد حوالي ٤٠٠ق.م. وحتى القرن التاسع عشر، وكان اليهود يجهلون تماماً قصة مسعدة وشخصيات مثل يوضاس مكابيوس، التي يعتبرها العديدون اليوم (وخاصة المسيحيون) متعلقةً بلب اليهودية.

٥ - الأعمال ١٨: ١٥.

٦ - الأعمال ٢٥.

٧ - أنظر الملاحظة رقم ٦ في الفصل الثاني.

٨ - أنظر في خصوص تعبير «اليهودية الكلاسيكية» الملاحظة رقم ١٠ في الفصل الثاني، والملاحظة رقم ١ في الفصل الثالث.

٩ - الحائزان على جائزة نوبل: عجنون (Agnon) وباشيفيز سينغر (Bashevis Singer) مثلان لهذا، ولكن يمكن ذكر عديدين آخرين، وخاصة بياليك (Bialik)، الشاعر العبري الوطني. ففي قصيدته المشهورة «أبي» يذكر أن والده القديس كان يبيع الفودكا إلى الفلاحين السكارى الذين كانوا يعتبرون كالحيوانات. وهذه قصيدة شهيرة جداً تدرس في كل المدارس الإسرائيلية، ووسيلة يعاد عبرها إنتاج العديد من المواقف المعادية للفلاحين.

١٠ - حتى الآن، وإلى مدى ما يخص السلطة المركزية للبطريركية اليهودية، فقد ألغى ثيودوسيوس الثاني الصفقة بموجب سلسلة من القوانين، وصلت ذروتها عام ٤٢٩م، ولكن العديد من الترتيبات المحلية بقيت نافذة.

١١ - المثل البارز الآخر، ربما كان الأمبراطورية البارثية (حتى ٢٢٥م) ولكن المعروف عنها قليل. لكننا نعرف في أي حال، أن إنشاء الامبراطورية الإيرانية القومية الساسانية أدى إلى تدهور فوري في أوضاع اليهود.

١٢ - هذا الحظر يشمل امرأة تحولت إلى اليهودية، لأن جميع النساء غير اليهوديات يعتبرن، في رأي القبالية، بغايا.

١٣ - الزواج الممنوع لا يعتبر باطلاً يؤدي إلى الطلاق حتماً. فالطلاق، نظرياً، تصرف طوعي يقوم به الزوج، ولكن، في ظروف معينة، تستطيع محكمة دينية إرغامه على «إرادته».

١٤ - رغم أن الإنجازات اليهودية خلال العصر الذهبي في إسبانيا الإسلامية (١٠٠٢-١١٤٧م) أكثر تألقاً، فلم تكن مستمرة. مثلاً، معظم الشعر العبري الرائع في تلك الحقبة، نسيه اليهود فيما بعد، ولم يعودوا إليه إلا في القرن التاسع عشر والعشرين.

١٥ - خلال الحرب، استخدم هنري التراستماري دعاية معادية لليهود، رغم أن أمه ليونور دو غوزمان (Leonor de Guzman)، من كبار نبلاء قشتالة، كانت من سلالة يهودية جزئياً (في إسبانيا فقط، كان كبار النبلاء يتزاوجون مع اليهود).

١٦ - حتى القرن الثامن عشر، كان من المفترض أن أوضاع الأقنان في بولندا كانت أسوأ منها في روسيا. وفي ذلك القرن، اتجهت بعض مظاهر القنانة الروسية نحو الأسوأ في بولندا، مثل بيع الأقنان بالمزاد العلني، ولكن السلطة القيصرية المركزية احتفظت دائماً ببعض السلطات على الفلاحين المستعبدين، مثل حق تجنيدهم في الجيش الوطني.

١٧ - خلال الفترة السابقة كان اضطهاد اليهود نادراً. وهذا صحيح بالنسبة للامبراطورية الرومانية حتى بعد الثورات اليهودية الجدية. وغيبون (Gibbon) مصيب في امتداح ليبرالية أنطونيوس بيوس (ماركوس أوريليوس) تجاه اليهود، بعد ثورة بار - كوخبا (Bar - Kokhba) عام ١٣٢-٣٥م بقليل.

١٨ - هذه الحقيقة، يمكن توكيدها بسهولة بالتدقيق في تفاصيل كل حالة اضطهاد على حدة، وهذا ما لم يعلق عليه معظم المؤرخين في العصور الحديثة. والاستثناء المشرف هو هيوغ تريفور - روبر في «نشوء المسيحية الأوروبية»، ثيمز اندهدسون، لندن، ١٩٦٥، صفحة ١٧٣-٤، وتريفور - روبر هو أحد المؤرخين الحديثين القلائل الذين يذكرون الدور اليهودي المسيطر في تجارة الرقيق في القرون الوسطى بين أوروبا المسيحية (والوثنية) والعالم الإسلامي (المرجع نفسه صفحة ٢٩-٣٣). ولتعزيز هذا الدور البغيض الذي لا أجد مجالاً لبحثه هنا، سمح إبن ميمون لليهود، باسم الديانة اليهودية، بخطف أبناء غير

اليهود وبيعهم عبيداً، ولا شك أنه تم التصرف بموجب فتواه، أو أنها كانت إقراراً لممارسات معاصرة.

١٩ - الأمثلة يمكن أن توجد في الحروب الصليبية، انظر س. روتسيمان في «تاريخ الحروب الصليبية» المجلد الأول، الكتاب الثالث، الفصل الأول «الحملة الصليبية الإلمانية». الهزيمة التي لحقت بهذا الجمع على يد الجيش الهنغاري «بدت لمعظم المسيحيين انتقاماً عادلاً أوقعه الله بقتلة اليهود».

٢٠ - جون ستوي، «أوروبا تتفتح ١٦٤٨-٨٨» فونتانا، لندن صفحة ٤٦.

٢١ - هذا المظهر الأخير ليس مذكوراً في التأريخ اليهودي، بالطبع، والعقوبة المعتادة للفلاح الثائر أو حتى الأحمق هي الإعدام على الخازوق.

٢٢ - ويمكن ملاحظة الشيء نفسه في مناطق مختلفة في بلد معين. مثلاً، المانيا: فبافاريا الزراعية كانت أشد لاسامية من المناطق الصناعية.

٢٣ - رفض الكنيسة الاعتراف بأن اليهودي يبقى يهودياً كان سبباً آخر لآلام درومونت، الكاثوليكي المتفاخر. وأحد كبار مساعديه، جول غيورين وصف القرف الذي أحس به عندما عاتبه بيار دولاك لأنه هاجم بعض اليهود المرتدين. انظر «تطور فرنسا الحديثة» المجلد الأول، هاربر نورتشبوك، نيويورك، ١٩٦٦، صفحة ٢٢٧.

٢٤ - المرجع السابق.

٢٥ - دعوني أوضح السمة الشيطانية اللاعقلانية التي يمكن أن تتسم بها العنصرية في بعض الأحيان، بأمثلة منتقاة عشوائياً. الجزء الأكبر من إبادة يهود أوروبا ثم عام ١٩٤٢ وأوائل ١٩٤٣ خلال الهجوم الإلماني على روسيا والذي وصل ذروته بهزيمته في ستالينغراد، وخلال الشهور الثمانية من حزيران (يونيو) ١٩٤٢ إلى شباط (فبراير) ١٩٤٣، يحتمل أن يكون النازيون قد استعملوا المزيد من عربات الخطوط الحديدية لنقل اليهود إلى أفران الغاز، بدلاً من حمل الإمدادات الضرورية للجيش!! قبل أخذهم إلى حتفهم، كان معظم اليهود، في الأقل في بولندا، يستخدمون في إنتاج المعدات للجيش الإلماني. الثاني، والأبعد قليلاً، مثل «نواقيس صقلية» (Sicilian Vespers) عام ١٢٨٢ كل فرنسي قابلوه قتلوه. اندفعوا نحو الفنادق التي يؤمها الفرنسيون والبيوت التي يسكنونها ولم يوفروا رجلاً أو امرأة أو طفلاً. . . دهم المشاغبون أديرة الدومينيكان والفرنسيسكان وانتزعوا كل الرهبان الأجانب وأمروهم بأن يلفظوا كلمة سيسيري (ciciri) التي لا يستطيع اللسان الفرنسي نطقها بصورة صحيحة، ومن فشل في لفظها ذبح. س. روتسيمان «نواقيس صقلية» مطبعة جامعة كامبردج - ١٩٥٨، صفحة ٢١٥). المثل الثالث حديث: صيف ١٩٨٠، بعد محاولة الإرهابيين اليهود

اغتيال بسام الشكعة، رئيس بلدية نابلس الذي فقد رجليه، وكريم خلف، رئيس بلدية رام الله، الذي خسر إحدى رجليه، تجمهرت مجموعة من النازيين اليهود في جامعة تل أبيب وشوت بعض القطط وقدمت لحمها للمارة على أنه كباب من أرجل رؤساء البلديات. وأي شخص شاهد هذه العربدة المرعبة - كما فعلت - لا بد وأن يقر بأن بعض الفظائع تستعصي على الإيضاح، حسب مستوى المعرفة الحالي.

٢٦ - إحدى مراوغات جابوتنسكي (مؤسس الحزب الذي قاده بيغن فيما بعد) اقتراح قال به حوالي ١٩١٢، بإنشاء دولتين، واحدة في فلسطين والأخرى في أنغولا، على أن تدعم الثانية الأولى لأنها فقيرة بالموارد الطبيعية.

٢٧ - ذهب هيرتزل إلى روسيا لمقابلة فون بليهفي في آب (أغسطس) ١٩٠٣، بعد أقل أربعة أشهر من مذبحة كيشينيف التي كان هو مسؤولاً عنها. اقترح هيرتزل تحالفاً على أساس رغبتهما المشتركة في التخلص من معظم اليهود في روسيا، وعلى المدى القصير، تحويل الدعم اليهودي عن الحركة الاشتراكية. بدأ الوزير القيصري المقابلة الأولى (٨ آب) بملاحظة أنه يعتبر نفسه «مؤيداً متحمساً للصهيونية»، وعندما أخذ هيرتزل بشرح أهداف الصهيونية، قاطعه فون بليهفي قائلاً: «أنت تعظ المرتد». عاموس إيلون، «هيرتزل»، عام أوفيد، ١٩٧٦، صفحة ٤١٥-١٩، بالعبرية.

٢٨ - دكتور جواشيم برنز، «نحن اليهود»، برلين، ١٩٣٤، صفحة ١٥-١.

٢٩ - المرجع السابق، صفحة ١٥٤-٥٥

٣٠ - مثلاً، انظر المرجع السابق، صفحة ١٣٦، حتى أسوأ عبارات التعاطف مع النازية صدرت عن منظمة «لوهامي حيروت يسرائيل» (عصابة شتيرن) المتطرفة، حتى عام ١٩٤١. والدكتور برنز، وهو من «الحمائم» حسب التعابير الصهيونية، أيد خلال السبعينات حركة بريرا اليهودية الأميركية، حتى أقنعته غولدا مائير بأن يغير رأيه.

الفصل الخامس

القوانين ضد غير اليهود

كما شرحنا في الفصل الثالث، تعتمد الهالاخاه (Halakhah)، باعتبارها النظام القانوني لليهودية الكلاسيكية - كما مارسه كل اليهود تقريباً، منذ القرن التاسع وحتى نهاية القرن الثامن عشر، وكما يحافظ عليه حتى اليوم بشكل اليهودية الأرثوذكسية - أساساً، على التلمود البابلي. وبالنظر لتعقيد وصعوبة المناظرات القانونية المسجلة في التلمود، دعت الضرورات إلى مجموعات مصنفة للقانون التلمودي، وبالفعل، قام بجمعها علماء دينيون في الأجيال المتعاقبة. وأصبح بعض هذه المجموعات مرجعاً هاماً وشاع استعماله. ولهذا السبب سنشير في الغالب، إلى هذه المجموعات (وشروحها الأكثر شهرة) بدلاً من الإشارة إلى التلمود مباشرة. وصحيح في أي حال أن نفترض أن المجموعة التي يشار إليها تعكس معنى النص التلمودي بأمانة، وكذلك الإضافات التي أدخلها علماء متأخرون على أساس ذلك المعنى.

أقدم مجموعة للقانون التلمودي ما زالت ذات أهمية كبرى، هي ميشناه توراه (Mishneh Torah) التي كتبها موسى بن ميمون في القرن الثاني عشر. والمجموعة المستعملة على نطاق واسع كدليل هي شولبان آروخ (Shulban A'rukh) التي ألفها الحاخام يوسف كارو (Yosef Karo) في القرن السادس عشر، كنسخة شعبية موجزة لمؤلفه الضخم «بيت يوسف» (Beyt Yosef) المخصص للدراسات العليا. والتعليقات على

شولبان آروخ كثيرة، ففضلاً عن الشروح التقليدية التي يرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر، هناك شرح هام تم في القرن العشرين هو ميشناه بيروراه (Mishneh Berurah)، وأخيراً، الموسوعة التلمودية - وهي مجموعة حديثة نشرت في إسرائيل عام ١٩٥٠م، وقد حررها كبار الحاخامات العلماء المتشددين - وتمثل خلاصة وافية للأدب التلمودي بكامله.

القتل وإبادة الجنس

وفق أحكام الديانة اليهودية يعتبر قتل اليهودي جريمة كبرى عقوبتها الإعدام، وإحدى أشنع الخطايا الثلاث (الخطيئتان الأخريان هما عبادة الأوثان والزنا). والمحاكم الدينية اليهودية والسلطات العلمانية ملزمة بمعاقبة قاتل اليهودي، حتى خارج نطاق إجراءات العدالة المعتادة. ويعتبر اليهودي الذي يتسبب، بصورة غير مباشرة، بموت يهودي آخر، مذنباً بما يدعوه القانون التلمودي خطيئة ضد «قانون السماء»، ويعاقبها الله لا الإنسان.

عندما يكون الضحية غير يهودي، يكون الأمر مختلفاً تماماً، فاليهودي الذي يقتل غير اليهودي مذنب بارتكاب خطيئة ضد قانون السماء والمحكمة لا تعاقب عليها(١). أما التسبب في موت غير يهودي، بطريقة غير مباشرة، فلا يعتبر خطيئة على الإطلاق(٢).

وهكذا، يقول إثنان من أهم شرّاح شولبان آروخ، أنه عندما يتعلق الأمر بغير يهودي: «يجب أن لا يرفع المرء يده لإيذائه، إذ يمكن إيذاؤه بصورة غير مباشرة، مثلاً، نقل السلم بعد أن يقع في حفرة... ولا حظر هنا، لأن الأمر تم بصورة غير مباشرة»(٣)، ويلفت الانتباه أن التصرف المؤدي إلى موت غير اليهودي، بصورة غير مباشرة، ممنوع إذا كان من شأنه نشر العداء تجاه اليهود(٤).

القاتل غير اليهودي الخاضع للولاية اليهودية، يجب أن يعدم سواء كان الضحية يهودياً أو غير يهودي، وإذا كان القتيل غير يهودي، وتحول القاتل إلى اليهودية، فلا يعاقب(٥).

لكل هذا صلة عملية مباشرة بواقع الحال في دولة إسرائيل، فرغم أن القوانين الجزائية الإسرائيلية لا تميز بين اليهودي وغير اليهودي، فالمؤكد هو أن الحاخامين الأرثوذكس، الذين يرشدون جمهورهم لاتباع الهالاخاه، يميزون. والنصيحة التي يسدونها للجنود المتدينين ذات أهمية خاصة.

لما كان حظر قتل غير اليهود، في حده الأدنى، ينطبق فقط على «غير اليهود الذين لا نكون (نحن اليهود) في حالة حرب معهم»، توصل العديد من الشراح الدينيين إلى نتيجة منطقية وهي أنه في حالة الحرب، يمكن أو حتى يجب قتل جميع المنتسبين إلى شعب معادٍ(٦). ومنذ عام ١٩٧٣، أذيعت هذه العقيدة على نطاق واسع لإرشاد الجنود الإسرائيليين المتدينين. وقد نشر هذا التحريض رسمياً، لأول مرة، في كتيب صادر عن قيادة المنطقة الوسطى في الجيش الإسرائيلي، والتي تشمل ولايتها منطقة الضفة الغربية. ويكتب الكاهن الأول في القيادة في هذا الكتيب: «عندما تلتقي قواتنا بمدنيين خلال الحرب أو خلال ملاحقة ساخنة أو غزو، ولم يكن مؤكداً أن أولئك المدنيين غير قادرين على إيذاء قواتنا، فوفق أحكام الهالاخاه، يمكن، لا بل يجب قتلهم... والثقة بعربي غير جائزة في أي ظرف، حتى إذا أعطى انطباعاً بأن متحضر...، في الحرب، عندما تهاجم قواتنا العدو، فهي مصرح لها، لا بل مأمورة وفق أحكام الهالاخاه، بأن تقتل حتى المدنيين الطيبين، أي الذين يبدو ظاهرياً، أنهم طيبون»(٧)

العقيدة نفسها مشروحة في الرسائل التالية المتبادلة بين جندي إسرائيلي شاب وحاخامه، ونشرت في الكتاب السنوي لإحدى أهم الكليات الدينية في البلاد، ميدراشيات نوعام (Midrashiyat No'am) التي

تعلم فيها العديد من قادة ونشطاء الحزب القومي الديني وغوش إيمونيم(٨).

رسالة من الجندي موشي إلى الحاخام شيمون ويزر:

«بمعونة الله، إلى صاحب الشرف، حاخامي العزيز،

أولاً، أود أن أسأل كيف حالك وعائلتك؟ آمل أن تكونوا بخير. أنا، والحمدالله، أشعر بأني جيد. لم أكتب منذ مدة طويلة. أرجو أن تسامحني. أحياناً أتذكر القول: «متى سآتي وأمثل أمام الله؟»(٩) آمل، من دون أن أكون متأكداً، أن آتي خلال إحدى الإجازات. يجب أن أفعل.

في إحدى المباحثات في مجموعتنا، ثار جدال حول «طهارة السلاح». وبحثنا ما إذا كان مسموحاً قتل الرجال غير المسلحين، أو النساء والأطفال، أو ربما الانتقام من العرب؟ وعندها أجاب كل واحد حسب معلوماته. لم أستطع التوصل إلى قرار واضح، عما إذا كان يجب أن يعامل العرب كالعماليق، أي أن المرء مسموح له أن يقتلهم حتى يمحي ذكرهم تحت السماء(١٠)، أو أنه يتوجب شن حرب عادلة، أي أن يقتل المرء الجنود فقط؟

مشكلتي الثانية، هي هل يسمح لي أن أعرض نفسي للخطر بإبقاء امرأة حية؟ فقد كانت هناك حالات ألقت النسوة فيها قنابل. أو هل يسمح لي بأن أعطي العرب الذين يرفعون أيديهم ماء؟ لأنه قد يوجد سبب للخوف من أنهم يقصدون خداعنا، وسيقتلوننا، وقد حصلت حوادث عديدة.

أختم بتحية حارة إلى الحاخام وعائلته.

موشي

جواب الحاخام شيمون ويزر، إلى موشي:

بمعونة السماء، عزيزي موشي، تحية،

أبدأ كتابة رسالتي هذا المساء رغم أني أعرف أني لن أنهيها هذا المساء لأني مشغول، ولأني أرغب في كتابة رسالة طويلة للإجابة على أسئلتك بشكل واف، ولهذا الغرض عليّ أن أنسخ بعض أقوال حكمائنا الطيبي الذكر، وتفسيرها[١١].

الأمم غير اليهودية لها تقاليد خاصة من ضمنها قواعد خاصة بالحرب، وهي أشبه بقواعد المباراة، مثل قواعد كرة القدم أو كرة السلة. ولكن، حسب أقوال حكمائنا الطيبي الذكر [. . .] الحرب بالنسبة لنا ليست مباراة بل ضرورة حيوية، وحسب هذا المعيار فقط، يجب أن نقرر كيف نشنها. من جهة [. . .] يبدو أننا نتعلم أنه إذا قتل اليهودي غير يهودي، اعتبر قاتلاً ولكن لا محكمة تملك حق الحكم عليه، خطورة الفعل كخطورة أي قتل آخر. ولكننا نجد في أماكن أخرى في المراجع نفسها [. . .] كان الحاخام شيمون يقول: «أفضل غير يهودي - أقتله، وأفضل الأفاعي - أنزع فمه».

ربما أمكن القول أن تعبير «أقتل» في قول الحاخام شيمون، مجازي ويجب أن لا يؤخذ حرفياً، بل على أنه يعني «أقمع» أو ما شابه من المواقف، وبهذه الطريقة نتفادى التناقض بين المراجع التي أشرنا إليها في ما سبق. وقد يمكن للمرء أن يرتأي، أن هذا القول وإن كان قائله يعنيه حرفياً، هو (مجرد) رأي شخصي، ينازعه فيه حكماء آخرون (سبقت الإشارة إليهم). ولكننا نجد الإيضاح الحقيقي في التوسافوت (Tosafot) (الملحق)[١٢]. هناك [. . .] نجد التعليق التالي على قول التلمود أن غير اليهود الذين يقعون في بئر، يجب أن لا نساعدهم على الخروج منه، كما يجب أن لا ندفعهم فيه ليموتوا، وهذا يعني أنه يجب أن لا ينقذوا من الموت ولا أن يقتلوا بصورة مباشرة. والتوسافوت يورد ما يلي: «وإذا

كان هناك تساؤل حول القول في مكان آخر: «أفضل غير اليهود - أقتله»، فالجواب هو أن هذا القول مقصود في الحرب» [. . .].

وفق شروح التوسافوت، يجب أن نميز بين حالة الحرب والسلم. ففي حالة السلم يمنع قتل غير اليهود، أما خلال الحرب فالواجب الديني (mitzrah) يقضي بأن نقتلهم [. . .].

وهذا هو الفرق بين اليهودي وغير اليهودي، رغم أن القاعدة هي: «من يأتي لقتلك، أقتله أولاً»، تنطبق على اليهودي، وكما ورد في مقالة السنهدرين (Sanhedrin)، في التلمود، صفحة ٢٧أ، فهي تنطبق عليه إذا كان هناك مبرر حقيقي «للخشية من أنه جاء ليقتلك»، أما غير اليهودي، إبان الحرب، فيفترض ذلك في العادة، باستثناء حالة ما إذا كان واضحاً تماماً أن لا قصد سيء لديه. هذا هو قانون «طهارة السلاح» وفق أحكام الهالاخاه، وليس التصور الغريب المقبول الآن في الجيش الإسرائيلي والذي تسبب في إصابات (يهودية) عديدة. أرفق قصاصة جريدة فيها الخطاب الذي ألقاه الحاخام لما كان كاهناً في الكنيس، وهي تظهر بصورة حية ومؤلمة أيضاً، كيف تسببت «طهارة السلاح» بالموت.

أختم هنا، آملاً أن لا تجد طول الرسالة مزعجاً. كان هذا الموضوع قيد البحث بدون رسالتك، ولكن رسالتك جعلتني أكتب عن المسألة بكاملها.

كن بسلام، أنت وجميع اليهود، وآمل أن أراك سريعاً، كما تقول.

المخلص لك شيمون

جواب من موشي إلى الحاخام شيمون ويزر:

إلى صاحب الشرف، حاخامي العزيز،

أولاً، آمل أن تكون وعائلتك بصحة جيدة، والكل بخير.

تسلمت رسالتك الطويلة وأنا ممتن لرعايتك الشخصية لي، لأني

أعلم أنك تكتب لكثيرين، ومعظم وقتك مستغرق في دراسات برنامجك الخاص، لذا، شكري لك عميق جداً.

أما بالنسبة للرسالة فقد فهمتها، كما يلي:

«خلال الحرب، ليس مصرح لي فحسب، بل مأمور بأن أقتل أي عربي أصادفه، رجلاً كان أو امرأة، إذا كان هناك سبب للخوف من أن يساعدوا في الحرب ضدنا، مباشرة أو مداورة. الأمر الذي يهمني هو أنه علي أن أقتلهم ولو كان ذلك يتعارض مع القانون العسكري. أعتقد أن مسألة طهارة السلاح هذه يجب أن تحال إلى المعاهد التعليمية، وفي الأقل الدينية منها، كي تحدد موقفاً من هذا الموضوع ولا تتوه في حقل «المنطق» الواسع، وخاصة حول هذا الموضوع. وينبغي أيضا شرح الأحكام كما يتوجب تطبيقها في الممارسة. لأني، وآسف لقول هذا، سمعت أنواعاً مختلفة من «المنطق» من رفاقي المتدينين. آمل أن تنشط بالنسبة لهذا الموضوع، حتى يتعلم أولادنا خط أسلافهم بوضوح ومن دون لبس.

أختم هنا، آملاً أن أتمكن، عند انتهاء الدورة التدريبية بعد شهر تقريباً، من الحضور إلى اليشيفا (الكلية التلمودية). تحياتي.

موشي

طبعاً، تتعارض عقيدة الهالاخاه حول القتل، من حيث المبدأ، لا مع القوانين الجزائية الإسرائيلية فحسب - كما هو مبين في الرسائل - بل ومع التعليمات العسكرية الرسمية. والمجال ضئيل في أي حال للشك في أن لهذه العقيدة تأثيراً على الإجراءات القانونية العملية، وخاصة لدى السلطات العسكرية. والحقيقة هي أنه في كل الحالات التي قتل فيها يهود، في مجال عسكري أو شبه عسكري، عرباً غير محاربين، وحتى في حالات القتل الجماعي، كما جرى في كفرقاسم عام ١٩٥٦م، أوقع على القتلة، إذا لم يسامحوا تماماً، عقاب خفيف، أو حصلوا على تخفيف للعقوبة يصل بها إلى العدم، تقريباً[١٣].

إنقاذ الحياة

موضوع القيمة العليا لحياة الإنسان، والتزام كل إنسان ببذل أقصى جهده لإنقاذ حياة رفيقه الإنسان، ذا أهمية ذاتية واضحة. كما أنه ذو أهمية خاصة في المجال اليهودي، بالنظر لأن الرأي العام اليهودي، منذ الحرب العالمية الثانية - بحق أحياناً، ومن دون حق أحياناً أخرى - قد لعن «العالم كله»، وفي الأقل أوروبا، لوقوفه لامبالياً عندما كان اليهود يذبحون. دعونا لذلك نتحرى ما تقوله الهالاخاه عن هذا الموضوع.

وفق أحكام الهالاخاه، واجب إنقاذ الرفيق اليهودي ذو قيمة سامية[١٤]. وهو ينسخ كل تحريم أو التزام ديني آخر، في ما عدا الخطايا الكبرى الثلاث وهي الزنا (بما في ذلك سفاح المحارم) والقتل وعبادة الأوثان.

أما بالنسبة لغير اليهود، فالقاعدة حسب المبدأ التلمودي، هي أن إنقاذهم ليس واجباً، كما أنه محظور قتلهم. ويعبر التلمود نفسه[١٥] عن هذا المبدأ بالقول: «غير اليهود ليس واجباً رفعهم (من البئر) ولا إنزالهم (فيها)». وهذا ما يشرحه ابن ميمون[١٦] بقوله: «بالنسبة لغير اليهود الذين لا نكون في حالة حرب معهم... يجب أن لا نتسبب في موتهم ولكن يحظر علينا إنقاذهم إذا كانوا على وشك الموت. مثلاً، إذا شوهد أحدهم يسقط في البحر وجب عدم إنقاذه، لأنه مكتوب «لا تقف ضد دم رفيقك»[١٧]، وغير اليهود ليس رفيقك».

ويجب على الطبيب اليهودي بصورة خاصة أن لا يعالج مريضاً غير يهودي. وابن ميمون - كطبيب شهير هو نفسه - واضح تماماً حول هذا الأمر في فقرة أخرى[١٨]، وهو يكرر التمييز بين الرفيق وغير اليهودي ويستنتج: «ومن هذا تعلم، أنه محظور عليك شفاء غير اليهود، ولو لقاء أجر...».

وفي أي حال، يمكن أن يؤدي رفض اليهودي - لاسيما إذا كان

طبيباً - إنقاذ حياة غير اليهودي إلى إثارة غير يهود أقوياء، مما يعرض اليهود للخطر، فإذا وجد هذا الخطر، فإن واجب تفاديه ينسخ كل حظر على مساعدة غير اليهود. وهكذا يواصل إبن ميمون: «. . . أما إذا خشي منه أو من عداوته، فعالجه مقابل أجر، ويبقى ممنوعاً أن نفعل ذلك من دون أجر». وابن ميمون نفسه، كان طبيب صلاح الدين الخاص. وإصراره على طلب الأجر - لضمان عدم كون الفعل خيرياً إنسانياً بل واجباً لا يمكن اجتنابه - ليس مؤكداً، لأنه يبيح في فقرة أخرى معالجة غير اليهودي» مجاناً إذا كانت تخشى عداوته، ولا يمكن تجنبها.

هذه العقيدة بكاملها - حظر إنقاذ حياة غير اليهودي أو علاجه، وتعليق الحظر في حالات الخوف من العداوة - مكررة (حرفياً) في مراجع رئيسية أخرى مثل «أربعاه توريم» (Arba'ah Turim) في القرن الرابع عشر، و«بيت يوسف» لكارو و«شولبان آروخ»[١٩]. ويضيف «بيت يوسف»، مقتبساً من ابن ميمون: «ومسموح أن تجرب الدواء على الكافر، إذا كان هذا يخدم غرضاً» وهذا ما يكرره الحاخام موسى إيسرليس (Moses Isserless) الشهير.

تجمع مراجع الهالاخاه على أن المقصود بتعبير «غير اليهود في هذه القاعدة» هو كل غير اليهود. والصوت المعارض الوحيد هو صوت الحاخام موسى ريفكيس (Moses Rivkes)، مؤلف شرح ثانوي لكتاب «شولبان آروخ»، الذي كتب: «قال حكماؤنا هذا عن الكفار الذين عبدوا الأصنام، في أيامهم، ولم يؤمنوا بخروج اليهود من مصر، وخلق العالم من العدم. أما غير اليهود الذين نحن في ظلهم (حمايتهم)، والذين نفي إليهم شعب إسرائيل، وتبعثرنا بينهم، فهم يؤمنون بخلق العالم من العدم والخروج ومبادئ عدة أخرى من مبادئ ديانتنا وهم يصلون لخالق السموات والأرض، لذا، فتقديم المعونة لهم ليس غير محظور فحسب، بل والصلاة من أجل سلامتهم واجب ملزم»[٢٠].

هذه الفقرة التي تعود إلى أواسط القرن السابع عشر، اقتباس محبب

لدى العلماء التبريريين[٢١]. وهو في الحقيقة لا يذهب إلى المدى الذي يزعمونه لأنه يدعو إلى رفع الحظر عن إنقاذ حياة غير اليهودي، بدلا من جعله إلزامياً، كما هو الحال بالنسبة لليهودي. وهذه الليبرالية تشمل المسيحيين والمسلمين وليس غالبية البشر. والأحرى، هو أنها تظهر الطريقة التي يمكن بها تحرير عقائد الهالاخاه القاسية باضطراد. ولكن الحقيقة تبقى أن غالبية المراجع اللاحقة بعيدة عن إبداء رحمة ريفكيس إزاء المجموعات البشرية، وقد رفضتها جملة وتفصيلاً.

إنتهاك حرمة السبت لإنقاذ الحياة

إنتهاك حرمة السبت - أي القيام بعمل محظور - يصبح واجباً إذا كان لازماً لإنقاذ حياة يهودي.

مسألة إنقاذ غير اليهودي يوم السبت لا يثيرها التلمود كموضوع رئيسي لأنه محظور حتى في أيام الأسبوع الأخرى، ولذا فهو لا يعتبر عاملاً مربكاً في مجالين:

الأول، هناك مشكلة ما إذا كانت مجموعة من الناس معرضة للخطر، وكان ممكناً (وليس أكيداً) أن بينهم يهودي واحد، فهل تنتهك حرمة السبت لإنقاذهم؟ هناك بحث مستفيض لهذه الحالات. وورد إتباعاً للمراجع القديمة، بما فيها بن ميمون نفسه والتلمود، في مجموعة «شولبان آروخ»[٢٢]، أن هذه المسائل تبت وفق قانون الاحتمالات. مثلاً، لنفترض أن يهودياً وتسعة من غير اليهود يعيشون في المبنى نفسه. وذات سبت انهار المبنى، وكان أحد العشرة - لم يعرف من هو - قد غادره ولكن التسعة الباقون طمروا تحت الأنقاض. فهل يجب أن ترفع الأنقاض وبذلك تنتهك حرمة السبت، لأن اليهودي قد لا يكون تحت الأنقاض؟ (فقد يكون هو الذي ابتعد عن المبنى). «شولبان آروخ» ترى أنه واجب، لأن احتمالات وجود اليهودي تحت الأنقاض عديدة (تسعة إلى واحد). ولكن لنفترض أن تسعة كانوا قد غادروا المبنى، وواحد فقط

(غير معروف من هو)، طمر تحت الأنقاض، هنا لا حاجة لرفع الأنقاض، ربما على افتراض أن احتمالات كون اليهودي هو المدفون ضعيفة (واحد إلى تسعة). وبالمثل، إذا شوهد مركب على متنه بعض اليهود معرضاً للخطر في البحر، فواجب الجميع أن ينتهكوا حرمة السبت لإنقاذه. ولكن الحاخام الكبير عكيفا إيجر (Aqiva Eiger) المتوفي عام ١٨٣٨، يقول إن هذا يطبق عندما يكون معلوماً «أن هناك يهوداً على متنه»، أما إذا كانت هويات الركاب غير معروفة فلا يجوز أن تنتهك حرمة السبت، لأن الإنسان يتصرف في ضوء وزن الاحتمالات، وغالبية الناس في العالم، من غير اليهود[٢٣]، وما دام احتمال وجود ركاب يهود ضعيفاً، فيجب أن يتركوا للغرق.

ثانياً، الحكم القاضي بالسماح بإنقاذ غير اليهودي أو العناية به لتفادي خطر عداوته يتقلص يوم السبت. فاليهودي الذي يطلب إليه أن يساعد غير اليهودي خلال الأيام العادية يمكنه أن يلبي الطلب، لأن الاعتراف بحظر إنقاذ حياة غير اليهودي، من حيث المبدأ، يجلب العداء. أما يوم السبت فيمكن لليهودي أن يستخدم التقيد بالسبت كحجة معقولة للإعتذار. والتلمود يبحث قضية نموذجية بالتفصيل[٢٤]، وهي حالة استدعاء قابلة يهودية لمساعدة امرأة غير يهودية جاءها المخاض، فالمنطلق هو أن القابلة تستطيع تقديم المساعدة في الأيام العادية «خشية العداوة»، أما يوم السبت، فعليها أن لا تفعل، لأنها تستطيع الاعتذار بالقول: «مصرح لنا بانتهاك حرمة السبت لمصلحتنا فقط، لأننا نتقيد بحرمة السبت، أما أنتم الذين لا تتقيدون بذلك، فلا يسمح لنا بانتهاك حرمة من أجلكم». هل هذا الإيضاح حقيقي أم مجرد عذر؟ واضح أن ابن ميمون يعتقد أنه مجرد عذر يمكن استخدامه حتى ولو كان العمل الذي يطلب إلى القابلة أن تقوم به لا يشكل انتهاكاً لحرمة السبت. والمفروض هو أن يقبل هذا العذر في هذه الحالة، لأن غير اليهود يجهلون في الغالب، الأعمال التي يمنع اليهود من القيام بها يوم السبت، ويقرر: «ولا

يجوز في أي حال مساعدة امرأة غير يهودية في حالة ولادة يوم السبت، ولو مقابل أجر، ويجب أن لا يخاف المرء من العداء، حتى ولو كان العون لا يشكل انتهاكاً لحرمة السبت». ومجموعة «شولبان آروخ» تقر الحكم نفسه(٢٥).

ولا يمكن رغم ذلك الاعتماد على عذر من هذا النوع لتفادي العداوة، ولذلك، اضطرت بعض المراجع الدينية الهامة إلى تلطيف هذه القاعدة إلى حد ما، والسماح للأطباء اليهود بمعالجة غير اليهود يوم السبت ولو اضطروا للقيام ببعض الأعمال المحظورة عادة. وهذا التلطيف الجزئي ينطبق بصورة خاصة على حالة المرضى الأغنياء والنافذين الذين لا يمكن خداعهم بسهولة، والذين قد تكون عداوتهم خطرة.

ولهذا، أفتى الحاخام يوئيل سيركيس (Yo'el Sirkis)، مؤلف «بيت حداش» (Bayit Hadash)، وأحد أكبر الحاخامات في زمانه (بولندا القرن السابع عشر) بأن المحافظين وصغار النبلاء والأرستقراطيين يمكن أن يعالجوا يوم السبت لتفادي عداوتهم التي تنطوي على «بعض الخطر». أما في الحالات الأخرى، وخاصة عندما يكون خداع غير اليهودي ممكناً، بعذر غامض، فالطبيب اليهودي يقترف «خطيئة لا تحتمل» إذا عالج شخصاً يوم السبت. وصدرت في وقت لاحق من القرن نفسه، فتوى مماثلة في مدينة ميتز (Metz) في فرنسا، والتي يفصل بين قسميها جسر عائم، ولما كان محظوراً على اليهود أن يعبروا فوق هذا الجسر يوم السبت، فإن حاخام ميتز أفتى بأنه يجوز للطبيب اليهودي أن يعبر الجسر إذا «دعي إلى الحاكم الكبير» لأنه معروف أن الطبيب يستطيع عبور الجسر لمعالجة المرضى اليهود، لذا فرفضه قد يثير عداوة الحاكم. وتحت حكم لويس الرابع عشر، كان الحصول على مودة حكامه ضرورياً، أما مشاعر غير اليهود الأدنى رتبة فذات أهمية ضئيلة(٢٦).

ويذكر «هوخمات شلومو» (Hokhmat Shlomo)، أحد شروح القرن

التاسع عشر لمجموعة «شولبان آروخ»، تفسيراً محدوداً مماثلاً بالنسبة لمفهوم «العداوة» في ما يتعلق بالكاريت، الطائفة اليهودية المنشقة الصغيرة. ووفق هذا التفسير، لا يجوز إنقاذ حياتهم إذا استلزم ذلك انتهاك حرمة السبت، لأن «العداوة» تنطبق على الكفار فقط، لأنهم كثيرون ومعادون لنا، ونحن بين أيديهم. . . ولكن الكاريت قليلون ولسنا تحت رحمتهم، فالخوف من «العداوة» لا ينطبق عليهم أبداً[٢٧]، وفي الواقع، ما زال تحريم انتهاك حرمة السبت لإنقاذ حياة الكاريت سارياً حتى اليوم، كما سنرى.

والموضوع بكامله مبحوث تفصيلياً في «الجواب Responsa» للحاخام موشي سوفير - المشهور باسم هاتام سوفير (Hatam Sofer) - حاخام بريستبرغ (براتيسلافا حاليا)، المتوفي عام ١٨٣٢م. وأهمية استنتاجاته لا تقتصر على الناحية التاريخية لأن كبير حاخامات إسرائيل عام ١٩٦٦م، صرح علناً بأن «الجواب» يشكل مرجعاً أساسياً للهالاخاه[٢٨]. والسؤال المحدد الذي طلب جوابه من هاتام سوفير يتعلق بالوضع في تركيا التي أصدرت قانوناً خلال إحدى الحروب، يقضي باتباع القابلات لنظام المناوبة في كل مدينة أو قرية، بحيث يكن حاضرات لتأجير أنفسهن لأي امرأة يأتيها المخاض. وبعض هؤلاء القابلات يهوديات، فهل يتوجب عليهن تأجير أنفسهن، لمساعدة النسوة غير اليهوديات، خلال الأيام العادية ويوم السبت؟

يتوصل هاتام سوفير في جوابه[٢٩]، بعد استقصاء دقيق، إلى استنتاج أولي هو أن غير اليهود المعنيين - أي العثمانيين المسيحيين والمسلمين - ليسوا فقط عبدة أصنام «ممن يعبدون آلهة أخرى»، ويجب بالتالي أن «لا يرفعوا - من البئر - أو يدفعوا فيه» بل هم في نظره يشبهون العماليق ولذلك ينطبق عليهم حكم التلمود بأنه «يحظر إكثار نسلهم». وبناء عليه، لا تجوز، من حيث المبدأ، مساعدتهم حتى خلال أيام الأسبوع العادية. ورغم ذلك، يسمح عملياً بمعالجة غير اليهوديات

ومساعدتهن في المخاض إذا كان لهن أطباء وقابلات يمكن اللجوء إليهم بدلاً من اليهود، لأن رفض القابلة أو الطبيب اليهودي سيؤدي إلى خسارة الدخل، وهذا بالطبع، غير مرغوب فيه. وهو ينطبق تماماً على يوم السبت، إلا إذا كان ممكناً استخدام السبت عذراً لتضليل المرأة غير اليهودية والقول بأن ذلك يشكل انتهاكاً لحرمة السبت.

أما في خصوص الحالات الأخرى التي تشكل فعلاً انتهاكاً لحرمة السبت، فهاتام سوفير - شأنه شأن المراجع الأخرى - يميز بين فئتين من الأعمال المحظورة يوم السبت، الأول، هناك أعمال تحرمها التوراة، أي النص التوراتي (كما هو مفسر في التلمود)، وهذه لا يجوز أن تمارس إلا في حالات استثنائية جداً، من شأن الرفض فيها أن يسبب أعمالاً عدوانية خطيرة ضد اليهود. وهناك الأعمال التي يحظرها الحكماء الذين توسعوا في القانون التوراتي الأساسي، والموقف من حظرها أقل تشدداً بصورة عامة.

أحد أجوبة هاتام سوفير[٣٠] الأخرى يعالج ما إذا كان مسموحاً للطبيب اليهودي أن يركب عربة يوم السبت للذهاب لمعالجة غير يهودي. وهو يلفت النظر إلى أن السفر في عربة تجرها الجياد يوم السبت، يشكل حظراً فرضه الحكماء وليس التوراة، ثم يستذكر تصريح ابن ميمون القائل بأن مساعدة غير اليهودية التي يأتيها المخاض يوم السبت، غير جائزة حتى ولو لم تنطو المساعدة على انتهاك لحرمة السبت، ويبدي أن المبدأ نفسه ينطبق على العلاج الطبي وليس على القبالة فحسب، ولكنه عبر عن الخوف من ممارسته عملياً لأنه «سيثير عداءً غير مرغوب فيه» ولأن «غير اليهود لن يقبلوا التقيد بحرمة السبت عذراً» وسيقولون «إن دم الوثني لا قيمة له في نظرنا»، وربما كان الأكثر أهمية هو احتمال أن ينتقم الأطباء غير اليهود من مرضاهم اليهود، ولذلك يجب إيجاد أعذار أفضل وهو ينصح الأطباء اليهود الذين يدعون لمعالجة مريض غير يهودي، خارج المدينة، بأن يعتذروا بالاضطرار للبقاء في المدينة لمعالجة مرضى

آخرين. ويمكن اللجوء لهذا العذر بالقول: «لا أستطيع الانتقال بسبب الحالة الخطرة لهذا المريض أو ذاك، الذين هم في حاجة أشد لطبيب، ولا يجوز لي أن أتخلى عن مسؤوليتي». بمثل هذا العذر، لا خوف من الخطر، لأنه عذر مقبول، غالباً ما يعتذر به الأطباء الذين يتأخرون في الوصول ويحتجون بأن مريضاً آخر كان بحاجة إليهم أولاً. «فقط» إذا تعذر تقديم عذر، أي عذر، يسمح للطبيب بأن يسافر في عربة يوم السبت، كي يعالج مريضاً غير يهودي.

الموضوع الرئيسي في البحث كله هو الأعذار التي يجب أن تبدى، وليس شفاء المريض أو مصلحته. وطوال البحث يعتبر جواز خداع غير اليهود بدلاً من علاجهم أمراً مسلماً به، ما دام تفادي العداء ممكناً[٣١].

طبعاً، في العصور الحديثة، كان معظم الأطباء غير متدينين ولا علم لهم بهذه القواعد. وفضلاً عن ذلك، فإن العديد ممن كانوا متدينين يفضلون - وهذا يسجل لهم - التقيد بقسم أبقراط، بدلاً من أوامر الحاخامين المتطرفين[٣٢]. ولكن إرشادات الحاخامين تؤثر، ولا شك، على بعض الأطباء، وهناك بالتأكيد كثيرون ممن لا يتقيدون بهذه الإرشادات ولكنهم يختارون عدم معارضتها علناً.

هذا الموضوع، بعيد كل البعد عن أن يكون منتهياً. والموقف الهالاخي الأحدث من هذه المسائل، وارد في كتاب حديث مختصر يعتبر مرجعاً، وقد نشر بالإنجليزية بعنوان «القانون الطبي اليهودي»[٣٣]. هذا الكتاب الذي يحمل دمغة المؤسسة الإسرائيلية المحترمة (موساد هاراف كوك Mosad Harav Kook)، يستند إلى جواب الحاخام أليعازار يهودا والدنبرغ (Eli'ezer Yehuda Waldenberg)، كبير قضاة المحكمة الحاخامية بالقدس. وبعض فقرات هذا العمل تستحق الذكر بصورة خاصة.

أولاً، يحظر انتهاك حرمة السبت من أجل الكاريت[٣٤]. هذا

مذكور بفظاظة وبصورة مطلقة ومن دون أي قيد أو شرط. إذ المفروض هو أن عداوة هذه الطائفة الصغيرة لا تؤثر، لذا يجب أن يتركوا حتى يموتوا بدل معالجتهم يوم السبت.

وبالنسبة «للغير اليهود»، وفق الأحكام الواردة في التلمود ومجموعات القوانين اليهودية، لا يجوز انتهاك حرمة السبت - سواء بخرق قانون توراتي أو حاخامي - لإنقاذ حياة مريض غير يهودي في حالة خطرة. كما لا يجوز توليد امرأة غير يهودية، يوم السبت[٣٥].

ولكن هذا، يخضع في كل حال، لإعفاء يسمح اليوم بانتهاك حرمة السبت نيابة عن غير يهودي للقيام بتصرفات يحظرها القانون الحاخامي، لأننا بذلك نتفادى نشوء المشاعر العدائية بين اليهود وغير اليهود[٣٦].

ولكن هذا الإعفاء لا يذهب بعيداً، لأن العلاج الطبي يستلزم في العادة، تصرفات تحرمها التوراة نفسها يوم السبت، وهي غير مشمولة بهذا الإعفاء. وهناك، كما يقال لنا، بعض المراجع الهالاخية التي تتوسع في الإعفاء ليشمل تلك التصرفات كذلك، ولكن هذه طريقة أخرى للقول بأن معظم المراجع الهالاخية والتي يعتد بها، تعتمد الرأي المعاكس. غير أننا لم نخسر شيئاً، ففي القانون الطبي اليهودي حل لهذه العقبات، يقطع النفس.

هذا الحل يستند إلى نقطة دقيقة في القانون التلمودي. فالحظر الذي تفرضه التوراة على القيام بأي تصرف يوم السبت، ينطبق عندما يكون القصد الأساسي من القيام به هو تحقيق النتيجة الفعلية لذلك التصرف (مثلاً، طحن القمح حظرته التوراة إذا كان القصد الحقيقي منه هو الحصول على الدقيق حصراً). من جهة أخرى، إذا كان القيام بالتصرف نفسه يؤدي إلى هدف آخر، تغيرت طبيعة التصرف - بالتأكيد، يبقى محظوراً، ولكن بأمر الحكماء، لا بأمر التوراة - ولذلك: «لتفادي أي مخالفة للقانون، هناك أسلوب مقبول قانونياً لتقديم العلاج لمريض غير

يهودي حتى عندما يشكل ذلك خرقاً للقانون التوراتي وهو يقترح أن تكون نوايا الطبيب، أثناء تقديمه العناية الطبية اللازمة، متجهة لا لشفاء المريض أولاً، بل لحماية نفسه، وحماية اليهود من اتهامات التمييز الديني والانتقام الحاد الذي قد يتعرض له هو خاصة، والشعب اليهودي عامة. بهذا القصد، يصبح أي تصرف يقوم به الطبيب، تصرفاً نتيجته غير ما قصد به أساساً... وهذا لا يحظره القانون الحاخامي يوم السبت»[٣٧].

البديل الزائف لقسم أبقراط مقترح هو أيضاً في مرجع عبري حديث[٣٨].

رغم أن هذه الوقائع ذكرت في الصحف، مرّتين في الأقل فقد ظلت نقابة أطباء إسرائيل[٣٩]، صامتة.

أما وقد عالجنا بشيء من التفصيل الموضوع الهام جداً وهو موقف الهالاخاه من حياة غير اليهودي، فسنعالج بإيجاز بعض أحكام الهالاخاه الأخرى والتي تميز ضد غير اليهود. ولما كان عدد هذه الأحكام كبيراً جداً، فسنذكر بعض الأحكام الهامة فقط.

الجرائم الجنسية

الاتصال الجنسي بين امرأة يهودية متزوجة وأي رجل آخر غير زوجها، جريمة كبرى، بالنسبة للفريقين، وتعتبر إحدى الكبائر الثلاث. أما وضع المرأة غير اليهودية فمختلف تماماً. إذ تفترض الهالاخاه أن كل غير اليهود إباحيون تماماً، وينطبق عليهم القول: «لحمهم كلحم الحمير وقذفهم (المني) كقذف الجياد»[٤٠]. ولا فرق بين ما إذا كانت المرأة اليهودية متزوجة أو غير متزوجة، لأن مفهوم الزواج - بالنسبة لليهود - لا ينطبق عليها (لا زواج للوثني). وبناء عليه، فمفهوم الزنا لا ينطبق على اتصال يهودي بامرأة غير يهودية، بل إن التلمود[٤١]، يعتبر هذا الجماع خطيئة كالعلاقة الجنسية مع حيوان (وللسبب نفسه، يفترض بغير اليهود، بصورة عامة، أن لا أبوة لهم).

حسب ما ورد في الموسوعة التلمودية[٤٢] فإن من يعرف زوجة غير يهودي، لا يعاقب بالإعدام، لأنه مكتوب «زوجة رفيقك»[٤٣]، لا زوجة الغريب». وحتى مبدأ «على الرجل أن يلتصق بزوجته»[٤٤] الموجه لغير اليهود لا ينطبق على اليهود، لأن لا زواج للوثني. ورغم أن المرأة المتزوجة غير اليهودية محرمة على غير اليهود، فاليهودي مستثنى.

هذا لا يعني ضمناً أن الاتصال الجنسي بين اليهودي وغير اليهودية مباح؛ بل على العكس. ولكن العقوبة الرئيسية توقع على المرأة غير اليهودية إذ يجب أن تعدم ولو كان اليهودي قد اغتصبها؛ إذا اتصل غير يهودي جنسياً بغير يهودية، سواء كانت طفلة عمرها ثلاث سنوات أو بالغة، متزوجة أو غير متزوجة، وحتى لو كان قاصراً عمره تسع سنوات ويوم واحد؛ ولأنه اتصل بها جنسياً وجب أن تقتل، كما في حالة جماع الحيوان، لأن يهودياً تعرض للمشاكل بسببها[٤٥]. أما اليهودي فيجب أن يجلد لأنه اقترف جريمة مزدوجة، فالكوهين يجب أن لا يجامع بغياً، ويفترض أن كل النساء غير اليهوديات، بغايا[٤٦].

الوضع القانوني

بموجب أحكام الهالاخاه، يجب على اليهودي (إذا تمكن من ذلك)، أن لا يعين غير يهودي في وظيفة مسؤولة عن يهود، مهما كانت صغيرة (المثلان المألوفان هما آمر عشرة جنود في الجيش الإسرائيلي ومشرف قناة ري). والخطير في هذا الحكم أنه ينطبق على المتحولين إلى اليهودية ونسلهم (عبر الخط الأنثوي) لعشرة أجيال، طالما ظل السليل معروفاً.

يعتبر كل غير اليهود كذابين بالفطرة، ولا يحق لهم الإدلاء بشهادتهم أمام محكمة دينية. ووضعهم النظري في هذا الخصوص، يشبه وضع المرأة والقصر والعبيد، ولكنه أسوأ عملياً بكثير؛ فالمرأة اليهودية تقبل شهادتها اليوم على وقائع بعض المسائل، عندما تصدقها المحكمة الدينية، أما غير اليهودي فلا.

لذلك، تنشأ مشكلة عندما تدعو الحاجة لإثبات واقعة كل شهودها من غير اليهود. والمثل هام هو القضايا المتعلقة بالأرامل: فحسب القانون الديني اليهودي يمكن اعتبار المرأة أرملة؛ ولذا تستطيع الزواج ثانية إذا ثبتت وفاة زوجها ثبوتاً يقينياً عن طريق شهود رأوه يموت أو تعرفوا على جثته. وتقبل المحاكم الدينية في أي حال البينة السماعية من يهودي يشهد أنه سمع عن هذه الواقعة من شاهد غير يهودي، شريطة أن تقتنع المحكمة بأن الأخير قد تكلم عفوياً، لا جواباً على سؤال مباشر، لأنه يفترض بجواب غير اليهودي على سؤال مباشر من يهودي، أن يكون كاذباً[٤٧]. وإذا دعت الضرورة، يتحدث يهودي (والأفضل أن يكون حاخاماً) مع شاهد العيان غير اليهودي من دون أن يوجه إليه أي سؤال مباشر، ليستخلص منه إفادة عرضية عن الواقعة المقصودة.

المال والأملاك

١ - الهدايا: - التلمود يمنع بفظاظة إعطاء هدايا لغير اليهود. ورغم ذلك، خففت المراجع الدينية الكلاسيكية من هذه القاعدة لأن تقديم الهدايا مألوف بين رجال الأعمال ولمصادر المعلومات التجارية، ولذلك، تقرر أنه يمكن لليهودي أن يعطي هدية لغير يهودي من معارفه، لأنها لا تعتبر هدية، بل استثماراً يتوقع منه بعض الفائدة، بينما تبقى الهدايا لغير يهودي غير حسن الإطلاع محظورة. وهناك حكم مماثل ينطبق على الصدقات: إعطاء صدقة لمتسول يهودي واجب ديني، أما الصدقات للمتسولين من غير اليهود، فيسمح بها من أجل السلام فقط. وهناك في أي حال تحذيرات حاخامية عديدة ضد تعويد الفقير غير اليهودي على تلقي الصدقات من اليهود، كي يكون حجب هذه الصدقات ممكناً من دون إثارة عداء غير ضروري.

٢ - تقاضي الفائدة (الربا): - التمييز ضد غير اليهود في هذه المسألة أصبح نظرياً إلى حد كبير بسبب الإعفاءات (سبق شرحها في الفصل الثالث) التي تحلل بالفعل تقاضي الفائدة حتى من المقترض

اليهودي. لكن تبقى رغم ذلك حقيقة أن إقراض اليهودي من دون فائدة أمر مندوب كفعل خير، أما غير اليهودي، فتقاضي الفائدة منه إلزامي. وواقعياً، فإن العديد من - وإن لم يكن كل - المراجع الحاخامية، ومنها إبن ميمون، تعتبر تقاضي أقصى فائدة ممكنة من غير اليهودي، واجباً.

٣ - الأملاك المفقودة: - إذا وجد اليهودي شيئاً يحتمل أن يكون صاحبه يهودياً، فواجبه أن يعلن عنه علناً وأن يبذل جهده لإعادته. وبعكس ذلك، فالتلمود وكل المراجع الحاخامية القديمة، تسمح لمن يجد شيئاً فقده غير يهودي بأن يحتفظ به، وحتى تمنعه من إعادته[٤٨]. وفي العصور اللاحقة، عندما أصدرت معظم البلدان قوانين تلزم من يجد شيئاً بإعادته، أمرت المراجع الحاخامية اليهود بالتقيد بهذه القوانين، كتعبير عن طاعتهم للدولة، وليس كواجب ديني، أي من دون بذل جهد لاكتشاف المالك، إذا لم تكن يهوديته محتملة.

٤ - الخداع التجاري: - ممارسة أي نوع من الخداع للإضرار باليهود خطيئة خطيرة. أما بالنسبة لغير اليهودي فيحظر اللجوء إلى الخداع المباشر. والخداع غير المباشر مباح ما لم يتسبب في إثارة العداء نحو اليهود أو إهانة الديانة اليهودية. والمثل النموذج هو الحساب الخاطئ للأسعار أثناء الشراء. فإذا أخطأ يهودي فالواجب الديني يقضي بلفت نظره إلى الخطأ. أما إذا ارتكب غير اليهودي خطأ، فلا ضرورة لإخباره عنه، ويكتفى بالقول: «إني أعتمد على حساباتك»، لتفادي عداوته إذا اكتشف خطأه في وقت لاحق.

٥ - الاحتيال: - الاحتيال على اليهودي بالبيع أو الشراء بسعر غير معقول ممنوع، إلا أن هذا لا ينطبق على غير اليهود، لأنه مكتوب «لا يحتال رجل على أخيه»[٤٩]. أما غير اليهودي الذي يحتال على يهودي فيجبر على إعادة ما احتال لأخذه، ولكن عقوبته تكون أشد من عقوبة اليهودي (في حالة مماثلة)[٥٠].

٦ - السرقة والسلب: - السرقة (من دون عنف) ممنوعة إطلاقاً حتى من غير اليهودي، أما السلب (بالإكراه) فممنوع إطلاقاً إذا كان الضحية يهودياً. وسلب اليهودي لغير اليهودي ليس ممنوعاً إطلاقاً، بل في ظروف معينة «عندما لا يكون غير اليهود تحت حكمنا»، ومباح عندما «يكونون تحت حكمنا». وتختلف المراجع الحاخامية في ما بينها حول الظروف المحددة التي يجوز فيها لليهودي أن يسلب غير اليهودي، ولكن الحوار كله يدور حول القوة النسبية وسلطة اليهود وغير اليهود، بدلاً من الاعتبارات الإنسانية في مجال العدالة. وهذا يفسر لماذا احتج عدد قليل من الحاخامين على سلب ممتلكات الفلسطينيين، فيما أيدته غالبية السلطات اليهودية.

غير اليهود في أرض إسرائيل

فضلاً عن القوانين المعادية لغير اليهود بصورة عامة، تتضمن الهالاخاه قوانين خاصة بغير اليهود في أرض إسرائيل أو الذين يمرون عبرها، في بعض الحالات. والقصد من هذه القوانين هو تعزيز التفوق اليهودي في تلك البلاد.

التحديد الجغرافي الدقيق لعبارة «أرض إسرائيل» موضع نزاع شديد في التلمود والأدب التلمودي، وقد تواصل الجدال حتى الوقت الحاضر بين مختلف الاتجاهات الصهيونية؛ فوفق الآراء المتطرفة، تشمل أرض إسرائيل (بالإضافة إلى فلسطين نفسها)، لا كل سيناء والأردن وسوريا ولبنان فحسب، بل وأجزاء كبيرة من تركيا. وتضع التفاسير المعتدلة الأكثر شيوعاً الحدود الشمالية حوالي منتصف سوريا ولبنان، حوالي حمص. وهذا الرأي أيده بن غوريون. وحتى أولئك الذين يستثنون أجزاء من سوريا ولبنان، يتفقون على ضرورة تطبيق بعض القوانين التمييزية الخاصة (الأقل قمعاً مماهو مطبق في إسرائيل)، على غير اليهود في تلك المناطق، لأنها دخلت في نطاق مملكة داود. وجميع التفسيرات التلمودية

لأرض إسرائيل، تشمل قبرص.

سأدرج في ما يلي بعض القوانين الخاصة المتعلقة بغير اليهود في أرض إسرائيل، وعلاقتها بالممارسات الصهيونية الفعلية ستكون واضحة تماماً.

تمنع الهالاخاه بيع الأموال غير المنقولة - البيوت والحقول - في أرض إسرائيل لغير اليهود. وفي سوريا يسمح ببيع البيوت وليس الحقول.

تأجير بيت في أرض إسرائيل لغير اليهودي، مباح بشرطين، الأول، أن لا يستعمل البيت للسكن بل لأغراض أخرى كالتخزين. والثاني، أن لا تؤجر بيوت ثلاثة مجاورة له.

هذه وغيرها من الأحكام موضحة كما يلي «... ولذا لن تسمح لهم بالمرابطة على الأرض، لأنهم إذا لم يتملكوا الأرض، فسيكون مقامهم مؤقتاً»[٥١]. وحتى وجود غير اليهود المؤقت لا يتسامح به إلا «عندما يكون هناك يهود في المنفى، أو عندما يكون غير اليهود أقوى من اليهود»، ولكن! «عندما يكون اليهود أقوى من غير اليهود، ممنوع علينا أن نقبل وثنياً بيننا حتى ولو للإقامة المؤقتة، أو أن تسمح للبائع المتجول بالمرور عبر أرضنا، ما لم يقبل بمبادئ نوح السبعة[٥٢]، لأنه مكتوب «ولن يقيموا في أرضك»[٥٣]، أي حتى ولو مؤقتاً، وإذا قبل بمبادئ نوح السبعة، يصبح غريباً مقيماً (gertoshar)، ولكن لا يجوز منح وضع الغريب المقيم إلا أثناء إقامة الأعياد (أي عندما يقام الهيكل وتقدم القرابين)[٥٤]. أما خلال الأوقات التي لا تقام فيها الأعياد، فلا يقبل أحد ما لم يوافق على التحول الكامل إلى اليهودية»[٥٥].

واضح إذن - بالضبط كما يقول قادة ومؤيدو غوش إيمونيم - أن مسألة كيفية معاملة الفلسطينيين وفق أحكام الهالاخاه، هي ببساطة مسألة القوة اليهودية، فإذا كان اليهود أقوياء بما فيه الكفاية، فواجبهم الديني يقضي بطرد الفلسطينيين.

جميع هذه الأحكام يرددها حاخامات إسرائيل، وأتباعهم. مثلاً، القانون الذي يمنع تأجير ثلاثة بيوت مجاورة للبيت المؤجر، استشهد به مؤتمر الحاخامين المنعقد عام ١٩٧٩ لبحث اتفاقيات كامب دافيد. كما أعلن المؤتمر أنه وفق قانون الهالاخاه يعتبر «الحكم الذاتي» الذي كان يبغن مستعداً لعرضه على الفلسطينيين ليبرالياً جداً. وهذه التصريحات - التي تحدد موقف الهالاخاه بصورة صحيحة - قلما عارضها «اليسار» الصهيوني.

فضلاً عن القوانين المشار إليها فيما سبق والموجهة ضد كل غير اليهود في أرض إسرائيل، تنشأ آثار بغيضة عن القوانين الخاصة ضد الكنعانيين القدماء وغيرهم من الشعوب التي عاشت في فلسطين، قبل غزو يشوع، وضد العماليق، فكل هذه الأمم يجب أن تباد كلياً، والتلمود والأدب التلمودي يكرر هذه التصريحات التوراتية العنصرية ويعنف أشد. والحاخامون النافذون من ذوي الأتباع العديدين بين ضباط الجيش الإسرائيلي، يماثلون بين الفلسطينيين (وحتى كل العرب) وبين هذه الأمم القديمة، ولذا فالوصية القائلة «لن تدع شيئاً يتنفس حياً»[٥٦] تكتسب معنى يفسر ما يجري. والحقيقة، هي أن من المعتاد إلقاء «محاضرة تثقيفية» في جنود الاحتياط الذين يدعون للخدمة في قطاع غزة وإبلاغهم أن فلسطينيي غزة هم مثل «العماليق». والآيات التوراتية التي تصرح بإبادة الميديانيين[٥٧] استشهد بها حاخام إسرائيلي نافذ لتبرير مجزرة قبية[٥٨]، وقد نشر تصريحه على نطاق واسع في الجيش الإسرائيلي. وهناك تصريحات عديدة مماثلة أدلى بها حاخامون متعطشون للدماء، ضد الفلسطينيين، بالاستناد لمثل هذه الأحكام.

السّباب

تحت هذا العنوان، أود أن أبحث أمثلة من قوانين الهالاخاه، ذات أثر بالغ، لا للتمييز المحدد ضد غير اليهود، بل لتكريس الاحتقار

والكراهية لهم. وبناء عليه، لن أقتصر في هذا القسم على الاستشهاد بأقوى المصادر والمراجع الهالاخية (كما فعلت حتى الآن)، بل سأشمل بعض الأعمال الأقل أهمية، والتي تستعمل على نطاق واسع في مجال التعليم الديني.

دعونا نبدأ ببعض الصلوات العامة. في إحدى الفقرات الأولى من صلاة الصبح اليومية، يشكر اليهودي الورع الله لأنه لم يجعله غير يهودي[٥٩]. والفقرة الختامية في الصلاة اليومية (والتي تتلى أيضاً في قداس رأس السنة وعيد الغفران - يوم كيبور -)، تبدأ بما يلي: - «يجب أن نحمد الرب لكل... لأنه لم يجعلنا مثل أمم الأرض... لأنهم ينحنون للعبث والعدم ويصلون لإله لا يقدم العون»[٦٠]. وقد حذفت العبارة الأخيرة من كتاب الصلوات، ولكنها كانت تتلى شفاهاً في أوروبا الشرقية، وأعيدت الآن في كتب صلوات عديدة مطبوعة في إسرائيل. وفي الجزء الأكثر أهمية في الصلاة الأسبوعية - المباركات الثماني - لعنة خاصة، موجهة أصلاً ضد المسيحيين واليهود المرتدين إلى المسيحية وغيرهم من المنشقين اليهود، «وليفقد المرتدون[٦١] كل أمل، وليفنى جميع المسيحيين على الفور». هذه الصيغة يعود تاريخها إلى القرن الأول، عندما كانت المسيحية طائفة مضطهدة. وفي وقت ما، قبل القرن الرابع عشر، تم تلطيفها إلى «ليفقد المرتدون كل أمل، وليفنى كل الهراطقة على الفور»[٦٢]، وبعد ضغط إضافي إلى «ليفقد المتحيرون كل أمل، وليفنى كل الهراطقة فوراً». وبعد إنشاء إسرائيل، عكس الاتجاه وعاد العديد من كتب الصلوات المطبوعة مجدداً إلى الصيغة الثانية، وقد أوصى باعتمادها العديد من المعلمين في المدارس الدينية في إسرائيل. وبعد ١٩٦٧، أعادت مجموعة قريبة من غوش إيمونيم الصيغة الأولى (شفهياً لا طباعة، حتى الآن) وهي تصلى يومياً داعية لفناء المسيحيين فوراً. وقد حصل مسار هذا الارتداد خلال الفترة التي حذفت فيها الكنيسة الكاثوليكية (في عهد البابا يوحنا الثالث والعشرين) من صلاة قداس

الجمعة الحزينة دعاءً يسأل الله أن يرحم اليهود والهراطقة... إلخ، لأن العديد من القادة اليهود اعتبروا هذا الدعاء عدائياً، وحتى لاسامياً.

عدا الصلوات اليومية الثابتة، يتوجب على اليهودي أن يلفظ دعوات قصيرة خاصة في مناسبات عديدة، سعيدة وحزينة (مثلاً، عندما يرتدي قطعة ملابس لأول مرة، أو يأكل ثمراً موسمياً لأول مرة ذلك العام، أو عندما يرى صاعقة قوية، أو يسمع أخباراً سيئة... إلخ). بعض هذه الدعوات الموسمية، تعمل على غرس مشاعر الكراهية والاحتقار ضد كل غير اليهود. وقد ذكرنا في الفصل الثاني القاعدة التي توجب على اليهود أن يتلفظ بلعنة عندما يمر بالقرب من مقبرة لغير اليهود. وهناك قاعدة مماثلة تنطبق على الأحياء، وهكذا، عندما يرى اليهودي جمعاً يهودياً كبيراً وجب عليه أن يحمدالله، أما إذا رأى جمعاً من غير اليهود فعليه أن يلفظ لعنة، والمباني ليست معفاة أيضاً، فالتلمود يعلن(٦٣) أن على اليهودي الذي يمر بالقرب من مبنى يسكنه غير اليهود، أن يدعو الله أن يدمره، أما إذا كان المبنى مدمراً فعليه أن يشكر الله لانتقامه (هذه القواعد تعكس بالنسبة للمباني اليهودية). وكان التقيد بهذه القواعد سهلاً على الفلاحين اليهود الذين يعيشون في قراهم الخاصة أو في أحياء ومدن كل سكانها من اليهود. أما في ظروف اليهودية الكلاسيكية فلم تعد عملية، ولذلك اقتصرت على الكنائس ودور العبادة للديانات الأخرى (باستثناء الإسلام)(٦٤). وبولغ في هذا الخصوص، في هذه القاعدة بحكم العرف، إذ أصبح من المعتاد أن يبصق اليهودي (ثلاث مرات عادة) عندما يرى كنيسة أو صليباً، زيادة على الصيغة الإلزامية للأسف(٦٥). وأحياناً كانت تضاف بعض العبارات التوراتية المهينة(٦٦).

وهناك أيضاً سلسلة من الأحكام التي تحظر أي تعبير عن مدح غير اليهود أو أفعالهم، إلا إذا كان هذا المديح يتضمن مديحاً أكبر لليهود والأشياء اليهودية. مثلاً الكاتب عجنون، في مقابلة مع إذاعة إسرائيل بعد عودته من استوكهولم حيث تسلم جائزة نوبل للآداب، امتدح الأكاديمية

السويدية وسارع إلى القول: «لم أنس أن مدح غير اليهود ممنوع، ولكن لدي سبب خاص لهذا المديح؛ وهو أنهم منحوا الجائزة ليهودي».

ويحظر بالمثل الاشتراك في أي مظهر شعبي للابتهاج عند غير اليهود إلا إذا كان من شأن عدم الاشتراك أن يتسبب في «عداوة» لليهود، فيسمح عندها بالحد الأدنى من مظاهر البهجة.

وفضلاً عن القواعد المذكورة فيما سبق، هناك العديد من القواعد التي من شأنها أن تمنع الصداقة الإنسانية بين اليهود وغيرهم. سأذكر مثلين: نبيذ القربان وإعداد الطعام لغير اليهودي خلال الأعياد اليهودية.

لا يجوز لليهودي المتدين أن يشرب نبيذاً ساهم غير يهودي في إعداده، بأي طريقة كانت. والنبيذ في زجاجة مفتوحة، ولو كان معدوه يهوداً، يصبح محرماً إذا لمس غير يهودي الزجاجة أو مرّ بيده من فوقها. والسبب الذي يعطيه الحاخامون هو أن كل غير اليهود ليسوا وثنيين فحسب، بل ويجب أن يفترض فيهم المكر، لذا فقد ينذرون النبيذ (بهمسة أو نظرة أو فكرة) الذي سيشربه اليهودي قرباناً لصنمهم. وتنطبق هذه القاعدة بكامل فعاليتها على كل المسيحيين، ومع تخفيف بسيط على المسلمين أيضاً (الزجاجة التي يلمسها مسيحي يجب أن تراق فوراً، أما إذا لمسها مسلم فيمكن بيعها أو إهداؤها، إنما لا يجوز لليهودي أن يشرب ما بها من خمر). وتنطبق هذه القاعدة أيضاً على الملحدين من غير اليهود على حد سواء (كيف يمكن للمرء أن يتأكد أنهم لا يتظاهرون بالإلحاد؟)، ولكنها لا تنطبق على الملحدين من اليهود.

وينطبق قانون حظر العمل يوم السبت، إلى مدى أقل، على الأعياد الأخرى، وخاصة، العيد الذي لا يصادف يوم سبت، فيسمح بالعمل خلاله لإعداد طعام يؤكل يوم أو أيام العيد. ويعرف هذا، شرعاً، بإعداد «طعام النفس» (okhel nefesh)، و«نفس» هنا تفسر على أنها تعني «يهودي»، أما غير اليهود والكلاب فهم مستثنون صراحة[٦٧]. ورغم

ذلك، يسمح بطهي الطعام يوم العيد لزائر غير يهودي، إذا كان ذا سلطة وقد تكون معاداته لليهود خطرة، شريطة أن لا يشجع على القدوم والأكل.

الأثر الهام لكل هذه القواعد - عدا عن أثر تطبيقها عملياً - هو الموقف الذي تخلفه دراستها كجزء من الهالاخاه، الأمر الذي تعتبره اليهودية الكلاسيكية واجباً دينياً أسمى. فاليهود الأرثوذكس يتعلمون منذ مطلع شبابهم، وكجزء من دراساتهم المقدسة، أن غير اليهود يماثلون الكلاب، ولا يجوز مدحهم، وهكذا دواليك. وحقيقة الأمر هي أن هذه النصوص الابتدائية تعطي إيضاحات أكثر تفصيلاً، وتصاغ بشكل يؤثر على عقول الصغار وغير المتعلمين. ومن العدد الكبير من هذه النصوص، اخترت واحداً هو الأكثر شيوعاً في إسرائيل وقد ظهر في طبعات رخيصة عديدة، بدعم كبير من الحكومة الإسرائيلية وهو «كتاب الثقافة» المكتوب بقلم حاخام مجهول في أسبانيا في القرن الرابع عشر. ويشرح الكتاب ٦١٣ التزاماً دينياً يهودياً بالتسلسل الذي يفترض وروده في الأسفار الخمسة الأولى، وفق التفسير التلمودي (بحث في الفصل الثالث). ويعود تأثيره الدائم وشعبيته إلى بساطة اللغة العبرية التي كتب بها.

الهدف التعليمي الأساسي لهذا الكتاب هو التأكيد على المعنى «الصحيح» للتوراة، في ما يتعلق ببعض التعابير مثل «رفيق» و«صديق» و«إنسان» (التي أشرنا إليها في الفصل الثالث). ولذلك، فالفقرة ٢١٩ مكرسة للالتزام الديني الناشئ عن وصية «أحب رفيقك كنفسك» وعنوانها: «الالتزام الديني بمحبة اليهود»، وتوضح: «محبة كل يهودي بشدة تعني الاهتمام باليهودي وماله عناية المرء بنفسه وماله، لأنه مكتوب «أحب رفيقك كنفسك» وحكماؤنا الطيبو الذكر قالوا: «ما هو كريه لك، لا تفعله لصديقك»، وينشأ عن هذا العديد من الالتزامات المالية، لأن الذي يحب صديقه كنفسه، لا يسرق ماله ولا يزني بامرأته ولا يحتال عليه ولا يخدعه بالقول ولا يخطف ما بيده، ولا يؤذيه بأي طريقة كانت. كما

أن التزامات دينية أخرى تستند إلى هذا الالتزام، كما يعلم كل إنسان عاقل».

الفقرة ٣٢٢، التي تعالج مسألة وجوب إبقاء العبد غير اليهودي مستعبداً إلى الأبد (فيما يجب تحرير العبد اليهودي بعد سبع سنوات)، تورد الإيضاح التالي: «أساس هذا الالتزام الديني هو (واقعة أن) الشعب اليهودي هو أفضل الأجناس البشرية، خلقهم الله ليعرفوه ويعبدوه، لذا فهم يستحقون أن يكون لهم عبيد يخدمونهم. وإذا لم يكن لديهم عبيد من شعوب أخرى، فعليهم استعباد إخوتهم الذين يصبحون غير قادرين على خدمة الرب، تبارك. ولذلك، نحن مكلفون بامتلاكهم لخدمتنا بعد أن يؤهلوا لذلك وتزول الوثنية من حديثهم وبالتالي ينتفى احتمال وجود الخطر في بيوتنا[٦٨]. وهذا هو المقصود من الآية: «أما على إخوتكم، أبناء إسرائيل، فلن تحكموا واحداً فوق الآخر بقسوة[٦٩]، لذا ليس لك أن تستعبد إخوتك المستعدين لعبادة الله».

الفقرة ٥٤٥، تعالج الالتزام الديني بتقاضي فائدة على الأموال المقرضة لغير اليهود، والقاعدة مدرجة كما يلي: «نحن مكلفون بأن نطلب فائدة من غير اليهود الذين نقرضهم مالاً، ويجب أن لا نقرضهم بدون فائدة». والإيضاح هو: «اساس هذا الالتزام الديني هو أنه لا يجوز لنا أن نرحم سوى الناس الذين يعرفون الله ويعبدونه، وعندما نحجم عن التصرف برحمة حيال باقي الجنس البشري، ونفعل ذلك للمذكورين فقط، يجري إختيارنا لجعل الجزء الأساسي من محبتنا لهم ورأفتنا بهم، هو لأنهم يتبعون دين الله. لاحظ، بهذا التيه يكون جزاؤنا (من الله) عن الاحجام عن رحمة الآخرين، مساوياً لجزائنا عندما نرحمْ أبناء شعبنا».

مثل هذا التمييز مقرر في فقرات عديدة أخرى. ففي الفقرة التي تحرم تأخير أجر العامل (٢٣٨)، يحرص الكاتب على بيان أن الخطيئة أقل خطورة إذا كان العامل غير يهودي. ومنع اللعن (٢٣٩) عنوانه: «لا تلعن يهودياً، رجلاً كان أو امرأة». والأمر كذلك بالنسبة للنصيحة الكاذبة

وكره الآخرين والتشنيع عليهم والانتقام منهم (٢٤٠، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧) فهي تنطبق على الرفاق اليهود.

وحظر أتباع عادات غير اليهود (٢٦٢)، يعني أنه يتوجب على اليهود لا أن ينأوا بأنفسم عن غير اليهود فحسب، بل وذم كل تصرفاتهم، وحتى ملابسهم.

وجدير بالتوكيد أن الإيضاحات المقتبسة في ما سبق، تمثل تعاليم الهالاخاه، بصورة صحيحة. والحاخامون، والأسوأ علماء اليهود التبريريون، يعلمون هذا جيداً ولهذا السبب لا يحاولون معارضة هذه الآراء داخل الجالية اليهودية. وبالطبع، لا يذكرونها أبداً خارجها. وبدلاً من ذلك، يصدرون نفياً خادعاً تصل فيه المراوغة إلى ذروتها. مثلاً، يدلون بتصريحات مستعملين التعابير العامة، مثل أهمية الرحمة في اليهودية، ويغفلون الإشارة إلى أن «الرحمة» في مفهوم الهالاخاه تعني رحمة اليهود.

أي شخص يعيش في إسرائيل يعرف مدى عمق وانتشار مواقف الكراهية والقسوة تجاه كل غير اليهود، بين غالبية يهود إسرائيل. وتحجب هذه المواقف، عادة، عن العالم الخارجي. ولكن، منذ إنشاء إسرائيل، وخاصة بعد حرب ١٩٦٧، وصعود بيغن، أصبحت أقلية كبيرة في إسرائيل والخارج، وتدريجياً، أكثر صراحة في التعبير عن هذه المواقف. وخلال السنوات الماضية، ذكرت المفاهيم اللاإنسانية التي تعتبر العبودية مصيراً «طبيعياً» لغير اليهود، صراحة في إسرائيل، وحتى في التلفزيون؛ ذكرها مزارعون يهود يستغلون العمل العربي، وخاصة عمل الأطفال. وقادة غوش إيمونيم استشهدوا بالمفاهيم الدينية التي تأمر اليهود بقمع غير اليهود، كمبرر لمحاولة اغتيال رؤساء البلديات الفلسطينيين، وكمرجع مقدس لمخططهم لطرد كل العرب من فلسطين.

فيما يرفض صهيونيون عديدون مثل هذه المواقف سياسياً، فإن

مبررات رفضهم تقوم على أساس اعتبارات المصالح اليهودية والنفعية، بدلاً من الاستناد إلى المبادئ والأخلاق الإنسانية المعترف بها عالمياً. مثلاً، يقولون إن استغلال الفلسطينيين وقمعهم من شأنه إفساد المجتمع الإسرائيلي، أو أن طرد الفلسطينيين غير عملي في الظروف السياسية الحالية، أو أن الإرهاب الإسرائيلي ضد الفلسطينيين يعزل إسرائيل دولياً. ومبدئياً، فإن كل الصهيونيين تقريباً - وخاصة الصهيونيين اليساريين - يشاركون في هذه المواقف المعادية لغير اليهود، والتي يدعو لها اليهود الأرثوذكس بحماس.

الموقف من المسيحية والإسلام

مررنا في ما سبق، بأمثلة عديدة من المواقف الحاخامية من هاتين الديانتين، ومن المفيد أن نلخص هذه المواقف هنا.

اليهودية، تكن كراهية عميقة للمسيحية مقرونة بجهلها. وهذا الموقف تعزز بالاضطهاد المسيحي لليهود، ولكنه مستقل عنه إلى حد بعيد. فالحقيقة هي أنه يعود إلى الوقت الذي كانت فيه المسيحية ضعيفة ومضطهدة (من قبل اليهود في الأقل)، وقد شارك فيه اليهود الذين لم يضطهدهم المسيحيون، وحتى الذين تلقوا مساعدتهم. وهكذا، كان إبن ميمون مضطهداً من النظام المهدي فهرب إلى مملكة القدس الصليبية أولاً، ولكنه لم يغير آراءه أبداً. ويقوم هذا الموقف السلبي المتشدد، على عنصرين أساسيين:

الأول، الكراهية والافتراء البشع ضد المسيح، فالرأي اليهودي التقليدي عن المسيح، يجب تمييزه تماماً عن الخلاف السخيف الذي نشب بين اللاساميين واليهود التبريريين عن «المسؤولية» عن إعدامه. ويقر معظم العلماء المحدثين عن تلك الفترة بأنه نتيجة فقدان الروايات الأصلية والمعاصرة، والتأخر في وضع الأناجيل والتناقضات الموجودة فيها، لا تتوفر المعرفة التاريخية الصحيحة بظروف إعدام المسيح. وفي أي حال،

فإن مفهوم الإثم الجماعي المتوارث شديد وكريه. والموضوع هنا ليس الوقائع الحقيقية لإعدام المسيح وحياته، بل القصص غير الصحيحة والمشينة في التلمود والأدب التلمودي اللاحق؛ والتي آمن بها اليهود حتى القرن التاسع عشر، وما زال العديدون، وخاصة في إسرائيل، يؤمنون بها، ولأنها لعبت، بالتأكيد، دوراً هاماً في تشكل الموقف المسيحي من اليهودية.

وفق ما ورد في التلمود، فقد أعدم المسيح تنفيذاً لحكم محكمة دينية سليمة، بتهمة الوثنية وتحريض اليهود على عبادة الأوثان واحتقار السلطات الحاخامية. وكل المصادر اليهودية الكلاسيكية التي تذكر إعدامه، سعيدة تماماً بتحمل مسؤولية ذلك، وفي القصص التلمودية لا يرد ذكر الرومان أبداً.

القصص الأكثر شعبية - والتي أخذت على محمل الجد أيضاً - مثل «تولدوت يشو» (Toldot Yeshu)، أسوأ، لأنها تتهمه بالسحر بالإضافة إلى التهم المذكورة أعلاه. واسم «يسوع» بحد ذاته، مثّل لدى اليهود رمزاً لكل ما هو رديء، وما زال هذا التقليد الشعبي مستمراً[٧٠]. والأناجيل مكروهة كذلك، ولا يسمح بالاستشهاد بها (فضلاً عن تعليمها)، حتى في المدارس اليهودية الحديثة.

والثاني، ولأسباب لاهوتية تجد جذورها في الجهل، تعتبر المسيحية، في رأي التعليم الديني، ديانة وثنية. وهذا يقوم على أساس التفسير الساذج للعقيدة المسيحية حول الثالوث والتجسد؛ فكل الرموز والتعابير المسيحية المصوّرة تعتبر «أوثاناً»، حتى لدى اليهود الذين يعبدون اللفائف (المخطوطات) والحجارة وكل أمتعة الرجال المقدسين (الأولياء).

موقف اليهودية تجاه الإسلام، هو على العكس، ألطف نسبياً. ورغم أن النعت التقليدي الذي يطلق على محمد هو «مجنون»، فلم يكن

له الوقع السيء الذي يبدو أنه يوقعه اليوم، وهو في أي حال يشحب حيال الألقاب الشنيعة التي تطلق على المسيح. وبالمثل، فالقرآن ليس محكوماً بالحرق كالعهد الجديد. ولكنه ليس مكرماً كما تكرم الشريعة الإسلامية المخطوطات المسيحية المقدسة، بل يعامل ككتاب عادي. ومعظم المراجع الدينية توافق على أن الإسلام ليس وثنياً (رغم أن بعض قادة غوش إيمونيم يختارون الآن تجاهل ذلك)، ولذلك، تأمر الهالاخاه بوجوب عدم معاملة المسلمين بطريقة أسوأ من معاملة غير اليهود «العاديين»، ولكن ليس بأفضل منها كذلك. وثانية، يمكن أن يوضح إبن ميمون الأمر، فهو يذكر صراحة أن الإسلام ليس ديناً وثنياً، وهو يستشهد، وبكل احترام، بالأعمال الفلسفية لعدد من الفلاسفة المسلمين، وكان كما ذكرت من قبل، الطبيب الشخصي لصلاح الدين وعائلته، وعين بأمر منه رئيساً لكل يهود مصر. ورغم ذلك، فالقواعد التي يضعها ضد إنقاذ حياة غير اليهودي (باستثناء حالة تفادي الخطر على اليهود) تنطبق على المسلمين أيضاً.

الإشارات والمراجع

١ - بن ميمون، ميشنا توراة، «قوانين القتل» ٢، الموسوعة التلمودية.

٢ - الحاخام يوئيل سيركيس، «بيت هاداش»، شروح على بيت يوسف «يوريه دعياه» ١٥٨. القاعدتان المذكورتان تنطبقان حتى ولو كان الضحية غير اليهودي «مقيماً غريباً ger tashav»، صرح أمام ثلاثة شهود بأنه يحفظ قواعد نوح السبعة. (قوانين توراتية تعتبرها التوراة موجهة لغير اليهود).

٣ - الحاخام دافيد هاليفي (بولندا، القرن السابع عشر) - توري زاهان على شولبان آروخ «يوري دعياه» ١٥٨.

٤ - (ساقط في الاصل الانجليزي).

٥ - الموسوعة التلمودية - (Ger = تحول إلى اليهودية).

٦ - مثلاً، ح. شابتاي كوهين (أواسط القرن السابع عشر)، سيفتي كوهين على شولبان آروخ «يوريه دعياه» ١٥٨، أما في أوقات الحرب، فقد كانت العادة أن نقتلهم بأيدينا، لأنه قيل: «أفضل غير اليهود - أقتله»، سيفتي كوهين على توري زاهاي (أنظر الملاحظة رقم ٣)، وهما الشرحان الرئيسيان على شولبان آروخ.

٧ - الكولونيل الحاخام أ. أ أفيدان (زيميل Zemel) - «طهارة السلاح في ضوء الهالاخاه» - في أعقاب حرب يوم كيبور - (فصول التأمل والهالاخاه والبحث) - قيادة المنطقة الوسطى، ١٩٧٣. مذكورة في «هاعولام هازيه»، ٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤، كما اقتبسها دافيد شاهام في «فصل في التأمل» هوتام، ٢٨ آذار (مارس) ١٩٧٤، وأمنون روبنشتاين في «من يزور الكالاكاة؟»، «معاريف»، ١٣ تشرين أول (أكتوبر ١٩٧٥). يقول روبنشتاين أن الكتيب سحب من التداول في ما بعد بأمر من رئيس الأركان العامة، ربما لأنه يحرض الجنود على عصيان الأوامر، ولكنه يشكو لأن الحاخام أفيدان لم يقدم إلى محاكمة عسكرية، كما لم يعترض أي حاخام عسكري أو مدني على ما كتب.

٨ - الحاخام شيمون ويزر، «طهارة السلاح» - رسائل متبادلة «في الكتاب السنوي لمدرسة نوعام، عام ١٩٧٤»، صفحة ٢٩-٣١. يصدر هذا الكتاب بالعبرية والإنجليزية والفرنسية، ولكن المواد المذكورة مطبوعة بالعبرية فقط.

٩ - المزامير ٤٢ : ٢.

١٠ - «أنت تمحي ذكر العماليق من تحت السماء»، التثنية ٢٥ : ١٩، وانظر أيضاً صموئيل ١، ١٥ : ٣ «اذهب الآن واضرب العماليق ودمرهم تماماً، اذبح الرجل والمرأة والطفل الرضيع والثور والكبش والجمل والحمار».

١١ - سنوفر على القارئ الإشارات والمقتبسات التلمودية والمصادر الحاخامية المعقدة. هذه المحذوفات محاطة بقوسين [...]، أما استنتاجات الحاخام الخاصة، فنوردها كاملة.

١٢ - الـ «تسوفات Tsofat» (حرفياً، الملحق)، مجموعة من الدراسات التلمودية يعود تاريخها إلى القرن ١١-١٣.

١٣ - المذنبون بمثل هذه الجرائم يسمح لهم بالترقي إلى أعلى المناصب العامة. كإيضاح لهذا نذكر قصة شموئيل لاجيس، الذي كان مسؤولاً عن مصرع ٥٠-٧٥ فلاح عربي محبوسين في جامع بعد سقوط القرية بيد الجيش الإسرائيلي عام ١٩٤٨-٤٩؛ فبعد محاكمة شكلية، منح عفواً بفضل تدخل بن غوريون، وأصبح الرجل محامياً شهيراً. وأواخر عام ١٩٧٠ عين مديراً عاماً للوكالة اليهودية (أي الجهاز التنفيذي للحركة الصهيونية). أوائل عام ١٩٧٨ بحثت وقائع ماضيه على نطاق واسع في الصحافة الإسرائيلية، ولكن أحداً من الحاخامين أو العلماء الدينيين لم يتساءل عن العفو عنه أو صلاحيته للمنصب الجديد، وتعيينه لم يلغ.

١٤ - شولبان آروخ «هوشين ميشباط» ٤٢٦.

١٥ - تراكتيت (Tractate) - «آفوداه زاراه» صفحة ٥٢٦.

١٦ - ابن ميمون، «القتل» ٤، ١١.

١٧ - اللاويين ١٩ : ١٦ في خصوص «التخلّي عن رفيقك» انظر الملاحظة رقم ١٤ في الفصل الثالث.

١٨ - ابن ميمون، «عبادة الأوثان». ١٠، ١-٢.

١٩ - في كلتا الحالتين، في فصل «يوريه دعياه» ١٥٨، تكرر شولبان أروخ العقيدة نفسها في «هوشين ميشباط» ٤٢٥.

٢٠ - موسى ريفكيس «بثيرها غولاه على شولبان آروخ» - هوشين ميشباط - ٤٢٥.

٢١ - وهكذا، فالبروفسور جاكوب كاتز في كتابه العبري «بين اليهود وغير اليهود»، وحتى في أشد نسخه تبريرية «الحصر والتسامح» بالإنجليزية، يستشهد بهذه الفقرات حرفياً ويتوصل إلى استنتاج مذهل وهو أنه في «الالتزام بانقاذ الحياة لا تمييز بين اليهودي والمسيحي»، ولا يستشهد بآراء المراجع التي ذكرتها أعلاه في في القسم الثاني.

٢٢ - ابن ميمون، «السبت» ٢، ٢٠-٢١، شولبان آروخ «أوراه حاييم» ٣٢٩.

٢٣ - الحاخام عكيفا إيجر، تعليق على شولبان آروخ. وهو يضيف أيضاً أنه إذا وجد

طفل مهجوراً في مدينة معظم سكانها من غير اليهود، وجب أن يستشار الحاخام في مسألة إنقاذه.

٢٤ - تراكتيت «أفوراه زاراه» صفحة ٢٦.

٢٥ - ابن ميمون، «السبت» ٢، ١٢، شولبان آروخ «أوراه هاييم»، ٣٣، النص الأخير يقول «كافر» بدلاً من «غير يهودي» ولكن بعض المعلقين مثل توري زاهاف يؤكد أن هذه القاعدة تنطبق حتى على «الاسماعيليين» أي المسلمين، الذين هم ليسوا وثنيين. المسيحيون غير مذكورين صراحة في هذا النص ولكن القاعدة تنطبق عليهم من باب أولى، لأن الإسلام، كما سنرى لاحقاً، يعتبر أفضل. أنظر أيضاً الجواب لهاتام سوفير المذكور سابقاً.

٢٦ - المثلان من فرنسا وبولندا يذكرهما الحاخام آي. ز. كاهانا (أستاذ التلمود في جامعة بار - إيلان الدينية) في إسرائيل، في «الطب في أدب الهالاخاه بعد التلمود»، سيناء، مجلد ٢٧، ١٩٥٠، صفحة ٢٢١. كما يورد القضية التالية من إيطاليا في القرن التاسع عشر. حتى عام ١٨٤٨، حظر قانون في الدول البابوية على الأطباء اليهود معالجة غير اليهود. الجمهورية الرومانية التي أعلنت عام ١٨٤٨ ألغت هذا القانون وكل القوانين التي تميز ضد اليهود. وعام ١٨٤٩، أرسل الرئيس الفرنسي لويس نابليون (الأمبراطور نابليون الثالث فيما بعد) حملة هزمت الجمهورية وأعادت حكم البابا الذي أعاد القوانين المميزة ضد اليهود عام ١٨٥٠. قادة الحامية الفرنسية اشمأزوا من هذا التصرف المتطرف وتجاهلوا هذا القانون واستأجروا بعض الأطباء اليهود لمعالجة جنودهم. حاخام روما الأكبر، موشي هازان، كان نفسه طبيباً وسئل عما إذا كان أحد تلاميذه يستطيع قبول وظيفة في المستشفى العسكري الفرنسي رغم امكان انتهاك حرمة السبت، فأجاب بأنه! إذا كانت شروط الوظيفة تذكر العمل يوم السبت صراحة، فعليه أن يرفض. أما إذا لم تفعل، فيمكنه أن يقبل وأن يستخدم «ذكاء اليهود الذين يخافون الله، الخارق». مثلاً، يستطيع يوم السبت أن يكرر الوصفة التي أعطاها يوم الجمعة، بأن يخبر الموزع بذلك. مقالة الحاخام كاهانا الصريحة والتي تشمل أمثلة كثيرة أخرى، مذكورة في ثبت المراجع في كتاب كبير حاخامي بريطانيا السابق، الحاخام إيمانويل جاكوبوفيتش «الآداب الطبية اليهودية»، بلوك، نيويورك، ١٩٦٢، أما في الكتاب نفسه فلا ذكر لهذه المسألة.

٢٧ - هوخمات شلومو على شولبان آروخ «أوراه هاييم» ٣٣٠.

٢٨ - ر. أ وترمان، هارتز ٤ نيسان (أبريل) ١٩٦٦، التحفظ الوحيد الذي يبديه - بعد التعرض لضغط متواصل - هل يمكن في عصرنا الحاضر أن يتسبب رفض تقديم العون الطبي لغير يهودي في عداء قد يهدد حياة اليهود.

٢٩ - هاتام سوفير، الجواب على شولبان آروخ «يوريه دعياه» ١٣١.
٣٠ - شولبان آروخ «هوشين ميشباط» ١٩٤.
٣١ - الحاخام ب. كنوبيلوفتش (B. Knobelovitz) في «الجويش ريفيو» (مجلة حزب مزراحي في بريطانيا العظمى)، ٨ حزيران (يونيو) ١٩٦٦.
٣٢ - الحاخام يسرائيل مئير كاغان - المشهور باسم هافيش هايم - يشكو في «ميشناه بيروراه» المكتوب في بولندا عام ١٩٠٧: «وأنت تعلم أن معظم الأطباء، حتى الأشد تديناً، لا يهتمون أبداً بهذا القانون، فهم يعملون يوم السبت ويسافرون لمسافات بعيدة لمعالجة كافر ويطحنون الأدوية بأيديهم ولا سلطة لديهم لفعل ذلك. رغم أننا نرى أن ذلك مسموح به خشية العداء، لأنه يشكل حظراً فرضه الحكماء - وحتى هذا غير واضح. وفي المحظورات التي فرضتها التوراة ذاتها، يجب أن يمتنع أي يهودي عن فعل ذلك، وأولئك الذين يخالفون هذا الخطر ينتهكون حرمة السبت تماماً وليرحمهم الله لما اقترفوه من تدنيس للمقدسات». (تعليق على شولبان آروخ «أوراه هاييم» ٣٣٠). ويعتبر الكاتب أكبر مرجع ديني في عصره.
٣٣ - أفراهام شتينبرغ «القانون الطبي اليهودي» مجموع من تزيتز أليعازر (Tzitz Eli'ezer)، «جواب الحاخام أليعازر يهودا والدنبرغ» ترجمة دافيد بي. سيمونز، غيفن وموساد هاراف للنشر، القدس وكاليفورنيا، ١٩٨.
٣٤ - المرجع السابق صفحة ٣٩.
٣٥ - المرجع السابق صفحة ٤١.
٣٦ - المرجع السابق، صفحة ٤١، عبارة «بين اليهود وغير اليهود» ملطّفة. وضع الإعفاء لمنع عداوة غير اليهود، وليس العكس.
٣٧ - المرجع السابق صفحة ٤١-٢، التوكيد مني.
٣٨ - معهد الدكتور فولك شليزنغر لأبحاث الهالاخاه الطبية في مستشفى صديق شعاري، سيفير آسيا، (كتاب الطبيب)، روبين ماس، القدس ١٩٧٩.
٣٩ - بقلمي في «هاعولام هازيه»، ٣٠ أيار (مايو) ١٩٧٩، وبقلم شولاميت آلوني، عضو الكنيست، في «هارتز»، ١٧ حزيران (يونيو) ١٩٨٠.
٤٠ - حزقيال، ٢٣: ٢٠.
٤١ - تراكتيت بيروخات، صفحة ٧٨أ.
٤٢ - الموسوعة التلمودية. «أيشيت أيش»، امرأة متزوجة.
٤٣ - الخروج ٢٠: ١٧.
٤٤ - التكوين ٢: ٢٤.
٤٥ - ابن ميمون «محظورات الجماع الجنسي» ١٢، ١٠، الموسوعة التلمودية. «goy».

٤٦ - ابن ميمون، المرجع السابق، ١٢، ١-٣، حقيقة الأمر هي أن كل امرأة غير يهودية تعتبر (N, Sh. G. Z.) وهي مشتقة من الحروف الأولى لكلمات عبرية أربع تعني: «غير طاهرة من الحيض، عبدة، غير يهودية، عاهرة». عند التحول إلى اليهودية تعفى من الألفاظ الثلاثة الأولى ولكنها تبقى معتبرة كعاهرة طوال حياتها لمجرد أنها ولدت غير يهودية. هناك فئة خاصة هي المرأة التي «لم تُحمل في القداسة وولدت في القداسة»، وهي المولودة لامرأة تحولت إلى اليهودية أثناء حملها. وللتأكد المطلق من عدم الاختلاط، يصر الحاخامون على المتزوجين الذين يتحولان إلى اليهودية معاً، بأن يمتنعا عن العلاقات الزوجية لمدة ثلاثة أشهر.

٤٧ - وبشكل مميز، هناك استثناء من هذا التعميم يخص غير اليهود إذا كانوا في مناصب حكومية ذات صلة بالصفقات المالية وكتاب العدل، وجباة الديون والوكلاء وما شابه. ولا إستثناء لغير اليهود العاديين المحترمين، حتى ولو كانت صلاتهم باليهودية.

٤٨ - بعض الحاخامات القدامى (القرن الأول قبل الميلاد) وصفوا هذا القانون بأنه «بربري» وأعادوا بالفعل الأشياء المفقودة لغير اليهود ولكن القانون باقٍ.

٤٩ - اللاويين ٢٥: ١٤ هذه ترجمة حرفية للنص العبري. نسخة الملك جيمس تذكر هذه الآية بنص «لن يقمع أحدكم الآخر». «يقمع» غامضة، أما «أحدكم الآخر» فصحيحة لا تعيد التعبير التوراتي «كل رجل أخاه». وكما بينا في الفصل الثالث، تفسر الهالاخاه هذه التعابير على أنها تعني «الرفيق اليهودي» حصراً.

٥٠ - شولبان آروخ «هوشين ميشباط» ٢٢٧

٥١ - هذا الرأي يدافع عنه هـ. بار - دروما في «وهذه هي حدود الأرض». القدس ١٩٥٨. وفي السنوات الأخيرة استعمل هذا الكتاب في تثقيف ضباط الجيش الإسرائيلي.

٥٢ - ابن ميمون، مرجع سابق، «عبادة الأوثان» ١٠، ٣-٤.

٥٣ - انظر الملاحظة رقم ٢.

٥٤ - الخروج ٢٣: ٣٣.

٥٥ - ابن ميمون، مرجع سابق، «عبادة الأوثان» ١٠، ٦.

٥٦ - التثنية ٢٠: ١٦. أنظر الآيات المذكورة في الملاحظة رقم ١٠.

٥٧ - العدد ٣١: ١٣-٢٠، لاحظ بصورة خاصة الآية ١٧ «الآن، لذلك أقتل كل ذكر بين الصغار وأقتل كل امرأة عرفت رجلاً بالاضطجاع معه».

٥٨ - الحاخام شوفال يسرائيلي «حادثة قبية في ضوء الهالاخاه» في هاتوراه ويهامديناه، المجلد: ١٩٥٣-٥٤.

٥٩ - هذه يتبعها حمد نصه «لأنك لم تجعلني عبداً» وبعدها، يجب على الذكر أن يضيف حمداً نصه: «ولأنك لم تجعلني امرأةً» فيما تضيف الأنثى «لأنه جعلني كما أراد».

٦٠ - كانت العادة الشائعة بين اليهود في أوروبا الشرقية حتى أوقات حديثة، أن يبصقوا على الأرض عند هذه النقطة، تعبيراً عن الاحتقار. وهذا لم يكن التزاماً حتمياً، ولا يحافظ على هذه العادة إلا المتشددون.

٦١ - الكلمة العبرية «ميشوماديم» التي يستعملها الحاخامون تشير إلى اليهود الذين تحولوا إلى وثنيين، أي مسيحيين أو عبدة أصنام، وليس اليهود الذين يعتنقون الإسلام.

٦٢ - الكلمة العبرية «مينيم Minim» تعني بالضبط «الكافرين بوحدة الله».

٦٣ - تراكتيت بيراخوت، صفحة ٥٨ب.

٦٤ - وفق المراجع الحاخامية العديدة، ما زال القانون الأصلي بكامل فعاليته في أرض إسرائيل.

٦٥ - تسببت هذه العادة بحوادث عديدة في تاريخ يهود أوروبا. إحدى هذه الحوادث الشهيرة جداً والتي ما زالت نتائجها ظاهرة حتى اليوم، حصلت في براغ في القرن الرابع عشر. ملك بوهيميا، شارل الرابع (الذي كان أمبراطوراً رومانياً مقدساً) أمر بتعليق صليب كبير على الجسر الحجري الذي بناه والذي ما زال موجوداً حتى اليوم. وحدث أن علم أن يهود براغ معتادون على البصاق عندما يمرون بالقرب من الصليب. ولكونه مشهوراً بحمايته لليهود، فلم يضطهدهم، بل حكم على الجالية اليهودية بأن تدفع تكاليف كتابة كلمة أدوناي - الرب، بالذهب على الصليب. هذه الكلمة هي واحدة من أسماء الله السبعة المقدسة، ولا يجوز القيام بأي تصرف يدل على عدم الاحترام أمامها. وهكذا توقف البصاق. الحوادث الأخرى المتعلقة بالعادة نفسها، أقل إقناعاً بكثير.

٦٦ - الكلمات الشائع استعمالها لهذا الغرض مشتقة من الجذر العبري شاكيتز (Shaqetz) الذي يعني «يبغض، يمقت» كما في التثنية ٧: ٢٦ «أنت تبغضه تماماً، وستكرهه تماماً، لأنه شيء ملعون» يبدو أن تعبير شاكيتز المهين يستعمل للإشارة لكل غير اليهود. (الفصل الثاني)، ويعود إلى هذه العادة.

٦٧ - التلمود، تراكتيت بيتزاه، صفحة ٢١أ، ب، ميشناه بيروراه على شولبان آروخ «أوريا هاييم» ٥١٢، وشرح آخر (ماغين أفراهام) يستثني الكاريت أيضاً.

٦٨ - يجب وفق أحكام الهالاخاه أن يتحول العبد الذي يشتريه اليهودي إلى اليهودية، ولكنه لا يصبح يهودياً كاملاً.

٦٩ - اللاويين ٢٥: ٤٦.

٧٠ - الاسم العبري لاسم «يسوع Yeshu» فسر ككلمة مركبة «اليمسح اسمه وذكره» التي تستخدم كشكل متطرف للسباب. واقع الأمر، هو أن اليهود المعادين للصهيونية (مثل ناطوري كارتا)، يشيرون إلى هيرتزل بقولهم «هيرتزل يسوع» وقد وجدت في بعض الكتابات الدينية الصهيونية تعابير مثل «ناصر يسوع» وفي وقت قريب «عرفات يسوع».

الفصل السادس

النتائج السياسية

المواقف اليهودية الكلاسيكية المستمرة إزاء غير اليهود، ذات تأثير قوي على أتباعها من اليهود الأرثوذكس، وأولئك الذين يمكن اعتبارهم استمراراً لها، الصهيونيين، وعبرهم على سياسات دولة إسرائيل. ومنذ عام ١٩٦٧، وكلما أصبحت إسرائيل أكثر يهودية، تزايد تأثر سياساتها بالاعتبارات الإيديولوجية اليهودية، بدل المصالح كما يتصورها الامبرياليون بكل برود. وهذا التأثير الإيديولوجي لا يدركه الخبراء الأجانب عادة، ويميلون في العادة إلى تجاهله أو التقليل من أثر الديانة اليهودية على سياسات إسرائيل، وهذا يفسر لم كان العديد من توقعاتهم غير صحيح.

الكثير من أزمات الحكومة الإسرائيلية، يعود في الواقع، إلى أسباب دينية تافهة في الغالب، أكثر مما يعود إلى أي سبب آخر. والمساحة التي تخصصها الصحافة الإسرائيلية لبحث النزاعات التي تنشب باستمرار بين المجموعات الدينية المختلفة، أو بين المتدينين والعلمانيين، أكبر من المساحات التي تخصص لأي موضوع آخر، باستثناء أوقات الحرب أو التوتر الأمني. وعند كتابه هذه السطور، أوائل أغسطس ١٩٩٣، كان بين الموضوعات ذات الأهمية الكبرى لدى قراء الصحافة العبرية: هل يدفن الجنود من أبناء الأمهات غير اليهوديات والذين يقتلون أثناء الخدمة، في مناطق منفصلة في المقابر العسكرية

الإسرائيلية؟ وهل يسمح لجمعيات الدفن اليهودية، والتي تحتكر دفن كل اليهود باستثناء أعضاء الكيبوتزات، بمواصلة ختان جثث اليهود غير المختونين قبل دفنهم (من دون طلب إذن عائلتهم)؟ وهل سيبيح القانون أو يمنع استيراد اللحم غير المذبوح على الطريقة الإسرائيلية والمحظور رسمياً منذ إنشاء الدولة؟ وهناك موضوعات عديدة أخرى من هذا النوع، يهتم بها الجمهور اليهودي الإسرائيلي أكثر من المفاوضات بين إسرائيل وسوريا، مثلاً.

المحاولات التي قام بها سياسيون إسرائيليون قلائل لتجاهل مؤثرات «الإيديولوجيا اليهودية» واعتماد المصالح الامبريالية البحتة، أدت إلى نتائج مدمرة. ففي أوائل عام ١٩٧٤، وبعد الهزيمة الجزئية في حرب يوم الغفران (يوم كيبور)، كان لإسرائيل مصلحة حيوية في وقف النفوذ المتنامي لمنظمة التحرير الفلسطينية التي سيعترف بها العرب ممثلاً شرعياً وحيداً للفلسطينيين في ما بعد. ولذلك، وضعت الحكومة الإسرائيلية خطة لدعم النفوذ الأردني في الضفة الغربية وقد كان كبيراً في ذلك الوقت. وعندما طلب إلى الملك حسين أن يؤيد هذه الخطة طلب مقابلاً لذلك، وتم الاتفاق على أن يقيم كبير مؤيديه في الضفة الغربية، الشيخ محمد علي الجعبري، الذي حكم الجزء الجنوبي من الضفة الغربية بقبضة حديدية بتأييد من وزير الدفاع موشي ديان، وليمة لوجهاء المنطقة في باحة منزله الفخم في الخليل، كي ترفع الأعلام الأردنية في الحفلة التي ستكون بداية حملة موالية للأردن، ولكن المستوطنين في كريات أربع المجاورة، الذين كانوا بعدد أصابع اليد في ذلك الوقت، سمعوا بالخطة وهددوا رئيسة الوزراء غولدا مائير وديان بمعارضة قوية، لأن رفع علم دولة «غير يهودية» في أرض إسرائيل، يتعارض في رأيهم، مع المبدأ المقدس القاضي بأن هذه الأراضي هي لليهود حصراً. ولما كان الصهيونيون يؤمنون بهذا المبدأ، انحنت الحكومة لهذا الطلب وأمرت الشيخ الجعبري بأن لا يرفع الأعلام الأردنية، وعندها عمد الجعبري،

وقد شعر بإهانة شديدة، إلى إلغاء الحفلة. وفي مؤتمر الجامعة العربية الذي عقد في فاس بعد ذلك بقليل صوّت الملك حسين مؤيداً اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً وحيداً للفلسطينيين. وبالنسبة لجمهور إسرائيلي يهودي كبير، تخضع مفاوضات «الحكم الذاتي» الجارية حالياً لاعتبارات إيديولوجية يهودية، أكثر من أية عوامل أخرى.

ما يستنتج من هذا البحث لسياسات إسرائيل مدعماً بتحليل لليهودية الكلاسيكية، يجب أن يؤدي إلى أن تحليل عملية صنع القرار الإسرائيلي، من دون التوكيد على طابع إسرائيل المميز «كدولة يهودية» هو تحليل خاطئ. وخاصة، المقارنة السطحية غير الصحيحة بين إسرائيل وحالات إمبريالية غربية ودول إستيطانية أخرى. فخلال فترة التمييز العنصري، قسمت أرض جنوب أفريقيا إلى ٨٧٪ للبيض و١٣٪ اعترف بها رسمياً للسود. وفضلاً عن ذلك، أقيمت دول ذات سيادة رسمياً، ولها كل مظاهر السيادة، دعيت بانتوستان (Bantostan)، ولكن الإيديولوجيا اليهودية تقضي بأن لا يعترف بأن أي جزء من أرض إسرائيل يعود لغير اليهود، وبأن لا يسمح بأي مظهر من مظاهر السيادة مثل العلم الأردني. ومبدأ استرداد الأرض، يستتبع مثالياً، أن كل الأرض، وليس ٨٧٪ فقط، ستسترد في الوقت المناسب، أي ستصبح ملكية يهودية. ولا تعترف الإيديولوجيا اليهودية بالمبدأ الإمبريالي الملائم الذي عرفه الرومان ومارسته أمبراطوريات عديدة، وأفضل من لخصّه هو اللورد كرومر بقوله: «نحن لا نحكم مصر، نحن نحكم حكام مصر». لكن الإيديولوجيا اليهودية تحرم مثل هذا الاعتراف، كما تحرم أي موقف احترام لحكام غير يهود في أرض إسرائيل؛ فكل جهاز الملوك العملاء والسلاطين والمهراجات والرؤساء، وفي العصور الحديثة الدكتاتوريين المستقلين، والمناسب تماماً في حالات الهيمنة الإمبريالية الأخرى، لا يمكن أن تستخدمه إسرائيل ضمن المنطقة التي تعتبر جزءاً من أرض إسرائيل. ولذلك، فالمخاوف التي غالباً ما يعبر عنها الفلسطينيون من «بانتوستان»

لا أساس لها على الإطلاق. فقط، فقدان أرواح يهودية عديدة في حرب، كما حصل عام ١٩٧٣ وخلال فترة ١٩٨٣-٨٥ بعد حرب لبنان، يجعل تصور تراجع إسرائيلي ممكناً، لأنه يبرر اعتماد مبدأ قدسية الحياة اليهودية واعتبار المحافظة عليها أهم من أي اعتبارات أخرى. وما هو غير ممكن، ما دامت إسرائيل «دولة يهودية»، هو أن تمنح إسرائيل سيادة ولو مزيفة إذا كانت مظاهرها حقيقية، أو حتى حكماً ذاتياً حقيقياً لغير اليهود ضمن أرض إسرائيل ولو لأسباب سياسية. فإسرائيل، مثل بعض الدول الأخرى حصرية (exclusive)، وإن كانت حصريتها خاصة بها.

فضلاً عن السياسات الإسرائيلية يمكن حدس تأثير «الإيديولوجيا اليهودية» على قسم كبير من، وربما غالبية، يهود الشتات، ولما كان التنفيذ الفعلي للإيديولوجيا اليهودية يعتمد على بقاء إسرائيل قوية، فهذا بدوره يعتمد إلى حد كبير على الدعم الذي يؤمنه يهود الشتات، وخاصة يهود الولايات المتحدة الأميركية لإسرائيل. وتختلف صورة يهود الشتات، وموقفهم من غير اليهود، تماماً عن مواقف اليهودية الكلاسيكية كما وصفت في ما سبق. وهذا التفاوت واضح تماماً في الدول التي تتكلم الإنجليزية، حيث تحصل أقوى عمليات التحريف اليهودية، وبانتظام. وأسوأ الأوضاع تسود في الولايات المتحدة وكندا، الدولتين اللتين تؤيدان السياسات الإسرائيلية، حتى ما تناقض منها مع أبسط حقوق الإنسان، أشد ما يكون التأييد.

دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، عندما يبحث بتفصيل واقعي لا في المطلق، لا يمكن تفسيره بالمصالح الإمبريالية فقط؛ فالنفوذ القوي الذي تمارسه الجالية اليهودية المنظمة في الولايات المتحدة الأميركية وتأييدها لكل سياسات إسرائيل، يجب أن يؤخذ بالحسبان أيضاً لإيضاح سياسات الإدارات الأميركية في الشرق الأوسط. وهذه الظاهرة أكثر وضوحاً في كندا التي لا يمكن اعتبار سياستها حيال الشرق الأوسط مهمة، ولكن تكريسها لمصلحة إسرائيل يفوق ما يجري في الولايات

المتحدة. ففي كلا البلدين (كما في فرنسا وبريطانيا والعديد من الدول الأخرى)، يشبه الدعم الذي تقدمه المنظمات اليهودية لإسرائيل في ولائه، ولاء الأحزاب الشيوعية للاتحاد السوفياتي. كما أن الكثير من اليهود الذين يبدو أنهم يدافعون عن حقوق الآنسان ويتبنون آراء مستقلة في خصوص بعض الموضوعات الأخرى، يظهرون درجة ملحوظة من الشمولية في القضايا التي تؤثر على إسرائيل، ويتصدرون واجهة الدفاع عن السياسات الإسرائيلية. ومعروف تماماً في إسرائيل أن شوفينية وتعصب يهود الشتات المنظمين في تأييدهم لإسرائيل، أشد بكثير (وخاصة بعد ١٩٦٧)، مما يبديه اليهودي الإسرائيلي العادي. والتعصب ملحوظ في كندا والولايات المتحدة الأميركية، ولكن الأهمية السياسية الكبرى للولايات المتحدة، تجعلني أركز البحث عليها. وينبغي أن نذكر، في أي حال، أننا نجد أيضاً يهوداً لا تختلف آراؤهم عن السياسات الإسرائيلية، عن الآراء السائدة في المجتمع (لعوامل جغرافية أو اعتبارات تتعلق بالدخل أو الوضع الاجتماعي، وخلاف ذلك).

لماذا يبدي بعض اليهود الأميركان شوفينية متطرفة أحياناً، لا يبديها البعض الآخر؟ يجب أن نبدأ بملاحظة الأهمية الاجتماعية، وبالتالي السياسية للمنظمات الصهيونية الحصرية بطبيعتها: إذ هي لا تقبل غير اليهود من حيث المبدأ (حصريتهم هذه تتناقض بصورة مضحكة مع سعيهم الدؤوب لإدانة النوادي شبه المجهولة التي لا تقبل اليهود في عضويتها). وأولئك الذين يمكن اعتبارهم يهوداً منظمين والذين يقضون معظم وقتهم، خارج ساعات العمل العادية، بصحبة يهود آخرين، يمكن افتراض تمسكهم بالحصرية اليهودية ومواقف اليهودية الكلاسيكية تجاه غير اليهود. في الظروف الحاضرة، لا يستطيعون التعبير صراحة عن مواقفهم تجاه غير اليهود في الولايات المتحدة، حيث يشكل هؤلاء نسبة ٩٧٪ من السكان، ولذلك يعوضون عن ذلك بالتعبير عن مواقفهم الحقيقية بتأييد «الدولة اليهودية» ومعاملتها لغير اليهود في الشرق الأوسط.

وكيف يمكننا، بخلاف ذلك، تفسير الحماس الذي يبديه العديد من الحاخامات الأميركان في تأييد مارتن لوثر كنغ مثلاً، ومقارنته بعدم تأييدهم لحقوق الفلسطينيين، وحتى لحقوقهم الإنسانية الفردية؟ وكيف يمكننا، بخلاف ذلك، تفسير التناقض الصارخ بين مواقف اليهودية الكلاسيكية تجاه غير اليهود، والتي تقضي بوجوب عدم إنقاذ حياتهم إلا إذا كان في ذلك مصلحة يهودية، وبين تأييد حاخامات الولايات المتحدة لحقوق السود؟ وفي التحليل الأخير، فإن مارتن لوثر كنغ، وغالبية السود في أميركا، ليسوا يهوداً. وحتى ولو كان اليهود المحافظون والمتشددون، الذين يؤلفون غالبية اليهود المنظمين، هم الذين يؤمنون بهذه الآراء عن غير اليهود، فهناك جهة أخرى، قسم من يهود الولايات المتحدة المنظمين والإصلاحيين الذين لا يعارضونهم، بل هم في رأيي، خاضعون لنفوذهم.

التفسير الواقعي لهذا التناقض الظاهر بسيط. يجب أن نذكر أن اليهودية، وخاصة في شكلها الكلاسيكي، شمولية بطبيعتها، وسلوك مؤيدي العقائد الشمولية الأخرى في زماننا لا يختلف عن سلوك اليهود المنظمين في أميركا. فلم يكل ستالين ومؤيدوه من إدانة التمييز ضد السود في أميركا وجنوب إفريقيا، خاصة إبان ارتكاب أسوأ الجرائم في الاتحاد السوفياتي. ونظام التمييز العنصري في جنوب إفريقيا واصل من دون ملل، شجب انتهاك حقوق الإنسان في الدول الشيوعية والأنظمة الإفريقية الأخرى، وفعل مؤيدوه في البلاد الأخرى مثل ذلك. ويمكننا إعطاء أمثلة مماثلة عديدة أخرى؛ فدعم الديمقراطية أو حقوق الإنسان لا معنى له إذن، بل هو ضار وخادع عندما لا يبدأ بالنقد الذاتي، وبتأييد حقوق الإنسان أياً كان مكان انتهاكها، أو الجهة التي تنتهكها. وأي تأييد لحقوق الإنسان يبديه يهودي، بصورة عامة، ولا يشمل تأييد حقوق غير اليهود الذين تنتهك الدولة اليهودية حقوقهم، هو مجرد خداع، كتأييد الستالينيين لحقوق الإنسان. أما الحماس الظاهري الذي أبداه حاخامات أميركا

والمنظمات اليهودية في الولايات المتحدة الأميركية خلال الخمسينات والستينات تأييداً للسود في الجنوب، فقد كان لاعتبارات تتعلق بالمصالح اليهودية الذاتية فقط، كما كان التأييد الشيوعي للسود بالضبط. والهدف منه في كلتا الحالتين، هو استقطاب الجاليات السوداء سياسياً. وفي حالة اليهود، تأييد السياسات الإسرائيلية في الشرق الأوسط، من دون تفكير.

بناء عليه، فالامتحان الحقيقي الذي يواجه إسرائيل ويهود الشتات هو امتحان النقد الذاتي، الذي يجب أن يشمل نقد الماضي اليهودي، والجزء الأكبر من هذا النقد يجب أن يكون مواجهة صريحة ومفصلة للمواقف اليهودية من غير اليهود. وهذا ما يطلبه العديد، بحق، من غير اليهود: مواجهة ماضيهم للإطلاع على التمييز ضد اليهود واضطهادهم؛ فخلال السنوات الأربعين الأخيرة، كان عدد غير اليهود الذين قتلهم اليهود، أكثر بكثير من عدد اليهود الذين قتلهم غير اليهود. ونطاق التمييز والاضطهاد الذي تمارسه الدولة اليهودية ضد غير اليهود، بتأييد من يهود الشتات المنظمين، أكبر بكثير من ظلم اليهود في الأنظمة المعادية لهم. ورغم أن النضال ضد اللاسامية (وكل أشكال العنصرية الأخرى)، يجب أن لا يتوقف، فالنضال ضد الشوفينية والانغلاق اليهوديين، والذي يجب أن يتضمن نقداً لليهودية الكلاسيكية، هو على القدر نفسه من الأهمية، أو أهم.

... في هذا الكتاب يبين شاحاك أن القوانين الاسرائيلية تتسم بالتمييز العنصري ضد غير اليهود في ثلاثة مجالات أساسية: حقوق الإقامة، وحق العمل، وحق المساواة أمام القانون.

اسرائيل شاحاك ... هو في رأيي من تلك الحفنة القليلة من اليهود الاسرائيليين الذين يعبرون عن الحقيقة كما هي، مما يجعلهم من المنادين الحقيقيين بالسلام والمساواة بين الفلسطينيين والاسرائيليين.

ادوارد سعيد

(الحياة ٢٩ كانون الثاني ١٩٩٥)

بيسان

بيسان ، ص.ب. 5261-13، بيروت-لبنان
هاتف: 353796- 351269- فاكس: 351269 (009611)